أباطيل الخصوم حول القصص القرآنى

(عرض ومناقشة)

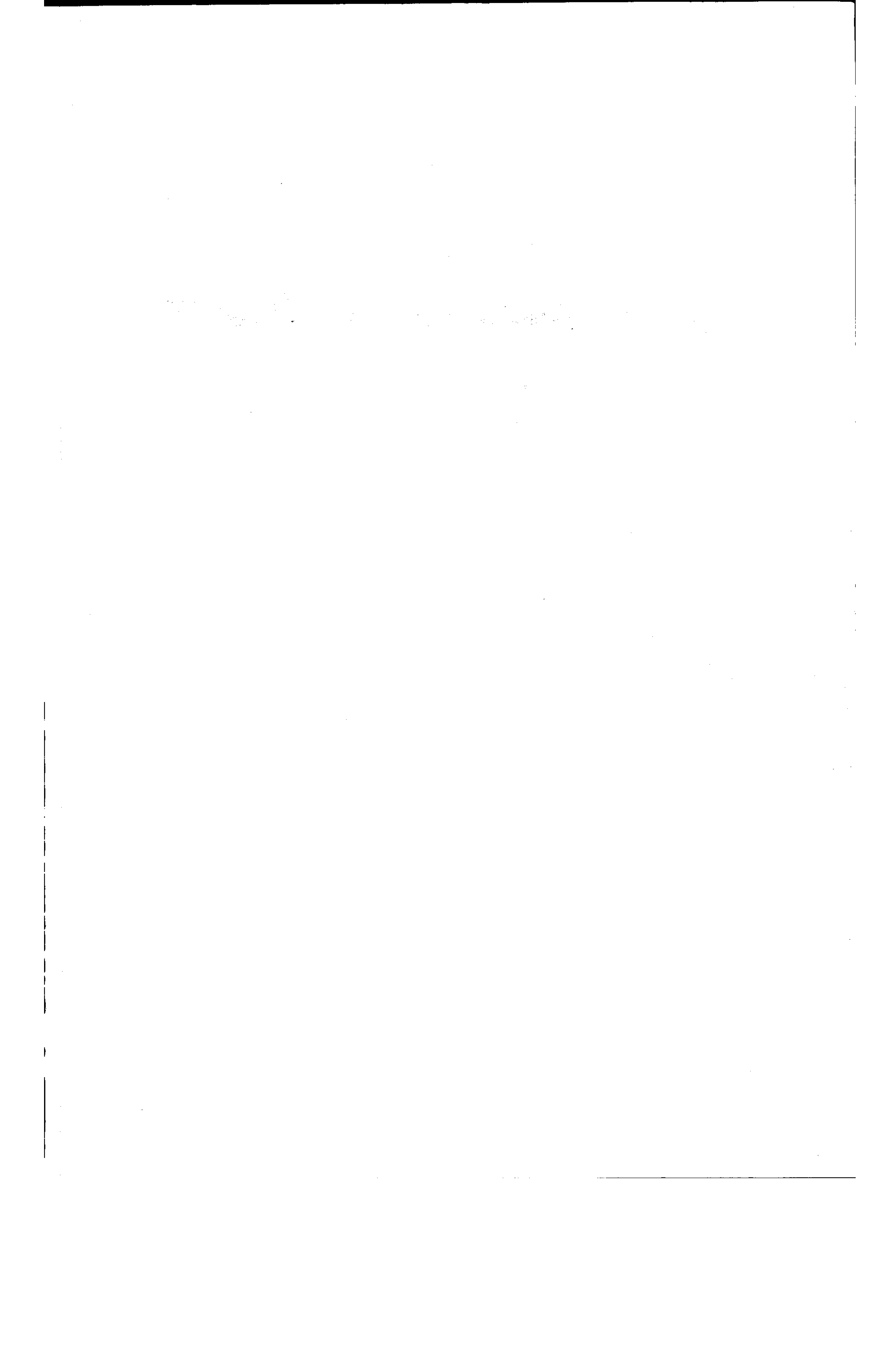
الدكتـور

عبد الجواد محمد المحص

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بجامعة الأزهر

موقع المؤلف على الإنترنت " جواد "
www.geocities.com/gwadmhs
E-mail: gwadmhs@yahoo.com



الإهـــداء

إلى الأقمار المطلة من عالم الحق في سماء الإسلام العظيم.

وإلى كل ذي عين صافية – صفاء عين المها – ترنو إلى شمس الحقيقة.

وإلى كل محب للحقيقة ينشدها حيثما كانت مطالعها، وأينما كان في الأسماء مسماها.

وإلى كل من يعشق شمسًا طالعة لا تغيب، وقمرًا لا يأفل، وسراجًا لا ينطفئ.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد :

فقد تعددت البحوث، وكثرت المؤلفات المعنية بالإسلام ومصادر الشريعة المحمدية، ولاسيما القرآن الكريم الذى يعد -بحق- كتاب العربية الأكبر والمصدر الأول للتشريع والقمة الشامخة المتفردة بالإعجاز فى اللغة والبلاغة والأدب.

وكثر من تلك البحوث والمؤلفات ما كتبه المغرضون الحاقدون من أعداء الإسلام والمستغربون الجاهلون من خصوم الحقائق الثابتة الراسخة. ومازال دور الطباعة والنشر والتوزيع تقذف للقراء فى هذا المجال ما يفتقر إلى ردّ وتصويب، ومناقشة وتعقيب لكشف الزيغ، ومحو الباطل، وإقرار الحق، ولاسيما إذا كان ما يتشدق به هؤلاء الخصوم يأخذ سمة البحث وطابع الدراسة فى مظهره الخادع، فيدرس القرآن الكريم أو جانبًا من جوانبه العديدة -ومنها القصص- دراسة معوجة منحرفة، أو يستدل بآياته على غير وجهها الصحيح، أو يدرس قصصه وأمثاله وترغيبه وترهيبه والطبيعة ومشاهد القيامة فيه دراسة أدبية محضة تضل عن الطريق الموصلة إلى الحق بسبب الوقوع تحت تأثير الدراسة الفنية للأدب العربى الذى يبدعه البشر، وليس تحت تأثير الدراسة البيانية لإعجاز القرآن الكريم الذى هو كلام الخالق جل شأنه.

معلوم لنا جميعًا : ان الإسلام هو دين الله الحق الخالد الذى شرعه الله تبارك وتعالى للدنيا كلها، وأن القرآن الكريم هو الدستور الصائب لجميع الأجناس والأمم، وعلى الرغم من هذا فإن الإسلام قد ظل منذ ظهوره حتى الآن يخوض

حروبًا ساخنة مع أعدائه.. منها ما يأخذ الطابع العسكرى على النحو الذى كان من الغزو التتارى لديار المسلمين، والحملات الصليبية والاحتلال الإمبريالى والصهيونى وما شابه ذلك. ومنها ما يأخذ الطابع الفكرى على النحو الذى نشاهده من تلك الغزوات العقلية المتلاحقة فى كل حين لإطفاء نور الله، وطمس معالم الحقيقة تجنيًا وتشفيًا ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

ويعد المستشرقون المتعصبون أصحاب القدح المعلى فى شن هذه الغزوات الفكرية على الإسلام والمسلمين، إذ كتبوا -ومايزالون يكتبون المؤلفات والبحوث والمقالات لينالوا من الإسلام والقرآن والسنة.. تدفعهم إلى ذلك : قلوبهم الصماء، وعقولهم المريضة، وتعصبهم الأعمى، وحقدهم الدفين، وعيونهم العمياء.. يرون الحق ظاهرًا بينًا فينكرونه، ويبصرون الدليل فى صفائه ونقائه فيجحدونه، ويجادلون فى الله بغير علم، ويتبعون كل شيطان مريد، ويصدق عليهم قول الله تبارك وتعالى : ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾[2].

وإلى جانب هؤلاء الأعداء الموتورين الحاقدين، كان الملاحدة والزنادقة والعلمانيون الذين خدعوا نفوسهم حتى انخدعت، ثم تخيلوا حتى خالوا وتوهموا أنهم أوتوا من العقائد والعلوم والمعارف ما لم ينله الأولون والآخرون، فسخروا أقلامهم وألسنتهم فى افتراء الكذب على الله خادعين أو مخدوعين ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[3].

---

[1] سورة التوبة : الآية ٣٢.

[2] سورة الأنفال : الآية ٦.

[3] سورة البقرة : الآية ٩، ١٠.

على أننـا قـد ابتلينـا -أيضًـا- بالمسـتغربين العـرب.. تلاميـذ المستشـرقين..
أولئك الذين تزين لهم أهواؤهم أنهم قوم متقدمون متطورون أوتوا من العلم والثقافـة ما لم يحققه الأزهريون، فراحوا يدرسـون القـرآن الكريـم دراسـة عصريـة علـى حـد زعمهم، فألصقوا به مـن التهـم مـا هـو بـرىء منـه كـل البـراءة، وأوردوا عليـه مـن الشبهات والأباطيل ما يصدق عليه قول الله تعـالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[1].

وحسـبى أن أشـير -هنـا- إلى واحـد مـن هـؤلاء المستغربين العـرب وهـو الدكتور محمد أحمد خلف الله.. هذا الذى نشر كتابًا بعنـوان "الفـن القصصـى فـى القرآن الكريم"[2] ، درس فيه القصص القرآنى دراسة أدبية فنية خرج فيها عن وجوه الحق فى هـذا القصـص، ومـا يحملـه مـن أسـرار وحقـائق وإعجـاز، وغـاب عنـه أن القصص القرآنى حين يُدرس دراسة أدبية لا يُدرس على وجه أدبـى مطلـق مـن كـل قيد، ولا ينظر إليه على أنه أثر أدبى محض، ولا يدرس -إطلاقًا- علـى هـذه الصـورة القاصرة، فإن هذا المنهج فـى الدراسـة الأدبيـة للقصـة القرآنيـة، فيـه ظلـم للحقيقـة، وعدوان على الواقع، ويفوت على الدارسين ما يمكـن أن يقـع فـى أيديهـم مـن خـير كثير، لو أنهم ينظرون إلى القصص القرآنى -كما نظرت فى كتابى هذا وفى إخوتـه المتممة له- على أنه وحى ربانى سماوى، وليس -بحال- مـن ميـدان الفـن القصصـى البشرى المعروف.

وعلى كل حال، فإن الحق تبارك وتعالى قد اقتضت حكمته أن يحفظ كتابـه من سخافات المستشرقين، وهراء المبطلين، وشـبهات الملحديـن، وأبـاطيل المسـتغربين

---

[1] سورة الحج: الآية ٨.

[2] الكتاب فى الأصل : رسالة جامعية تقدم بها لنيـل الدكتـوراه مـن جامعـة القـاهرة، فرفضـت وأحدثـت ضجة، فنال الدكتوراه بموضوع آخر، لكنه أصر على فكره المنحرف ونشر الكتـاب بعـد ذلـك. وهـذا مكمن الخطورة.

تحقيقًا لوعده ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فقيض له فى كل زمان ومكان جنودًا أقوياء مخلصين، وعلماء أتقياء صالحين، وباحثين واعين ممحصين، يلتفون حول موائده يغترفون من بحور فيوضاته، ويدافعون عن حياض ساحاته، ويذبون عن جلال قداسته أباطيل المغرضين، وكيد الخائنين، ويصدق عليهم قول الله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾، من هؤلاء العلماء نذكر -مثلاً لا حصرًا- :

- أ.د / عبد الجليل شلبى فى كتابه "رد مفتريات على الإسلام".
- أ.د / محمد رجب البيومى فى كتابه "قضايا إسلامية : ردود ومناقشات".
-أ.د / أحمد مكى الأنصارى فى كتابه "الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين".
- أ.د / محمد عزة دروزة فى كتابه "القرآن والمبشرون".
- الشيخ محمد الصادق قمحاوى فى كتابه "شبهات مزعومة حول القرآن".
- أ.د / عبد الرحمن حسن حنبكة الميدانى فى كتابه "صراع مع الملاحدة حتى العظم".
- د. عبد الجواد محمد المحص فى كتابى هذا "أباطيل الخصوم حول القصص القرآنى: عرض ومناقشة".

ويمثل هذا الكتاب الباب الثانى من رسالتى العلمية التى نلت بها الدكتوراه من كلية اللغة العربية بالقاهرة / جامعة الأزهر عام ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، وكانت بعنوان "القصة فى القرآن الكريم : بين حقائق الإعجاز وأباطيل الخصوم"، وأشرف على إعدادها أ.د/ عبد الفتاح الدماصى، وناقشها معه أ.د/ مصطفى الشكعة وأ.د/ عبد الحليم حفنى، ومنحونى عليها درجة العالمية (الدكتوراه) فى الأدب والنقد بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، جزاهم الله عنى خير الجزاء، ولهم منى كل شكر وثناء وتقدير ووفاء.

وقد شرعت فى تسطيره بعد أن تجمعت فى يدى جملة من الأباطيل المنسوجة التى أثارها وغزل خيوطها أعداء الإسلام من المستشرقين المتعصبين، والملاحدة الطاعنين، وأعداء الحقيقة ممن لف لفهم ونحا نحوهم من العرب المستغربين.

واقتضى منهج الدراسة أن يكون على النحو التالى :

الفصل الأول : أبطولة اقتباس القصص القرآنى من الشعر الجاهلى وقصص الفرس واليهود والنصارى (عرض ومناقشة).

الفصل الثانى : أبطولة اشتمال القصص القرآنى على الأخطاء التاريخية (مناقشات وردود).

الفصل الثالث : دعوى اشتمال القرآن الكريم على القصص الأدبى الأسطورى (مناقشات وردود).

الفصل الرابع : أبطولة اشتمال القرآن الكريم على القصص الخيالى التمثيلى والقياس الشعرى (عرض ومناقشة).

الفصل الخامس : شبهات إبليس السبع فى مجال الأدب القصصى ومحاولة النقاد المحدثين تطبيقها على قصص القرآن الكريم.

الفصل السادس : تفنيد أباطيل على بعض شخصيات القصص القرآنى.

وإذا كنت اليوم أنشر هذه الفصول الستة بين دفتى هذا الكتاب، فإنما يدفعنى إلى ذلك غيرتى الإسلامية على كتاب الله عز وجل، وحرصى على أن تظل صورته المثلى مطبوعة فى الأذهان.. نقية خالصة من شوائب الأضاليل والأباطيل التى نسج خيوطها -بخبث وكلام معسول- أعداء الدين الحق، وخصوم الحقيقة الراسخة.

إننى أنشر كتابى هذا دفاعًا عن القصص القرآنى المعجز، وصدًا لتيارات أولئك الأعداء، وتبيانًا لأباطيلهم وأساليبهم الضالة وكلامهم المنحرف عن الصواب.. تنبيهًا للأذهان.. وتوعية للعقول.. وترشيدًا للأفكار.. وليكون المسلمون على حذر دائم من أعدائهم.. وما أكثرهم !

ومما تجدر الإشارة إليه : أنه كان لا يكفى فى دحض تلك الأباطيل والمفتريات أن أرد على مروجيها وناسجيها بآيات من القرآن الكريم تنفى مزاعمهم أو أثبت -إن فى إيجاز وإن فى تطويل- بطلانها وفسادها، وأنها ضرب من الانحراف عن الحقائق الثابتة.. و لم يكن ذلك يقتضى جهدًا كبيرًا مادام الحق سبحانه قد قال بصريح اللفظ : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾، و﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.

لكن المستشرقين والملاحدة لا يؤمنون بالقرآن الكريم بعد أن طمست عيونهم عن الحق، وعميت قلوبهم عن الحقائق الجلية التى أنزلها الحق من فوق سبع سماوات على الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، ومن ثم فإنه يتحتم على الباحث أن يبطل أباطيلهم بأدلة من العقل والفكر والعلم لا يستطيعون تكذيبها، ولا يجدون منفذًا إلى الشك فيها.. كما يتحتم على الباحث أن يثبت للقراء فساد الأدلة والرؤى التى لجأ إليها المستغربون العرب وأمثالهم فى دراساتهم التاريخية والفنية للقصص القرآنى.

أقول -مرة أخرى- : إنه لا يكفى -مع هؤلاء وأولئك- حين نخاطبهم أن نقف عند الاستشهاد بالآيات القرآنية المثبتة بحق ويقين أن القصص القرآنى تنزيل حكيم حميد، أو نكتفى بذكر الحقائق على أنها حقائق، بل يحسن ويتحتم أن نؤيد ذلك بالأدلة العلمية، والبراهين الفكرية، والحجج البالغة، وأن ننفى كل ما يناقضها بالأدلة أيضًا.. وهذا هو الأسلوب الناجع فى مناقشة القضايا الخطيرة. إذ لا يجدى مع هؤلاء النفر إلا دحض افتراءاتهم بالمنهج الموضوعى العلمى المنطقى المؤسس على الأدلة الفكرية الراسخة التى تهدم مزاعمهم من أساسها، فتجعلها أثرًا بعد عين، وسرابًا يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ووجد الله عنده فوَفّاه حسابه والله سريع الحساب.

لقد أردت -باختصار- أن أناقش هذه الأباطيل مناقشة حاسمة سافرة، منزهة عن اللغو المسف، والرد السطحى، متجهة إلى اللباب الخالص، والمنهج العلمى

المفحم، والرغبة القوية الملحة فى تجلية الحقيقة، وإعلان الحق، وإزهاق الباطل، مصداقًا لقول الله تعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2].

وأرجو أن أكون قد دافعت بما قلته فى كتابى هذا عن القصص القرآنى الحق، ونفيت عنه عبث العابثين، وأباطيل المغرضين، وبيّنت لمن يُخدعون بها حقيقة الأمر حتى يأخذوا حذرهم منها ومن مثيلاتها، فلا يخدعهم زخرفها ولا يفتنهم بريقها، وحتى يرجعوا إلى كتاب ربهم فيفهموه على صفائه ونقائه، ويعملوا به على بيِّنة من هديه وضيائه، فيسعدوا به كما سعد أسلافهم، ويأخذ بأيديهم إلى طريق الفوز بالجنة فى الآخرة.

أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يوفقنى إلى المزيد من خدمة القرآن الكريم والسنة المطهرة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حوش عيسى – بحيرة فى :

١٥ من شوال ١٤٢٠هـ

٢٢ من يناير ٢٠٠٠م

المؤلف

د. عبد الجواد محمد المحص

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

فرع جامعة الأزهر – بالإسكندرية

---

[1] سورة الأنبياء : الآية ١٨.

[2] سورة الإسراء : الآية ٨١.

الفصل الأول

أبطولة اقتباس القصص القرآنى

من الشعر الجاهلى وقصص الفرس واليهود والنصارى

(عرض ومناقشة)

نشرت مجلة "الشعر" فى عددها الصادر أول يناير ١٩٧٩م بحثًا للمستشرق "سير جارلز ليال" بعنوان "الشعر العربى القديم مصدرًا للمعرفة التاريخية"، وتعريب الأستاذ / عبد الله أحمد المهنا[1].

وقد زعم صاحب هذا البحث أن أشعار أمية بن أبى الصلت التى قام بجمعها ونشرها الأستاذ شولتهتسى عام ١٩١١ لها أهمية بالغة فى الدلالة على معرفة الناس الذين كانوا يجاورون مكة فى العصر الجاهلى بالقصص الدينية التى ورد ذكرها فى العهدين القديم والجديد، كما أنها تزود القارئ بمفتاح الينابيع التى استقى منها الرسول -صلى الله عليه وسلم- قصصه الواردة فى القرآن الكريم والتى تتحدث عن نفس المواضيع !

و لم يكن هذا المستشرق أول من افترى هذه الفرية، ولا أسبق من زعم من المستشرقين بأن القصص القرآنى مقتبس ومستمد من أشعار أمية بن أبى الصلت؛ بل إن المستشرق الفرنسى "كليمنت هوارت" قد كتب بحثًا فى عام ١٩٠٤ بعنوان "وجه الشبه بين القرآن وشعر أمية بن أبى الصلت"[2] وزعم فيه أنه ظفر بشيء قيم، واستكشف مصدرًا من مصادر القرآن الكريم.. هذا المصدر هو شعر أمية بن أبى الصلت الثقفى. وقد أطنب هوارت فى هذا البحث، وعقد مقارنة لا أساس لها من الصحة بين أشعار أمية وآيات من القرآن الكريم، وانتهى من هذه المقارنة إلى نتيجتين :

النتيجة الأولى : أن الشعر المنسوب لأمية بن أبى الصلت شعر غير منتحل، لأن ثمة فروقًا بين ما تضمنه هذا الشعر وما تضمنه القرآن الكريم من تفصيل بعض القصص، فيجب -فى زعم هوارت- أن يكون النبى محمد -صلى الله عليه وسلم- قد استعان بهذا الشعر -قليلاً أو كثيرًا- فى نظم القرآن الكريم.

---

[1] راجع : ص٩ - ٢٠.

[2] نشرته له "المجلة الآسيوية"، الجزء العاشر، قسم ٤، ص١٢٥.

النتيجة الثانية : أن صحة شعر أمية بن أبى الصلت واستعانة النبى به فى نظم القـرآن الكريم وقصصه قد حملتا المسلمين على محاربة شعر أمية ومحوه ليظل القرآن الكريم مستأثرًا بالجدة، وليصـح أن النبـى محمـد -صلى الله عليه وسلم- قد انفرد بتلقى الوحى من السماء !

وعلى هذا النحو : خيل للأستاذ هـوارت أنـه استطاع أن يثبـت أن هنـاك شعرًا جاهليًا صحيحًا قد اعتمـد عليـه الرسـول -صلـى الله عليـه وسـلم- فـى نظـم القرآن الكريم ولاسيما قصصه !

فلما كان عام ١٩١١ ظهر ديوان "أمية بن أبـى الصلـت" علـى يـد جامعـه وشارحه المستشـرق الألمـانى "فردريـك شـولتهتس" أذاعـه باللغـة العربيـة والألمانيـة، كذلك كتب مقالاً عن "أمية" فى كتاب تذكارى أعد لتكريم المستشرق "نولدكـه"، وزعم شولتهتس هنا وهناك أن شعر أمية شعر صحيح غير منتحل، إذ لا يعقـل -فـى نظره- أن تكون ستمائة بيت لأمية منحولة وغير صحيحة.

وحاول شولتهتس أن يظهـر بمظهـر المدافـع عـن الرسـول -صلـى الله عليـه وسلم- فرفض دعوى كليمنت هيوارت بأن الرسول قد استعان بشعر أمية فـى نظـم القرآن الكريم وقصصه، ولكنه أتى بفرية أشنع من فرية هيوارت، فقد ادعى أن أميـة ومحمدًا كانا تلميذين لأستاذ واحد، ونقلا عن مصادر وأساطير واحدة. وجعل أميـة هو الأول، ويليه فى الترتيب سيدنا محمد صلوات الله عليه، من جهة الذكاء والقـدرة على التحصيل وحسن الأخذ من الكتب، واستبقاء الصلة بين الأصول المنقول عنهـا، وبين ما نقل كل من أمية ومحمد !

ويضيف كاتب مادة "أمية" فى دائرة المعارف الإسلامية أن هناك خلافًا فـى الرأى بين شـولتهتس ونودلكـه فـى طبيعـة المصـدر الـذى اعتمـد عليـه أميـة ومحمـد وغيرهما من رجال الدين، كزيد بن عمرو وورقـة ومسـلمة، إذ يـرى شـولتهتس أن هؤلاء جميعًا قد اقتبسـوا مـن مصـادر واحـدة كـانت مدونـة بينمـا يـرى نولدكـه أن المصادر كانت مروية !

ومما تقدم يتضح لدينا أن كلاً من "جارلز ليال" و"كليمانت هوار" و"شولتهتس" و"نولدكه" يدورون حول فرية واحدة هى ادعاء أن القرآن الكريم وقصصه من تأليف الرسول صلوات الله وتسليماته عليه.

وهم فى ذلك يجارون أشباههم من بقية المستشرقين الذين عنوا كل العناية بترويج هذه الفرية، والحرص على نشرها بشتى الوسائل والطرق، حتى فى الكتب التى أصدروها عن تاريخ الشعوب الإسلامية، ومذهب التفسير الإسلامى، والعقيدة والشريعة فى الإسلام.

فنحن إذ نقرأ كتاب "تاريخ الشعوب الإسلامية" للمستشرق الألمانى "كارل بروكلمان" نراه فى الجزء الأول من هذا الكتاب يزعم أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- مدين بصورة كبيرة للمعلمين المسيحيين فى تأليف القرآن الكريم وقصصه، فقد عرفوه بإنجيل الطفولة وبحديث أهل الكهف السبعة، وقصة ذى القرنين وغيرها من الموضوعات التى تتواتر فى كتب العصر الوسيط ! ويزعم بروكلمان -أيضًا : أن الرسول -عليه السلام- كان يعزى نفسه -فى غمرة نضاله ضد جحود مواطنيه الأرستقراطيين وإنكارهم- بالأنبياء السابقين الذين لم تكن مهمتهم مع أقوامهم أسهل من مهمته، ولذلك أكثر من الإشارة إلى قصص هؤلاء الأنبياء، وإلى قصة موسى عليه السلام بالذات، وكان يعتمد -فى نظر بروكلمان أيضًا- على الأساطير اليهودية التى يحفل بها القصص التلمودى المفسر لحوادث التوراة والمعروف باسم "هجادة"، وأنه قد اقتبس عن التوراة فكرة الخطيئة الأصلية، وأنه قد وضع قصة النبى صالح لتكون ملحقًا ضروريًا يتحدث عن هلاك القبيلة العربية المعروفة باسم "قبيلة ثمود" ![1]

وحين نقرأ كتاب "مذاهب التفسير الإسلامى" للمستشرق اليهودى المجرى "أجنتس جولدتسيهر" نراه يراه يزعم أن سفر الخروج هو مصدر الكلمات القرآنية،

---

[1] راجع : تاريخ الشعوب الإسلامية، ج١، ص٤٣، ٤٤، ٨٣.

إذ يقول معلقًا على قوله الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة : ٥٤) يقول هذا المستشرق : «وهذا ينطبق فى الواقع على ما جاء فى سفر الخروج فصل ٣٢، فصلة ٢٧، الذى هو مصدر الكلمات القرآنية» ![1]

ويزعم فى موضع آخر من هذا الكتاب : أن ما جاء فى الكتب السابقة من مختلف القصص قد أجملها الرسول -صلى الله عليه وسلم- نفسه بمنتهى الإيجاز، وأحيانًا كان يوردها على وجه متداخل !![2]

ويزعم فى موضع ثالث : أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد أخذ قصة أمر إبراهيم بذبح ولده عن التوراة، دون تسمية الابن المعين للتضحية !![3]

كذلك حين نقرأ كتابه "العقيدة والشريعة فى الإسلام" نجده يقول كاذبًا : «لقد أفاد محمد من تاريخ العهد القديم -وكان ذلك فى أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء- ليذكر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم ووقفوا فى طريقهم»[4]، ويقول : «إن محمدًا أخذ يجمع ما وجده فى اتصاله السطحى أثناء رحلاته التجارية مهما كانت طبيعة هذا الذى وجده، ثم أفاد من دون أى تنظيم» ![5]

وحينما نقرأ كتاب "مصادر الإسلام" للدكتور "و. سنت كلاير تسدل"، نجده يزعم أن كتب الزردشتية كانت مصدرًا من مصادر القرآن الكريم والأحاديث

---

[1] مذاهب التفسير الإسلامى، ص١٠.

[2] راجع : ص٧٥.

[3] راجع : ص٩٩.

[4] ص١٥ (الترجمة العربية).

[5] السابق، ص٢٥.

النبوية، وأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يستحسن استحسانًا تامًا قصص الزردشتية، وكان من عادته المحادثة والمسامرة والمحاورة مع كل من يقصده على اختلاف مللهم ونحلهم، وأنه كان كثيرًا ما يتكلم باللغة الفارسية، وأن قصة "جمشيد" وخرافات الفرس عن معراج "أرتا ويراف" وزردش ووصف الفردوس وصراط "جينود" وشجرة هواية وقصة خروج "أهرمن" من الظلمات الأولية، وما شابهها، كل ذلك أثر تأثيرًا عظيمًا في القرآن الكريم والأحاديث المتواترة بين المسلمين إلى درجة بالغة حتى أصبحت قصص قدماء الفرس واعتقاداتهم أحد مصادر القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ولاسيما قصة معراج الرسول المأخوذة من كتاب فارسى يسمى "أرتا ويراف نامك"، وهو مؤلَّف باللغة البهلوية (الفارسية القديمة) قبل الهجرة بأربعمائة سنة فى عهد "أردشير بابكان" ملك الفرس. وأضاف هذا المستشرق الأفاك أن قصة عاد وثمود والناقة وأصحاب الفيل ونظائر هذه القصص فى القرآن الكريم كانت أخبارًا باردة وخرافات عجائز الحى اللواتى كن يدرسنها ليلهن ونهارهن[1].

وفى موضع آخر من كتابه روى هذه الأبيات :

دنت الساعة وانشق القمر	عن غزال صاد قلبى ونفر
أحور قد حرت فى أوصافه	ناعس الطرف بعينيه حور
مر يوم العيد فى زينته	فرماني فتعاطى فعقر
بسهام من لحظ فاتك	فتركني كهشيم المحتظر
وإذا ما غاب عنى ساعة	كانت الساعة أدهى وأمر
كتب الحسن على وجنته	بسحيق المسك سطرًا مختصر
عادة الأقمار تسرى فى الدجى	فرأيت الليل يسرى بالقمر
بالضحى والليل من طرته	فرقه ذا النور كم شىء زهر

[1] راجع : ص١٥٥ - ١٩٨ (الترجمة العربية).

قلت إذ شـــق العــذار خـــــده	**دنت الساعة وانشق القمر** [1]

وروى أيضًا هذين البيتين :

أقبــل والعشــاق مـــن خلفــــه	**كـأنهم مـن حــدب ينسـلون**
وجـاء يوم العيــد فى زينتــــه	**لمثل ذا فليعمل العاملــون** [2]

ثم حاول أن يتخذ من هذه الأبيات جميعًا قرينة على اقتباس القـرآن الكريـم بعض الآيات من أشعار الجاهليين، على أن هــذه الأبيـات لامـرئ القيـس، فقـال مـا نصه:

«ومن الحكايات المتداولة فى عصرنا الحاضر أنه لما كانت فاطمة بنت محمـد تتلو هذه الآية وهى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ سمعتها بنت امرئ القيس وقـالت لها : إن هذه هى قطعة من قصائد أبى أخذها والدك وادعى أن الله أنزلها عليه. ومع أنه يمكن أن تكون هذه الرواية كاذبة، لأن امرئ القيس توفى سنة ٥٤٠ من التـاريخ المسيحى، و لم يولد محمد إلا فى سنة الفيل أى سنة ٥٧٠ مسـيحية، إلا أنـه لا ينكـر أن الأبيات المذكورة الموضوع تحتها علامة هى واردة فى (سورة القمر ٥٤، الآية ١، و٢٦، و٢٩) وفى (سورة الضحـى ٩٣، الآيـة ١) وفـى (سـورة الأنبيـاء ٢١، الآيـة ٩٦) وفى (سورة الصافات ٣٧، الآية ٩٥) غاية الأمر أنه يوجد اختلاف طفيف فـى اللفظ وليس فى المعنى. مثـلاً : ورد فـى القـرآن "اقـتربت" أمـا فـى القصيـدة فـورد "دنت" عوضًا عن "اقربت"، فمن البين الواضح أنه يوجد مناسبة ومشابهة بـين هـذه الأبيات وبين تلك الآيات الواردة فى القرآن. فإذا ثبت أن هذه الأبيات هى لامـرئ القيس حقيقة فحينئذ يصعب على المسـلم توضيـح كيفيـة ورودهـا فـى القـرآن لأنـه يتعذر على الإنسان أن يصـدق أن أبيـات شـاعر وثنـى كـانت مسـطورة فـى اللـوح المحفوظ قبل إنشاء العالم» ![3]

---

[1]، [2] راجع : ص٢٦.

[3] ص٢٧، ٢٨.

ثم يعمد هذا المستشرق إلى إقامة العراقيل أمام الباحث ليبعده عن الحقيقة الجلية فيقول : «قال مؤلف هذه الصحيفات : إنني لا أرى مخرجًا ومنفذًا لعلماء الإسلام من هذا الإشكال إلا بأن يقيموا الدليل والبرهان على أن هذه الأبيات هي مأخوذة ومقتبسة من القرآن وأنها ليست من نظم امرئ القيس الذى توفى قبل مولد محمد بثلاثين سنة. ولكن يصعب علينا أن نصدق بأن نظام هذه القصائد بلغ إلى هذا الحد من التهتك والاستخفاف والجراءة فى أى زمن من الأزمان بعد تأسيس مملكة الإسلام التى كانت متسعة الأطراف والأكناف حتى يقتبس آيات من القرآن ويستعملها بهذه الكيفية فى مثل هذا الموضوع كالكيفية المستعملة فى هذه القصائد» ![1]

والدكتور "سنت كلاير تسدال" إذ يقول ذلك إنما يقوله معتقدًا أن ما لقيه من عناء وجهد فى بحث تلك الأبيات سيلقاه مثله باحثو المسلمين ونقادهم، ومن هنا يعتقد أنهم سيضطرون إلى التسليم بما يريد هو أن يرى عليه القرآن الكريم !!

ولقد قلت فيما سبق إن المستشرقين قد عنوا عناية كبيرة بدعوى اقتباس القرآن وقصصه، من مصادر متعددة، وإنه لم يكن وحيًا من السماء ولا تنزيلاً من الله رب العالمين... ومن ثم راحوا يؤلفون الكتب، وينشرون البحوث العديدة التى تروج هذه الفرية وتذيعها بشتى الوسائل والطرق، فنحن نقرأ ونجد لهم مثلاً بالإضافة إلى ما سبق ذكره ما يلى :

١-صلة القرآن باليهودية والمسيحية للمستشرق الألمانى "فلهلم رودلف".

٢-أثر اليهودية فى الإسلام للمستشرق "جيوم".

٣-توافق القرآن والإنجيل للمستشرق الفرنسى "يوستل".

٤-التوراة فى القرآن للمستشرق الألمانى "فايل".

٥-النصرانية واليهودية فى القرآن للمستشرق الألمانى "بومشتارك".

---

[1] ص٢٨.

٦-ماذا أخذ محمد من اليهودية ؟ للمستشرق اليهودى "إبراهام جيجر".

٧-عناصر من الهجادة فى قصص القرآن للمستشرق "شابيرو".

٨-طابع الإنجيل فى القرآن للمستشرق "وولكر".

٩-مصادر القصص الإسلامية فى القرآن وقصص الأنبياء للمستشرق "سيدرسكى".

١٠-عناصر نصرانية فى القرآن للمستشرق "آرنس".

١١-القصص الكتابية فى القرآن للمستشرق "شباير".

١٢-بحوث فى العلاقة بين الشعر المنسوب إلى أمية بن أبى الصلت والقرآن، رسالة دكتوراه بقلم "د. فرانك كامينتسكى" عام ١٩١١م.

ولا يكفى إبطال مزاعمهم أن نرد عليهم بآيات من القرآن الكريم، فهم لا يؤمنون به بعد أن طُمست عيونهم عن الحق، وعميت قلوبهم عن الحقائق الجلية التى أنزلها الله سبحانه من فوق سبع سماوات على الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم. ومن ثم ينبغى أن نبطل مزاعمهم بأدلة من العقل لا يستطيعون تكذيبها، ولا يجدون منفذًا إلى الشك فيها.

فعلى سبيل المثال : إذا أردنا أن ندحض المزاعم التى سبق ذكرها، فلا ينبغى بحال من الأحوال أن نقف عند الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة التى تثبت بحق ويقين أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد مثل قول الله تعالى : ﴿تَنزِيلٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله تعالى : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾... وهكذا.

ينبغى -كما سبقت الإشارة- أن ندحض افتراءاتهم ومزاعمهم بالمنهج الموضوعى المنطقى، والأدلة العقلية الراسخة، التى تهدم مزاعمهم وافتراءاتهم من أساسها، فتجعلها أثرًا بعد عين، وسرابًا يحسبه الظمآن ماء إذا جاءه لم يجد شيئًا ووجد الله عند فوفاه حسابه والله سريع الحساب.

لقد أوضحت فى بداية هذا الفصل كيف زعم بعض هؤلاء المستشرقين أن الأشعار المنسوبة إلى أمية بن الصلت الثقفى كانت مصدرًا من مصادر القرآن الكريم وقصصه. فإذا أردنا أن ندحض هذه الفرية فلابد أن نقوم بتحليل هذه الأشعار وبيان مدى صلتها بمسألة انتحال الشعر الجاهلى الذى وصفه المستشرقون وعلى رأسهم "مارجليوث" بأنه شعر منتحل كله إلا شعر أمية بن أبى الصلت !

لقد رأى هؤلاء المستشرقون ما تضمنه الشعر المنسوب لأمية هذا من حديث عن الأخبار والشخصيات الواردة فى قصص القرآن الكريم مثل : نوح والسفينة والطوفان، وذى القرنين، وبلقيس والهدهد، والكهف والرقيم، وعاد وثمود والناقة والصيحة، وأصحاب الفيل، وموسى وأخته، وهارون، وفرعون، ومريم وعيسى، ومأرب وسيل العرم، ويونس والحوت، وإبراهيم والذبيح، ولوط وقومه، وما إلى ذلك.

رأى المستشرقون ذلك فى الأشعار المنسوبة لأمية بن أبى الصلت، فخيلت إليهم أوهامهم السقيمة أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد استمد القصص القرآنى من هذا الشعر، «والغريب من أمر المستشرقين فى هذا الموضوع وأمثاله : أنهم يشكون فى صحة السيرة نفسها، ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود، فلا يرون فى السيرة مصدرًا تاريخيًا صحيحًا، وإنما هى عندهم، كما ينبغى أن تكون عند العلماء جميعًا طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمى الدقيق ليمتاز صحيحها من منحولها. وهم يقفون هذا الموقف العلمى من السيرة، ويغلون فى هذا الموقف، ولكنهم يقفون من أمية بن أبى الصلت وشعره موقف المستيقن المطمئن، مع أن أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق، ولا أبلغ فى الصحة من أخبار السيرة» ![1]

ولو كان لهؤلاء الذين ادعوا عدم انتحال الشعر المنسوب لأمية علم باللغة

---

[1] فى الأدب الجاهلى لطه حسين، ص١٤٣.

العربية وأساليب الشعراء الجاهليين، لعرفوا أنهم وقعوا على أشعار منتحلة بيِّنة الانتحال، ولَمَا تورطوا فى هذا الخطأ المبين وتلك الأبطولة الزائفة[1].

لكن المعهود فى جماعة المستشرقين -كما يقول الأستاذ العقاد- : «أن الكثيرين منهم يقرنون سوء الفهم بسوء النية، لأنهم يخدمون سياسة المستعمرين أو سياسة المبشرين المحترفين، أو ينظرون فى بحوثهم نظرة الغربى الذى ينظر إلى الشرقى نظرة المتعالى عليه فى حاضره وماضيه، غير أنهم ما عدا القليل منهم محدودون سطحيون يحومون حول المسائل الحسية، ولا يتوسعون فى النظر أو يتعمقون وراء الظواهر التى يلمسها شاهد الحس لمسًا، فلا تخرج عنده من حدود ما يثبته أو ينفيه من وقائع العيان والسماع، فغاية ما يقصدون إليه من أمر اللغة أنهم يلتمسون الأسانيد المعتمدة عند أهلها، فيأخذونها بالشك والتجريح، وأنهم يهدمون الدعائم القائمة ليستجيزوا بعد ذلك كل ادعاء يدعونه، وكل إنكار ينكرونه من أصول اليقين والاطمئنان»[2] .

وصدق الأستاذ العقاد فيما قاله عن هؤلاء المستشرقين، فإننا حين ننظر إلى دعوى المستشرقين بصحة شعر أمية، سنرى فيها مثلاً صارخًا لجهلهم باللغة العربية والذوق الأدبى... فلقد عكس هؤلاء القوم القضية حين زعموا أن القصص القرآنى مستمد من الأشعار المنسوبة لأمية، وكان حريًا بهم لو كانوا أمناء فى البحث العلمى أن يقرروا أن شعر أمية المشتمل على أخبار وقصص وردت فى القرآن الكريم إما أن يكون منتحلاً، وإما أن يكون أمية نفسه هو الذى أفاد وأخذ من القرآن الكريم.

لقد أنكره كثيرون منهم ما أضيف إلى معظم شعراء الجاهلية من أشعار وقصائد وزعموا أن الشعر الجاهلى منتحل كله، وموضوع فى أزمنة متأخرة تمتد إلى القرنين الثانى والثالث الهجريين على الأقل، لكنهم لم يقفوا هذا الموقف من الأشعار

---

[1] راجع : العصر الجاهلى لشوقى ضيف، ص٣٩٦.

[2] مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية، ص٢٦٠.

المنسوبة لأمية، فهى عندهم استثناء من هذه النظرية الشائعة عندهم... وهم لا يقررون صحة شعر أمية إلا من أجل الوصول إلى فريتهم الكاذبة بأن القصص القرآنى له مصادر عديدة من بينها هذا الشعر. ومن هنا يتضح لنا السر فى عناية المستشرق الألمانى "فردريك شولتهس" بجمع أشعار أمية، ونشرها فى ديوان باللغة العربية واللغة الألمانية، مع تصحيح هذه الأشعار وضبط كلماتها، والمبادرة بتصديق ما نسب إليه من أشعار وأخبار وآثار دون سائر الشعراء الجاهليين !!

لقد أشار الأستاذ عبد الله عبد الجبار والدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابهما "قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى" إلى أن كثيرًا من القصص الدينى الوارد فى ديوان أمية بنْ أبى الصلت الثقفى هو من القصص الموضوع ألفه الوضاعون[1]. ولا يستبعد الدكتور جواد على أن يكون هذا القصص قد ظهر فى أيام الحجاج بن يوسف الثقفى عصبيةً وتقربًا إليه، فكلاهما ثقفى[2].

ونحن نؤيد ذلك كل التأييد، لأن من يقرأ هذا القصص، ويمعن النظر فيه بيتًا بيتًا، يمكنه تقسيمه من حيث قيمته الفنية، وتأثره بالقرآن الكريم أو عدم تأثره إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : قصص لم يتأثر فيه أمية بالقرآن الكريم فلا تبدو فيه مسحة من التوافق، والراجح أنه نظمه قبل البعثة المحمدية وظهور الإسلام. وتظهر فى هذا الشعر القصصى المسحة الجاهلية وقوة الأداء ومتانة الصياغة.

فمن ذلك -مثلاً- قوله فى قنزعة الهدد وأنها مكان حمله أمه فى قفاه :

غيْمٌ وظلماءُ وغيثُ سحابةٍ — أيامَ كَفَّنَ واسْتراد الهدهدُ

يبغى القرارَ لأمِّه ليُجنَّها — فبنَى عليها فى قفاه يمْهدُ

مَهْدًا وطيًّا فاستقلَّ بحَمْلِهِ — فى الطيرِ يَحمِلُها ولا يتأوَّدُ

---

[1] راجع : ص٥١٣.

[2] راجع : تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٥، ص٣٨٠.

من أُمِّهِ فَجرى لصالح حملها ... ولدًا وكفَّ ظهره ما تقفدُ

فيزال يدلُجُ ما مضى بجنازةٍ ... منها وما اختلف الجديد المُسنَدُ[1]

ونحن فى غنى عن التدليل على ما فى هذه الأبيات من خرافة أوضحها الجاحظ حين قال : «إن العرب والأعراب كانوا يزعمون أن القنزعة التى على رأس الهدهد ثواب من الله تعالى على ما كان من بره لأمه ! لأن الأم لما ماتت جعل قبرها على رأسه، فهذه القنزعة عوض عن تلك الوهدة. والهدهد طائر منتن الريح والبدن من جوهره وذاته... من غير عرض يعرض له... فأما الأعراب فيجعلون ذلك النتن شيئًا خامره بسبب تلك الجيفة التى كانت مدفونة فى رأسه»[2].

ونحن نعلم أن القرآن الكريم قد تحدث عن "الهدهد" فى قصته مع سيدنا سليمان وبلقيس ملكة سبأ، فلو كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد استمد القصص القرآنى من أشعار أمية -كما يدعى كليمانت هورت وأمثاله- فلو فلم يأخذ مثل هذا الكلام ؟! إن فى ذلك لدليلاً قويًا على أن القصص القرآنى وحى من السماء وتنزيل من الله رب العالمين.

ومن الأشعار المنسوبة لأمية قوله :

جزى اللّه الأجلُّ المرء نوحًا ... جزاء البر ليس له كذاب

بما حملته سفينته وأنجت ... غداة أتاهمو الموت القلاب

وفيها من أرومته عيال ... لديه إلا الظلماء ولا السغاب

وإذ هم لا لبوس لهم تقيهم ... وإذ صم السلام لهم رطاب

عشية أرسل الطوفان يجرى ... وفاض الماء ليس له جراب

على أمواج أخضر ذى حبيك ... كأن سعار زاخره الهضاب

وأرسلت الحمامة بعد سبع ... تدل على المهالك لا تهاب

---

[1] ديوانه، ص٢٣.

[2] كتاب الحيوان، ج٣، ص٥١٠، ٥١١ (المجمع العلمى العربى الإسلامى، بيروت، الطبعة الثالثة).

تلمس هل ترى فى الأرض عينا   وغايتـه بهـا المـاء العبـاب
فجاءت بعدمـا ركضت بقطف   عليـه الثأط والطين والكثـاب
فلمـا فرشـوا الآيـات صـاغوا   لهـا طوقًـا كما عقد السـخاب
إذا مـاتـت تورثـه بنيهـا   وإن تقتل فليس لها استلاب[1]

والشاعر فى الأبيات السابقة -كما نرى- يتحدث حديثًا موجزًا عن سيدنا نوح عليه السلام، وعن الطوفان، والسفينة، ثم ينتقل فيتحدث عن خرافة تطويق الحمامة التى يزعمون أنها كانت سببًا فى نجاة سفينة نوح، إذ دلت من بها على اليابسة.

يقول الجاحظ :

«وفى كثير من الروايات من أحاديث العرب.. أن نوحًا عليه السلام حين بقى فى اللجة أيامًا، بعث الغراب، فوقع على جيفة و لم يرجع، ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى فى الأرض موضعًا يكون للسفينة مرفأ، واستجعلت على نوح الطوق الذى فى عنقها، فرشاها بذلك -أى : فجعل ذلك جعلاً لها»[2].

ونحن نعلم كل العلم أن هذا الأمر لم يرد له ذكر فى قصة نوح الواردة فى القرآن الكريم، فلو كان الرسول عليه السلام قد اقتبس من أشعار أمية -كما يزعم الأفاكون- فلماذا ترك هذا الأمر ؟! إن فى ذلك دليلاً آخر يدحض مزاعم المستشرقين، ويؤكد أن القصص القرآنى وحى إلهى منزل من السماء.

القسم الثانى من شعر أمية القصصى : قصص دينى يظهر فيه الضعف والابتذال والحشو والتفكك وسوء المحاكاة والتقل واحتلاب القوافى :

من شواهده، قوله يتحدث عن قصة سيدنا إبراهيم وهمه بذبح ولده :

وإبراهيـم الموفـى بـالنذر   احتسـابًا وحـامل الأجـزال

---

[1] ديوانه، ص١٨، ١٩.

[2] الحيوان، ج٢، ص٣٢٠، ٣٢١.

بكـره لم يكـن ليصـبر عنـه	**أو يـراه فـى معشـر أقتـال**
أَبُـنَيَّ إن نذرتـك للّـه	**شحيطًا فاصبر فدى لـك حـالى**
فأجـاب الغـلام أن قـال فـوه	**كـل شـىء للّـه غـير انتحـال**
فاقض ما قد نذرته للّه واكفـف	**عـن دمـى أن يمسـه سـربالى**
واشـدد الصفـد أن أحيـد عـ	**ـن السكين حيد الأسير ذى الأغـلال**
بينما يخلـع السـرابيل عنـه	**فكـه ربـه بكبـش جـلال**
قال : خـذه وارسـل ابنـك إنـى	**للـذى إن فعلتمـا غـير قـالى**
ربما تجزع النفوس من الأمر لـ	**ـه فرجـة كحـل العقـال[1]**

وليس خافيًا مـا فـى هـذه الأبيـات مـن ضعـف وابتـذال وركاكـة وتـأليف مضطرب وقوافى مجتلبة، مثل قوله "فدى لك حالى"، فهو -كما نرى- فضلة وقافيـة غير مناسبة، ومثل إكماله البيت الرابع بلفظة "انتحال" وليس فيها معنى زائـد سـوى أن آخرها لام مكسورة.

ومع أن قوله "بكره لم يكن ليصبر عنه" يشعر أن الذبيح هو إسماعيل، إلا أن الأبيات فى سياقها ومعناها مقاربة لما جاء عن هذه القصة فى التوراة المحرفة.

وحرى بالذكر أن الشاعر قد تحدث قبل هذه الأبيات عن قصة نـوح بمـا لا فضل فيه عما ذكره آنفًا، كما أنه تحدث عن هذه القصـة أيضًـا فـى قصيـدة ثالثـة[2] ذكر فيها استواء سفينة نوح على الجودى كما جاء فى القرآن الكريـم، وذكـر فيهـا -كذلك- لفظة "التنور" والفعل المسند إليه فى القرآن الكريم وهو "فار"، مما لا يبقى شكًا فى سماع أمية، أو علمه بالآية الخاصة بسفينة نـوح وفـوران التنـور فـى القـرآن الكريم، أو انتحال هذا الشعر ووضعه بعد الإسلام بزمن... استمع إليه إذ يقول :

فلما استنار اللّـه تنور أرضه	**ففار وكان الماء فى الأرض ساجيا**

---

[1] ديوانه، ص٥٠.

[2] راجع : ديوانه، ص٧٠، ٧١.

وإذ يقول:

وكان لها الجودى نهيا وغاية وأصبح عنه موجه متراخيا

على أن تكرار الحديث عن قصة نوح فى شعر أمية يدل دلالة واضحة -إن صحت نسبة هذا الشعر إلى العصر الجاهلي- على أن أمية كان يحاول بهذا التكرار أن يحاكى المنهج القرآنى فى كثير من قصصه وطريقه إيراده لقصة نوح عليه السلام، حيث ورد ذكر هذا النبى الكريم فى ثلاثة وأربعين موضوعًا قرآنيًا، ووردت قصته مفصلة فى أكثر من سورة كالأعراف وهود والشعراء والقمر والمؤمنون، فضلاً عن اختصاصه بسورة كاملة سميت باسمه عليه السلام.

كذلك تعد القصيدة التى قالها فى سيدنا عيسى بن مريم وحمل أمه به من نماذج القسم الذى نحن بصدده؛ لأن المسحة الإسلامية فيها بارزة ظاهرة، والمحاكاة فيها للقرآن الكريم بينة جلية، وفيها حشو وفضول كثير، وضعف وابتذال، واجتلاب للقوافى؛ بل واغتصاب لكثير من الألفاظ التى تجعل هذه القصيدة ونحوها أشبه ما تكون بنظم المتون التى تخلو من رونق الشعر، وجمال الأدب، وجمال الأدب، وحسن البيان، وقوة التأثير -فاستمع إليه إذ يقول فى ركاكة:

وفى دينكم من رب مريم آية منبئة بالعبد عيسى بن مريم

أنابت لوجه اللّه ثم تبتلت فسبح عنها لومة المتلوم

فلا هى همت بالنكاح ولا دنت إلى بشر منها بفرج ولا فم

ولطت حجاب البيت من دون أهلها تغيب عنهم فى صحارى رمرم

يحار بها السارى إذا جن ليله وليس وإن كان النهار بمعلم

تدلى عليها بعد ما نام أهلها رسول فلم يحصر ولم يترمرم

فقال: ألا لا تجزعى وتكذبى ملائكة من رب عاد وجرهم

أنيبى وأعطى ما سئلت فإننى رسول من الرحمن يأتيك بابنم

فقالت لـه: أنـى يكـون ولم أكــن	بغيـا ولا حبلـى ولا ذات قيـم
أأحـرج بـالرحمن إن كنـت مسلمًا	كلامـى فـاقعد مـابدا لـك أو قـم
فسبَّح ثـم اغترَّهـا فـالتقت بـه	غلامًا سوىَّ الخلْـق ليـس بتـوأم
بنفحته فى الصدر من جيب درعها	وما يصرم الرحمن ملأمر يصـرم
فمـا أتمتـــه وجــاءت لوضعـــه	فـآوى لهـم مـن لومهـم والتنـدم
وقال لها من حولها جئـت منكـرا	فحق بأن تلحى عليـه وترجمـى
فأدركهـا مـن ربهـا ثـم رحمـة	بصـدق حديـث مـن نبـى مكلـم
فقـال لهـا إنــى مــن اللّـه آيـة	وعلمنـى واللّـه خـير معلـم
وأرسلت لم أرسل غـويًا ولم أكـن	شقيا ولم أبعث بفحش ومأثـم[1]

فنحن إذا نمعن النظر فى هذه الآيـات نكتشـف أن ناظمهـا كـان يحـاول أن يجارى نظم قصة عيسى ومريم فى القرآن، ولاسيما ما جاء عن هذه القصة فى سورة (مريم). وهناك أكثر من شاهد يدل علـى ذلـك ويؤكـده. فلقـد جـاء فـى القـرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ وهذا القول الكريم يقابلـه البيـت الأول. وجاء فى القرآن الكريـم قـول الله تعـالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ وهـذا القول الكريم يقابله البيت الثالث. وجاء فى القرآن الكريم قوله تعـالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وهذا القول الكريم يقابله البيتان الرابع والسادس. وجاء فى القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ..﴾ وهـذا القـول الكريم حاول ناظم الآبيات أن يقابله بقوله:

[1] الديوان، ٥٨، ٥٩.

أأحرج بالرحمن إن كنت مسلمًا كلامى فاقعد ما بدا لك أو قم

وجاء فى القرآن الكريم قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ فحاول الناظم أن يقابل هذه الآية الكريمة بقوله:

أنيبى واعطى ما سئلت فإننى رسول من الرحمن يأتيك بابنم

وقال الله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فحاول ناظم الأبيات أن يقابل هذه الآية الكريمة بقوله:

فقالت له: أنَّى يكون ولم أكن بغيا ولا حبلى ولا ذات قيم

وقال الله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ فحاول الناظم أن يصور هذا المعنى فقال: "وقال لها من حولها جئت منكرًا.. إلخ".

وفى الأبيات الثلاثة الأخيرة من القصيدة يصور الناظم كلام سيدنا عيسى فى المهد، محاولاً بذلك أن يجارى النظم القرآنى الذى ختم القصة بهذا الكلام. وليس خافيًا ما بين الكلامين من التفاوت البعيد المدى. فقد سرد القرآن القصة سردًا ممتعًا فيه من ضروب البيان وآيات الإعجاز مالا يستطيع أحد أن يأتى بمثله، فكيف يتبجح كليمنت هوار وأشباهه من المستشرقين بدعوى أن هذا الشعر الركيك المبتذل مصدر من مصادر القرآن الكريم ؟! وكيف يسيغ لعقلية امرىء من الخلق أن تصل إلى هذا الحد من التفكير السقيم، والنظرة الساذجة العمياء ؟!

إننا إذ ننظر إلى القصيدة السابقة نجد فى البيت الأول منها حشوًا يستقيم بدونه الكلام، وذلك فى كلمتى "العبد" و"ابن مريم" ونراه فى البيت الثانى أراد أن يذكر أن طهر مريم قد دفع عنها لومة اللائم، لكنه أخطأ فوضع لفظة "المتلوم" مكان "اللائم"، ولقد نصت معاجم اللغة العربية على أن المتلوم هو المتمكث المنتظر.

وحين أراد وصف مريم بالعفة والطهر وأن أحدًا لم يمسها ذكر أنها لم تهم

بالنكاح، ولا دنت إلى بشر بفرحها ولا بفمها، فكان فى هذا التعبير وذكـر المباشـرة والفرج والفم جافيًا مجانبًا للذوق!

وحين تقرأ قوله:

بنفحته فى الصدر من جيب درعها   وما يصرم الرحمن ملأمر يصرم

تجد أن النـاظم فـى الشـطر الأول ينظر إلى قـول الله تعـالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ وتجـده -أيضًـا- يكمـل البيـت بشـطر ظـاهر الضعـف والركاكة.

أما قوله:

أأحرج بالرحمن إن كنت مسلما   كلامى فاقعد ما بدا لك أو قـم

فهو -كما ترى- بيت سيء التركيب إلى الحـد الـذى جعـل معنـاه غامضًـا مبهمًا، وألفاظه غير متلائمة.

كذلك ترى نقصًا فى الترتيب فى البيت الذى يليه، إذ ذكـر أن الملـك اغـتر مريم، ورتب الناظم على ذلك أنها التقت بعيسـى غلامًـا سـوى الخلـق ليـس بتـوأم، فتلحظ أنه لم يفصل بين اغترار الملك إياها، وبين وضعها الغلام بشىء، لا من حمـل، ولا من مخاض وولادة.. فأين هذا الكلام الركيك من قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۞ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ إلخ؟![1].

وحين نمعن النظر فى قوله:

فلما أتمته وجاءت لوضعه   فآوى لهم من لومهم والتندم

---

[1] لا نقصد بهذا الكلام أن نوازن بين الكلامين، إذ لاشىء من كلام البشر يشارك كلام الله فـى فصاحته وإعجازه حتى يوازن بينهما. إننا نقصد فحسب إبراز ما يجعله كلام الله من حقـائق الإعجـاز وبيـان فساد دعوى أن الشعر الجاهلى مصدر من مصادر القرآن.

نلحظ أن الشطر الثانى لا يمكن فهمه إلا بتأويل وتحيل، بأن يقال -مثلاً-: إنه ذهب إليهم لأجل ما ترقب من لومهم لأمه، وتندمهم على ما ظنوه من تهمتها، بعد الذى عرف من تاريخها بالتبتل والطهر، حيث قالو لها: جئت منكرًا تستحقين عليه أن تلامى وترجمى!! فأدركها الحق برحمته، وأنطق لها نبيه مصدقًا لحديثها، وقال: إنه آية من الله الذى علمه وأرسله إليكم، و لم يكن غاويًا ضالاً، ولا شقيًا خاسرًا، و لم يأتكم بفحش ولا إثم.

وفضلاً عما نراه فى هذه المنظومة من ضعف وركاكة وإبهام وغموض فى بعض أبياتها -نجد أيضًا كثيرًا من القوافى المجتلبة مثل قوله:

"من رب عاد وجرهم، يأتيك بابنم، ليس بتوأم"

فليست ثمة حاجة لذكر هذه الأمور ونحوها مما يستقيم المعنى بدونها، ولا تكون وظيفتها فى البيت إلا تتميم الروى.

ويبدو أن ناظم هذا الشعر الركيك كان مغرمًا إلى حد كبير بمحاولة مجاراة النظم القصصى القرآنى الفريد، حتى إنه حاول مجاراة القصص القرآنى فى عنصر الحوار والطريقة المعجزة التى يتبعها فى إدارة هذا الحوار.. فاقرأ -معى- الأبيات الآتية التى أسوقها شاهدًا على ذلك:

يقول:

حنانيك إن الجن كنت رجاءهم	**وأنت إلهى ربنا ورجائيا**
رضيت بك اللهم ربا فلن أرى	**أدين إلها غيرك اللّه ثانيا**
وأنت الذى من فضل مَنٍّ ورحمة	**بعثت إلى موسى رسولاً مناديًا**
فقال: أعنِّى بابن أمى فإننى	**كثير به يارب صل لى جناحيا**
فقلت له: فاذهب وهرون فادعوا	**إلى اللّه فرعون الذى كان طاغيا**
وقولا له: أأنت سويت هذه	**بلا وتد وحتى اطمأنت كما هيا**

وقولا لـه: أأنـت رفعـت هـذه	بـلا عمـد أرفـق إذا بـك بانيـا
وقولا لـه: أأنت سويت وسطها	منيرا إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له: من يرسل الشمس غدوة	فيصبح ما مست من الأرض صاحيا
فأنبت يقطينـا عليهـا برحمـة	من الله لولا الله لم يبـق صاحيا
وقولا له: من ينبت الحب في الثرى	فيصبح منه البقل يهتز رابيـا
ويخرج منه حبـه في رءوسـه	وفي ذلك آيات لِمَـن كان واعيا[1]

فنحن حين نمعن النظر فى الأبيات السابقة، نجد روح التأثر بالقرآن الكريم واضحة كل الوضوح، فلقد كنى عن سيدنا هارون عليه السلام بعبارة "ابن أمي" وهى عبارة مستمدة من قول الله تعالى حكاية عن سيدنا هارون وسيدنا موسى : ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي...﴾ (سورة طه : الآية ٩٤).

وجاء فى سورة طه قول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾[2]، فقال الناظم على لسان موسى أيضًا :

... أعنى بابن أمى ... إلخ

وجاء فى السورة ذاتها قوله تعالى مخاطبًا موسى وهارون : ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[3]، فقال الناظم محاولاً أن يجارى الترتيب نفسه :

---

[1] الديوان، ص٧٢، ٧٣.

[2] الآيات ٢٩ - ٣١.

[3] الآيتان : ٤٢، ٤٣.

فاذهـــب وهـــرون فادعـوا إلى اللّه فرعون الذى كان طاغيا

وفى البيت خطأ نحوى واضح، حيث عطف "هارون" على الضمــير المستتر دون الإتيان بالضمير المنفصل : "أنت"، وجاء فى القرآن الكريم على لسـان موسى مخاطبًا فرعون حين سأله هو وهارون عن ربهمـا ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ فحاول الشاعر أن يجارى النظام القرآنى فـأتى بـالبيت السـادس ومـا بعـده إلى آخر القصيدة. ومن العجيب أنه ختمها بقوله : "وفى ذلك آيات لمن كان واعيًـا" مجاريًـا ختم الآيات القرآنية السابقة بقول الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ !

فلاشك إذن أن الناظم قد حاول أن يقلـد مـا ورد مـن الحـوار بـين موسى وفرعون، والمعانى التى تضمنها الحوار، وهذا التقليد يؤكد أن القصيدة مستمدة من القرآن الكريم. وليس خافيًا ما فى الأبيات من ضعف وابتذال وركاكة، وخلـو من رونق الشعر، وجمال الأدب، والسبب فى ذلك يرجع إلى مجانبة هـذه القصـة وأمثالها مما ذكرناه ومما سنذكره بعد لما كانت تجرى به العادة فى العصـر الجـاهلى مـن فنون الشعر وأغراضه، ومناحى الإجادة والبيان.

ومما يؤكد -أيضًا- أن هذه القصيدة مستمدة من القرآن الكريـم أننا رأينا الناظم يقول فى أحد أبياتها : "فأنبت يقطينًا عليها"، وقـد جـاء فـى القـرآن الكريـم حكاية عن سيدنا يونس عليه السلام : ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ (الصافات : ١٤٦) ولقد ذكر الناظك بعد حكاية موسى حكاية يونـس فـى القصيـدة نفسـها... فقال :

وأنت بفضل منك نجيت يونسا وقد بات فى أضعاف حوت لياليا[1]

...إلخ.

ومن القصائد والأبيات التى يبدو فيها روح تأثره بالقرآن الكريم، وكلفة محاكاته له، قوله :

قالت لأخت له: قصيه عن جنب وكيف تقفو بلا سهل ولا جدد[2]

وقوله :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما ملكًا علا فى الأرض غير معبد
بلغ المشارق والمغارب يبتغى أسباب ملك من كريم سيد
فرأى مغيب الشمس عند مآبها فى عين ذى خلب وثأط حرمد[3]

وقوله :

نفشت فيه عشاء غنم لرعاء ثم بعد العتمة

فهذا البيت -مثلاً- يذكرنا بقول الله تعالى : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ . . . .﴾ (الأنبياء : ٧٨).

القسم الثالث من قصصه الدينى : أشعار منظومة لا تبدو بالصورة التى جاء عليها القسمان السابقان، وإنما هى لون وسط لا يتضح فيه محاولة المحاكاة للقرآن الكريم اتضاحًا بينًا :

من أمثلته قوله فى خراب "سدوم" مدينة قوم لوط عليه السلام :

ثم لوط أخو سدوم أتاها إذ أتاها برشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا قد نهيناك أن تقيم قراها
عرض الشيخ عند ذاك بنات كظباء بأجرع مرعاها

---

(1) الديوان، ص٧٣.

(2) ، (3) السابق، ص٢٦.

غضب القـوم عنـد ذاك وقـالوا　　　أيهـا الشـيخ خطـة نأباهـا

أجمـع القـوم أمرهـم وعجـوز　　　خيـب اللّـه سـعيها ورجاهـا

أرسـل اللّـه عنـد ذلـك عذابـا　　　جعـل الأرض سـفلها أعلاهـا

ورماها بحاصـب ثـم طيـن　　　ذى حـروف مسمم إذ رماهـا[1]

ولاشك أن ابتداء الأبيات السابقة بحرف العطف "ثم" يدل دلالة بينة على أن هذه الأبيات بقية من قصيدة ضاعت مع ما ضاع من الشعر المنسوب لأمية ابن أبى الصلت الثقفى.

وفى الأبيات عبارات تدل على تأثر صاحبها بروح القرآن الكريم مثل : "راودوه عن ضيفه"، ومثل "عرض الشيخ عند ذاك بنات"، ومثل "عجوز"، و"عذابًا جعل الأرض سفلها علاها"، ومثل "رماها بحاصب ثم طين".

لكن الأبيات -كما سبقت الإشارة- لا تبدو فيها كلفة المحاكاة للقرآن الكريم على النحو الذى رأيناه فى نماذج القسم الثانى من قصص أمية الدينية، وإن كانت جارية على النمط الذى جرت عليه النماذج من الضعف والركاكة التى يمكن تمثلها فى قوله "عند ذاك" الذى ذكره مرتين فى بيتين متجاورين، ثم كرر ذكره مرة ثالثة فى بيت قريب منهما، وتتضح الركاكة بصورة أكثر فى قوله :"قد نهيناك أن تقيم قراها" ومرجع الضمير هنا -بالضرورة- هو كلمة "ضيف" المذكورة فى الشطر الأول من هذا البيت.

وحين ننظر إلى البيت الرابع نراه يقول : "أيها الشـيخ خطة نأباها" وهذه قافية نابية قلقة !

فأين أمية ؟! وأين نظمه الركيك هذا ؟! من قول الله تعالى المعجز فى هذه القصة :

---

[1] السابق، ص٦٩.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (سورة هود : ٧٧ - ٨٣).

إننا لم نورد هذه الآيات القرآنية التى هى فى قمة الإعجاز لنقارن بينها وبين ما قاله أمية عن خراب "سدوم" مدينة قوم لوط، إنما أوردناها من أجل أن يكون ثمة متسع للتأمل وإمعان النظر ممن تحدثه نفسه من أولئك المستشرقين وأمثالهم من الطاعنين على القرآن الكريم وقصصه، بمعاودة النظر فى تلك الأباطيل التى يحاولون ترويجها وإذاعتها بين الناس.. إننا ندعوهم أن ينظروا إلى ما فى كلام الله من إعجاز وروعة بيان، حتى يعود إليهم رشدهم فيكفوا عن قلب القضايا وعكس الأمور... لقد كان حريًا بهم أن يقولوا إن أمية هو الذى حاول فى شعره أن يقلد القرآن الكريم إذا صحت نسبة هذا الشعر إليه، لا أن يقلبوا القضية ويعكسوا الحقيقة، فيدعوا -كذبًا وافتراءً على الله والحق- أن شعره مصدر من مصادر القرآن الكريم !!

لقد قال أحد الشعراء :

نجيت يا رب نوحًا واستجبت له   فى فلك ماخر فى اليم مشحونا

وعاش يدعو بآيات مبينة ... فى قومه ألف عام غير خمسينا[1]

وكتب شاعر آخر إلى صديق له هذين البيتين :

وراء مضيق الخوف متسع الأمن ... وأول مفروح بـه آخر الحـزن

فـلا تيأس فالله ملك يوسـفا ... خزائنه بعد الخلاص من السجن[2]

فهل يتسنى لعقل عنده ذرة من الذوق أو قطمير من الفهم والأدب أن يتبجح بادعاء أن أمثال هذا الشعر مصدر لقصتى نوح ويوسف الوارداتين فى القرآن الكريم ؟! أم أن الحق والمنطق هو تأثر الشاعرين بما جاء فى القرآن الكريم ؟!

إن على المستشرقين وأذنابهم أن يراجعوا أنفسهم فيما زعموه وروجوه من أباطيل، فهذا هو نقدنا وتحليلنا لبعض النماذج المنسوبة لأمية والتى يزعمون أنها من مصادر القرآن الكريم... لقد بانَ لنا ما فى هذا الشعر أو بتعبير أدق ما فى هذا النظم من ضعف وركاكة وابتذال وحشو وفضول كثير... فكيف يعقل أيها المستشرقون الأغبياء أن يكون هذا الشعر من مصادر الوحى المنزل من السماء ؟!!

لقد كان أمية فى هذا الشعر -إن صحت نسبته إليه- متكلفًا متصنعًا، محاكيًا لم يحكم المحاكاة؛ بل كان نظّامًا وليس بشاعر.. حاول أن يعارض ويجارى القصص القرآنى فى بعض معانيه فباء بالفشل والخزى والضعف... وقد دفعه إلى ذلك ما روى عنه من أنه لبس المسوح تعبدًا، وحرم الخمر، ورغب عن عبادة الأصنام، والتمس الدين، وطمع فى النبوة، لأنه قرأ فى الكتب المتقدمة أن نبيًا يبعث فى العرب، فكان يرجو ويتمنى أن يكون هو ذلك النبى، فلما بلغه خروج النبى -صلى الله عليه وسلم- حسده عدو الله وكفر به، وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه ![3]

---

[1] شرح ابن عقيل، ص٧٧ (باب الحال).

[2] قصص الأنبياء للنيسابورى، ص١٢٩.

[3] راجع : الشعر والشعراء لابن قتيبة، ج١، ص٣٦٩.

وفى ذلك دلالة واضحة على أنه كان يقصد بهذا النظم المنسوب إليه -لو صحت هذه النسبة- أن يقلد الرسول عليه السلام فيما يقصه على المسلمين مما نزل عليه من قصص إلهى معجز فريد.

وإذا كان هؤلاء الأفاكون من المستشرقين لا يقنعون بما سبق أن ذكرناه فى الرد عليهم، فهذا هو واحد من بنى جلدتهم يقول بالحرف الواحد ما نصه : «أمية ابن أبى الصلت شاعر ثقيف أكثر ما روى منشعره منحول عليه، ما عدا مرثيته لقتلى بدر التى منع النبى (صلى الله عليه وسلم) من إنشادها. وزعم كليمنت هوار : أن شعره كان من مصادر القرآن، وهذا غير صحيح، ولكن الحق ما ذكره تور أندريه، وهو أن الأشعار التى نظر إليها هوار إنما هى نظم جمع القصاص فيه ما استخرجه المفسرون من مواد القصص القرآنى. ولابد أن تكون هذه الأشعار قد نحلت لأمية من عهد مبكر لا يتجاوز القرن الأول للهجرة، لأن الأصمعى سماه : شاعر الآخرة، كما سمى عنترة : شاعر الحرب، وعمر بن أبى ربيعة : شاعر العشق»[1] .

ومما يرجح أن القصص الدينى المنسوب لأمية إنما هو نظم منتحل : «أن شعر أمية الذى لم يطبع بصبغته الدينية يخلو من هذه السمات، ويسير فيه الشاعر على نهج الشعراء الجاهليين من صدق المعنى وبساطته وسذاجته، مع تلون الثقافة فيه إلى حد ما، لثقافة أمية الواسعة، ومع البعد عن الخيال الكاذب والمبالغة المفرطة فيه»[2] .

إننا نرى فى شعره غير الدينى طلاقة الأسلوب، وعذوبة العبارة وقوة الأداء، وسهولة اللفظ، وطلاوة البيان، كما فى مدائحه لابن جدعان، وقصيدته فى ابنه وقصيدته فى رثاء زمعة بن الأسود وأخيه عقيل من بنى أسد، ومجمهرته فى الفخر التى جاءت متفقة مع معلقة عمر بن كلثوم فى الوزن والروى وكثير من المعانى والأساليب... ومنها نختار قوله :

---

[1] تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان، ج١، ص١١٣.

[2] قصة الأدب فى الحجاز، ص٦١٤.

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البنينا

وكنا حيثما علمت معد أقمنا حيث ساروا هاربينا

وتخبرك القبائل من معد إذا عدوا سعاية أولينا

بأنا النازلون بكل ثغر وأنا المقبلون إذا لقينا

وأنا المانعون إذا أردنا وأنا الضاربون إذا دعينا

وأنا الرافعون على معد أكفًا في المكارم ما بقينا

نشرد بالمخافة من أتانا ويعطينا القادة من يلينا[1]

فهل يصدق أحد من الناس أن أمية الذى قال هذا الشعر القوى الرصين فى المجمهرة هو نفسه الذى قال النظم الركيك التالى ؟!

وبفرعون إذ تشاق له الما ء فهلا للّه كان شكورا

قال: إنى أنا المجير على النا س ولا رب لى على مجيرا

فمحاه الإله من درجات ناميات ولم يكن مقهورا

سلب الذكر فى الحياة جزاء وأراه العذاب والتدميرا

فتداعى عليهم الموج حتى صار موجًا وراءه مستطيرا

فدعا اللّه دعوة لا يهنأ بعد طغيانه فصار مشيرا[2]

لقد كان حريًا بكليمنت هوار ورفاقه أن يقروا بانتحال هذا النظم الركيك وأمثاله، بدلاً من أن يدعو أنه مصدر للقرآن الكريم وقصصه، وكان حريًا بهم -كذلك- أن يعترفوا بأن الانتحال على أمية -بالذات- قديم، ومعروف للأدباء والنقاد والمؤرخين.

---

[1] ديوانه، ص٦٧.

[2] السابق، ص٣٤.

روى ابن سلام الجمحى : أن الحسن بن على بن أبى طالب استنشد النابغة الجعدى بعض شعره، فأنشده قصيدته :

الحمد لله لا شريك له ... من لم يقلها فنفسه ظلما

فقال له : «يا أبا ليلى، ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبى الصلت»

قال : «يا ابن بنت رسول الله،والله إنى لأول الناس قالها». وكان اختلاطًا حدث بين شعر النابغة الجعدى وأمية[1].

فإذا كان هوار ورفاقه قد أبوا إلا أن يدعو أن جميع شعر أمية صحيح، فإنه يرد عليهم وعلى أمثالهم بأن أمية فى شعره القصصى الدينى؛ بل فى سائر أشعاره الدينية كان متأثرًا بروح القرآن الكريم، ومحاولاً أن يعارضه ويجاريه فى بعض معانيه.. شأنه فى ذلك شأن عدى بن زيد أشهر شعراء المسيحية فى العصر الجاهلى، حين قرأ أو سمع ما جاء فى الأناجيل المحرفة من قصص الأنبياء، فتأثر بها، وحاول أن يجاريها فى نظم القصة، فقال -مثلاً- يذكر شأن آدم ومعصيته، وكيف أغواه الشيطان، وكيف دخل فى الحية، وأن الحية كانت فى صورة جمل، فمسخها الله عقوبة لها، حين طاوعت عدوه على وليه :

قضى لستة أيام خليقته ... وكان آخرها أن صور الرجلا

دعاه آدم صوتًا فاستجاب له ... بنفحة الروح فى الجسم الذى جبلا

ثمت أورثه الفردوس يعمرها ... وزوجه صنعة من ضلعه جعلا

لم ينهه رب عن غير واحدة ... من شجر طيب : أن شم أو أكلا

فكانت الحية الرقشاء إذ خلقت ... كما ترى ناقة فى الخلق أو جملا

فعمدا للتى عن أكلها نُهيا ... بأمر حواء لم تأخذ له الدغلا

---

[1] راجع : طبقات فحول الشعراء، ص١٠٦ وما بعدها.

كلاهما خاط إذ بزا لبوسهما	**من ورق التين ثوبًا لم يكن غزلا**
فلاطها اللّه إذ أغوت خليفته	**طول الليالى ولم يجعل لها أجلا**
تمشى على بطنها فى الدهر ما عمرت	**والترب تأكله حزنًا وإن سهلا**
فأُتعِبا أبوانا فى حياتهما	**وأوجدا الجوع والأوصاب والعللا**
وأُوتيا الملك والإنجيل نقرؤه	**نشفى بحكمته أحلامنا عللا**
من غير ما حاجة إلا ليجعلنا	**فوق البرية أربابًا كما فعلا[1]**

لقد حاول عدى بن زيد -كما قلنا- أن يجارى الأناجيل المحرفة فنظم هذه القصة، كما حاول أمية فى شعره مجاراة النظم القصصى فى القرآن الكريم. ومع ذلك لم يقل أحد من المستشرقين مطلقًا إن شعر عدى بن زيد مصدر لما كتبه المحرفون وسموه بالأناجيل. ولم يحاول أحد منهم أن ينقد ما فى كلام عدى من خرافات وأباطيل... تركوا هذا وأسرعوا الخطى إلى شعر أمية ليدَّعوا أنه من مصادر القرآن الكريم، وفى هذا الصنيع منهم دلالة واضحة على تعصبهم الأعمى، وبحوثهم الضالة، ودراساتهم العقيمة التى تنم عن جهلهم وأكاذيبهم وتخبطاتهم، لكن القرآن الكريم -والحمد لله- سيظل على حصانته ومناعة جوانبه مهما تقوَّل المستشرقون والأفاكون، وصدق الله عز وجل إذ يقول : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

فكل ما قاله كليمنت هوار وأمثاله ضرب من الخرافة، ولون من الخذلان والعجز البارز عن توجيه أية شبهة، بل مظنة شبهة إلى القرآن الكريم وقصصه المعجز.. وما مَثَل هؤلاء الأفاكون فيما زعموه إلا كمثل ما يقول الأعشى :

كناطح صخرة يومًا ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

أما ما قاله المستشرق الدكتور سنكلر تسدال من مزاعم بأن بعض أبيات تنسب لامرئ القيس كانت مصدرًا من مصادر القرآن -فلن نقف أمامه وقفة طويلة

---

[1] الحيوان للجاحظ، ج٤، ص١٩٧ - ١٩٩.

كتلك التى وقفناها عند شعر أمية الثقفى، ويكفينا أن نقول فى الرد عليه وعلى أمثاله ممن يحاولون إثارة هذه الأبطولة الفارغة :

إن نظرة واحدة من العلماء المسلمين كافية لليقين بإدحاض نسبة هذه الأبيات إلى امرئ القيس أو غيره من شعراء الجاهلية. وهذه النظرة الكافية -كما يقول الأستاذ العقاد- «هى التى تعيى الناقدين المستشرقين، وهى أصل وثيق من أصول النقد يعول عليه الناظر فى الأدب كل التعويل، ولا يقدح فيه أن يتسع للجدل، وأن يجوز عليه الخطأ فى القليل دون الكثير»[1].

لقد أراد المستشرقون الأفاكون أن يزينوا للناس أن القرآن الكريم وقصصه من تأليف الرسول صلوات الله وتسليماته عليه، ونسى هؤلاء الأفاكون أو تناسوا : أن علماء المسلمين ولاسيما علماء جامعة الأزهر -حرسها الله معقلاً للغة القرآن الكريم وأدب العرب- يعلمون علم اليقين أن دعوى بشرية القرآن دعوى قديمة شكلاً ومضمونًا، وأن القرآن الكريم قد سجلها -كدعوى مفتراة من العرب الجاهليين المشركين- على الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك فى قوله الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة النحل : ١٠٣).

يقول أحد علماء جامعة الأزهر النحارير عن هذه الآية ما نصه : «هذه الآية على صغرها، تناولت القضية شكلاً ومضمونًا وردًا عليها حين قال ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ هذه هى الدعوى. والرد عليها جاء تاليًا بعد الدعوى مشارًا إليه فى قوله تعالى :﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ فالدعوى والرد عليها من قبل القرآن تفيدنا : أنها من حيث الجانب التاريخى قديمة منذ أن تحمل

---

[1] مطلع النور، ص٢٥٨.

الرسول رسالته، وقام بعبء الدعوة إليها، كذلك تفيدنا من جانب آخر : أن القضية حين سجلها القرآن -ونحن نعلم أن القرآن كتاب عالمى لا يختص بزمان ولا بمكان ولا بأمة- كان يعنى بتسجيلها وتلاوتها من جميع المسلمين على مر الدهور أن يرد على العقل الإنسانى أنّى وجد، وحيثما عنّ لهذا العقل أن يدعى تلك الدعوى على الرسول -صلى الله عليه وسلم- فالقرآن حين سجلها إنما يعين المسلم وهو بصدد التيارات الفكرية أن يدفع تلك القضية لأن القرآن دافع عنها، ثم هى فى النهاية تصيب صميم دينه»[1].

ونحن لن نكتفى فى دحض مزاعم المستشرقين بما سبق بيانه، فهناك الكثير والكثير من الأدلة والشواهد التى تثبت -بحق وصدق- أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لم يقتبس من أمية بن أبى الصلت ولا من غيره ما أتى به من القرآن الكريم وقصصه، و لم يكن شعر أمية ولا غيره مصدرًا من مصادره.

فمن هذه الأدلة والشواهد : أن القرآن الكريم قد ورد فيه من قصص السابقين، وأنباء الأولين ما لم يكن يعلمه الرسول ولا أحد من قومه، وقد تحدى الله الناس أن يأتوا بمثله فلم يستطع أحد ذلك، فكان هذا العجز دليلاً على أن القرآن الكريم وقصصه من عند الله عز وجل.

ومن هذه الأدلة -أيضًا- أنه لو كانت هناك مشابهة بين شعر أمية والقرآن لجعله المخالفون والمعاصرون لنزول القرآن الكريم مصدرًا من مصادر القرآن الكريم، أو حتى على الأقل كانوا قد قالوا للرسول عليه السلام : إن القصص الذى تذكره وتقوله : إنه من أنباء الغيب قد ذكره أمية فى شعره. لكن المشركين المخالفين لم يقولوا شيئًا من ذلك. وهذه النتيجة تؤدى إلى نتيجة أخرى، وهى تأكيد ما سبق بيانه من أن الأشعار المنسوبة إلى أمية فى أخبار القرون الأولى وما شابه ذلك ليست

---

[1] المستشرقون ودعوى بشرية القرآن، بحث للدكتور محمد إبراهيم الفيومى، منشور فى حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، العدد الثالث، ١٩٨٥، ص٩ - ١٠.

له، بل نحله الرواة إياهـا، ومـن هنـا نـرى فيهـا ضعـف المولّدين ولا نـرى فيهـا قـوة الجاهليين.

ولو كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- قـد نقـل القصـص القرآنـى عـن كتب اليهود والنصارى ونحوها، لاتخذ المشركون ذلك شبهة يحتجون بها على أن مـا يذكره من قصص مستمد من هذه الكتب، فإنهم كانوا يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشبعة، على نحو ما سبق ذكره بصدد الآية القرآنيـة التـى تنـاولت دعوى بشرية القرآن والرد عليها. فكل ما ادعاه المستشـرقون سـابقًا ومـا شـابهه لا يمثل -إطلاقًا- قضايا تاريخية ثابتة؛ بل هو فى الحقيقة آراء متخيلة، ودعـاوى باطلـة، وافتراءات على نبينا الصادق المصدوق عليه السلام.

ومن هذه الأدلة كذلك : أننا حين نقرأ مـا يسـمى عنـد اليهـود والنصـارى بالكتاب المقدس نجد فى قسميه -العهد القديـم والعهـد الجديـد- نقـولاً ومشـابهات للديانات التى سبقته، والأنباء التى تقدمت عليه، فكان حريًـا بالمستشـرقين الأفـاكين أن يتهموا هذا الكتاب بالتهمة التى حاولوا إلصاقها بالقرآن الكريم، ولاسيما أن هذه التهمة قد ثبتت فعلاً بالنسبة لهذين العهدين. أما القرآن الكريم فما يـزال بـه صدقـه وإعجازه، ومايزال فوق الاتهام، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن الأدلة أيضًا : أن القرآن الكريم قد تضمن قصصًا كثيرًا لم يذكـر فـى كتب اليهود ولا النصارى ولا غير هؤلاء وهؤلاء، مثل قصص صالح وهود، وشـعيب الذى لم تذكره التوراة إلا عرضًا، ومثل قصة الخضر وذى القرنين. وهذا مـن أقـوى الأدلة على أن القصص القرآنى وحى منزل من السماء.

وليس فى سفر التكوين -أيضًا- ما جـاء فـى القـرآن الكريـم مـن أمـر الله الملائكة بالسجود لآدم وامتناع إبليس مـن هـذا السـجود، ولم يـرد فـى هـذا السـفر -كذلك- مـا ورد فـى القـرآن الكريـم مـن قصـص الخليـل عليـه السـلام مـع قومـه وتحطيمه لأصنامهم ونظرته فى النجوم، وحجاجه مع قومـه، ومحـاولتهم إحراقـه فـى

النار، وإسكانه بعض ذريته عند بيت الله الحرام، واشتراكه هو وابنه إسماعيل فى رفع القواعد من البيت وبناء الكعبة. وليس فى هذا السفر -أيضًا- ما قصه علينا القرآن الكريم من محاورة بين نوح وابنه الكافر، وعدم ركوب هذا فى السفينة وغرقه، ومحاورة نوح مع الله فى ذلك. كذلك لم يرد فى هذا السفر ما قصه علينا القرآن الكريم من تمزيق امرأة العزيز قميص يوسف، ولا حديث النسوة ودعوة امرأة العزيز إياهن وتقطيعهن أيديهن. ولا يوجد فيما يسمى بالكتاب المقدس شىء مما قصه القرآن الكريم عن خبرة سحرة فرعون والتقام العصا التى انقلبت حية لحبالهم وعصيهم وسجودهم وإيمانهم برب هارون وموسى، ومحاورتهم مع فرعون، ولا غرق فرعون وجنوده حينما خرجوا يطاردون موسى ومن معه من المؤمنين. والقرآن الكريم يذكر -فى حق وصدق- أن الشخص الثانى الذى أراد سيدنا موسى عليه السلام أن يبطش به هو عدوه، فى حين أن سفر الخروج يدعى -كذبًا وافتراءً- أن هذا الشخص عبرانى. والقرآن الكريم يذكر -فى حق وصدق- أن الذى صنع العجل لبنى إسرائيل هو "السامرى" فى حين أن هذا السفر يدعى -كذبًا وافتراء- أنه هارون عليه السلام. ولم يرد فيما يسمونه بالكتاب المقدس شىء مما قصه القرآن الكريم عن الرجل المؤمن من آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه، ودافع عن سيدنا موسى حين هموا بقتله، ولا عن ذلك الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى فنصح سيدنا موسى بالخروج من أرض مصر. والقرآن الكريم يذكر أن بنات الشيخ المدينى اثنتان، فى حين أن سفر الخروج يذكر أنهن سبع. ولم يرد فى الكتاب المقدس ما ورد فى القرآن الكريم من محاورة بين فرعون وهامان لأجل بناء صرح ليطلع إلى إله موسى، ولا ما جاء فى القرآن الكريم من خبر أمر سيدنا موسى قومه بذبح بقرة ومحاورته معهم، ولا أمر الله لقوم موسى بدخول الباب سجدًا ومخالفتهم لهذا الأمر، ولا قصة أصحاب السبت ومسخهم قردة بعد أن اعتدوا فيه. وليس فى الأسفار التى تذكر قصص داود وسليمان عليهما السلام ما قصه القرآن الكريم من

تسخير الله الشجر والطير والحديد لسيدنا داود عليه السلام، وتسخير الجن والريح لسليمان عليه السلام، ولا قصة الهدهد ولا كتاب سليمان لملكة سبأ وإسلامها وإحضار عرضها بلمح البصر من قبل الذى عنده علم الكتاب.

ومن ناحية أخرى، فإن من يدرس القصص القرآنى الذى اشترك فى عرضه القرآن الكريم والكتاب المقدس يتجلى له الفرق واضحًا بينهما، سواء فى المحتوى أو فى الأسلوب والسياق، أو فى الغرض المستخلص من القصة. فالقصص القرآنى وحى سماوى يدل أسلوبه المعجز وسياقه الفريد الخارق، ومحتواه الرفيع، وأهدافه السامية على أنه وحى من الله منزل على رسوله صلى الله عليه وسلم. ولذلك حين نقرأ شيئًا من آياته البينات لا نجد ولا نحس فى آيةمنها شيئًا مما «يعترى الطبع الإنسانى من الفترة بعد الاستمرار، والتراجع بعد الاستقرار، ومن اضطراب القوة البيانية بعد إمعانها، وجماحها الذى لابد منه بعد إذعانها، ثم ما هو فى طبع كل بليغ من الاختلافات فى درجات البلاغة علوًا ونزولاً، على حسب ما لابد منه فى اختلاف المعانى، وتباين الأحوال النفسية المجتمعة عليه، والتفاوت فى أغراضها وطرق أدائها، مما ينقسم إليه الخطاب ويتصرف القول فيه»[1].

فما من دارس يدرس القرآن الكريم إلا ويجد الحقيقة المطلقة تشع منه مؤكدة أنه وحى إلهى منزل من السماء، وليس من تأليف الرسول صلى الله عليه وسلم، وما من قارئ للقرآن الكريم إلا ويجد للقصص وغيره مما احتواه القرآن وقعًا أحلى مما جاء فى الكتاب المقدس.

فعلى المستشرقين أن يتجردوا من حقدهم وتعصبهم الأعمى، وعليهم أن يقرءوا القصص القرآنى وقصص التوراة والإنجيل ليعيدوا النظر فى أباطيلهم وافتراءاتهم. فلقد جاء القصص القرآنى أشد تأثيرًا فى النفس الإنسانية، وأغزر فائدة من حيث العبرة والعظة، مع اختلافات شتى وفروق بينة، تؤكد أن القصص القرآنى لو كان مستمدًا مما زعموه لالتزم طريقته، ووقف عند ما جاء فيه.

---

[1] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى، ص١٦٨، ١٦٩.

وإن اختلاف النظرة للأنبياء والمرسلين بين القرآن الكريم والكتاب المقدس لدليل قاطع وبرهان جازم على أن القصص القرآنى غير مقتبس ولا مستمد من هذا الكتاب؛ بل هو اصطلاح لما طرأ على كتب اليهود والنصارى من البدع والضلالات التى كان من أشنعها وصم الأنبياء والرسل بقبائح الأعمال، فلقد وصف اليهود الخالق جل وعلا بما لا يجوز فى حق، ووصفوا الأنبياء والمرسلين بما هم معصومون عنه، كما نسب المسيحيون إلى الله عز وجل ما نفاه عنه القرآن الكريم؛ وهو الأبوة، فذكروا -مثلاً- من وصايا المسيح عليه السلام : «أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، صلُّوا للذين يسيئون إليكم ويطردونكم كى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات»[1]. ثم اختلف اليهود والنصارى، فقالت اليهود : عزير ابن الله، وقالت النصارى : المسيح ابن الله !! وقد رد القرآن الكريم على الفريقين بقول الخالق جل وعلا : ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

ولقد تضمن القرآن الكريم دفاعًا مجيدًا عن رسول الله عيسى عليه السلام، وعن أمه البتول مريم من افتراءات اليهود، وأوضح القرآن الكريم ما اختص به عيسى وأمه من منزلة رفيعة عند الله، مما يعد دليلاً قويًا آخر على أن القصص القرآنى لم يقتبس من التوراة، إذ نعلم -جميعًا- أن اليهود لا يعترفون لسيدنا عيسى بالنبوة والرسالة؛ بل يزعمون أنه أتى عن طريق غير شريف، وأن أمه كانت امرأة بغيًا. أما القرآن الكريم فقد أثبت لعيسى النبوة والرسالة، وأن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. ووصف القرآن الكريم مريم بأنها صدِّيقة مطهرة من كل ما يخدش المروءة والشرف؛ بل إن القرآن الكريم ضربها مثلاً للعفة والطهارة والشرف، فمضى المسلمون يتأدبون بأدب القرآن الكريم -فى هذا الصدد- فراحوا يضربون الأمثال للعفة والطهارة بمريم ابنة عمران، وبيوسف ابن يعقوب حتى قال شاعرهم :

---

[1] إنجيل متى، الإصحاح السادس.

ألوى علـى فضمني وضممتـه	**وصدورنا بصدورنـا لم تعمـل**
ألوى عليه وفيه عفة يوسـف	**حتي يميل وفيه عفة مريـــم**

وأكرر ما نبهت إليه كثيرًا من أننى لا أقصد بهذا الكلام أن أقارن بين القرآن الكريم والكتاب المقدس، إذ لا يجوز إطلاقًا أن نقارن بين كلام الله وكلام البشر، إنما أريد فحسب التدليل على أن المستشرقين كانوا خاطئين كل الخطأ حين زعموا أن القصص القرآنى مستمد من القصص التوراتى والإنجيلى وغير ذلك مما زعموه وافتروه. وأريد -كذلك- أن أوضح أن القصص القرآنى يختلف كل الاختلاف فى منهجه القرآنى النبيل المعجز عن منهج القصة فى التوراة والإنجيل.

فإن من يقرأ -مثلاً- قصة آدم عليه السلام فى القرآن الكريم يجد منهج القرآن فى عرضها يختلف عن منهج التوراة، فهذه القصة قد جاءت فى سفر التكوين تفوح بريح الوثنية، وتكتسى صبغة تشاؤمية «من المرجح أنها نشأت عن رغبة الإنسان البدائى فى أن يفسر لنفسه تعاسته البالغة، وسوء حاله فى بيئة غير مواتية له، تفيض بالمرض والموت من كل ناحية فى سعيه لاستبقاء حياته، إذ لم يكن له أى سلطان على قوى الطبيعة. فكانت نظرته إلى الحياة نظرة متشائمة أمرًا طبيعيًا»[1]، فقد جعل سفر التكوين هبوط الإنسان إلى الأرض كمن نزل إلى العذاب والجحيم، بينما نجد القرآن الكريم يقرر أن الأرض التى هبط إليها الإنسان هى موضع خلافته ومستقره ومتاع إلى حين ينبغى أن نشكر الله عليه. بل نرى القرآن الكريم يقرر -فى حق وصدق- أن الذى اغتر بوسوسة إبليس فى البداية هو سيدنا آدم عليه السلام، ولم يرد فى القرآن الكريم ما ذكره سفر التكوين من الحية والدور الذى لعبته لغواية حواء، ولم يرد فيه ما يشير إلى أن خطية آدم تنتقل إلى جميع ذريته بالوراثة ! ولم يرد فيه كذلك ما نراه فى الكتاب المقدس من تناقضات وأباطيل تشبه ما سبق مثل ادعائه أن الأبناء تؤخذ بذنوب الآباء إلى ثلاثة أجيال !!

---

[1] تجديد التفكير الدينى فى الإسلام لمحمد إقبال، ص٩٦، ٩٧ (ترجمة عباس محمود العقاد).

ومن الأدلة التي نرد بها على هؤلاء الأفاكين : قصة الإفك التي تسفل بعض خصوم النبى -صلى الله عليه وسلم- من المنافقين، فنسجوها من خيالهم السقيم حول زوجته السيدة عائشة رضى الله عنها، فنحن نعلم أن الوحى قد أبطأ في نزول الآيات التي تبرؤها، وعاش النبى والمسلمون فى قلق وحيرة، وكثر لغط الناس واضطراب الموقف، ثم بعد ثلاثين يومًا تقريبًا نزل الوحى ببراءتها مما افتروا عليها. فلو كان القرآن الكريم وقصصه من تأليف الرسول -كما يدعى الأفاكون- لبادر الرسول عليه السلام منذ اليوم الأول إلى تبرئة زوجته، وإلى حماية عرضه، ولسهل عليه أن ينسب إلى الله ما يدعيه.

كذلك تعد قصة "خولة بنت ثعلبة" دليلاً قويًا آخر على أن القرآن الكريم وقصصه وحى من السماء، فإن النّبى -عليه السلام- قد أصر فى محاورته معها على أنها قد حرمت على زوجها بيمين ظهار، وظل متمسكًا بموقفه حتى نزلت سورة المجادلة وبيان الحكم الإلهى فى هذا اليمين وكفارته.

يضاف إلى ذلك ما نراه فى بعض السور من عتاب الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم، وهو عتاب نشعر تارة بلطفه وتارة بعنفه، كما نرى فى قصة ابن أم مكتوم، وقصة أسرى غزوة بدر، وقصة تحريم النبى ما أحل الله له يبتغى مرضاة أزواجه... ونحو ذلك، فلو كان القرآن الكريم من تأليف الرسول عليه السلام ما سجل على نفسه ذلك العتاب كله. لكن هؤلاء المضلين سفهوا أنفسهم، وزعموا على الرغم من هذه البراهين الواضحة والأدلة القاطعة أن الرسول افترى القرآن الكريم والقصص القرآنى على ربه، وكذبوا وضلوا ضلالاً بعيدًا.

وفى القصص القرآنى آيات عديدة تشير إلى حقائق علمية لم تكن معروفة للناس فى البيئة الغربية الجاهلية وقت نزول القرآن الكريم، وإنما عرفت فى العصر الحديث، وأيد العلم أخيرًا ما جاء فيها تأييدًا مجمعًا عليه، وفى هذا ما يقطع باليقين أن القرآن الكريم وقصصه من عند الله عز وجل... فلقد جاء فى قصة سيدنا يوسف

عليه السلام وعلى لسانه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ وقد أثبت العلم الحديث أن ترك الحب فى سنابله -عند تخزينه- يقيه بالفعل من التلف بالعوامل الجوية والآفات، وفوق ذلك يبقيه محافظًا علـى محتوياتـه الغذائيـة كاملـة. فمـن أيـن لمحمد هذه الحقيقة العلمية التى جاء بها عن ربه، فلم تذكرها التوراة حتى يدعى أحد أن الرسول قد اقتبسها منها... إنها معجـزة علميـة تـدل علـى صـدق الرسـول عليـه الصلاة والسلام فيما بلغ عن ربه.

ولقد احتوت قصة سيدنا إبراهيم -بـالذات- علـى كثـير مـن الوقـائع التـى أيدتها وأثبتتها الدراسات التاريخية الحديثة. فلقد أشار القـرآن الكريـم -مثـلاً- فـى هذه القصة إلى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام تطلع إلى السماء ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (سورة الصافات: ٨٨، ٨٩) والمعنى : أنه رأى فى طالع النجـوم مـا يفيد مرضه. وفى هذا دلالة واضحة على أن قومه كانوا يشتغلون بالتنجيم كما جاء فى كتاب "قصة الحضارة" :

«لم يدرس البابليون النجوم ليرسموا الخرائـط التـى تعـين علـى سـير القوافـل والسفن؛ بل درسوها أكثر ما درسوها لتعينهم علـى التنبـؤ بمستقبل النـاس، وبذلـك كانوا منجمين أكثر منهم فلكيين...»[1].

وجاء فى هذه القصة -أيضًـا- أن سـيدنا إبراهيـم عليـه السـلام قـد حطـم الأصنام إلا كبيرها ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ (سورة الأنبيـاء : ٥٨) فيفهـم مـن ذلك : أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون أصنامًا عديدة وصنمًا كبـيرًا يتخذونـه إلهًـا مـن دون الله، وأن هذا الصنم الكبير هو الذى يحطمه الخليل عليه السلام ويذكر صاحب كتاب "قصة الحضارة" : أن "مردك" كان يعد كبير الآلهة عند أهل بابل، وأنـه كـان

---

[1] قصة الحضارة، ول ديورانت، ج٢، ص٢١١، ٢١٢.

بجانب هذا الإله كثير من الآلهة. ولاشك أنمثـل هـذه الحقـائق التاريخيـة أقـوى دليـل علمى للقرآن الكريم يؤيد أنه تنزيل من الله رب العالمين، وإلا فمن أين للرسول عليه السلام هذه الحقائق التاريخية التى لم تكن معروفة فى البيئة الجاهلية ولا فى غيرها من البيئات وقت نزول القرآن الكريـم. إنهـا لم تعـرف إلا منـذ زمـن قريـب بعـد قيـام العلماء بالحفريات فى أرض مصر وأرض بابل، والوقوف على أسرار الآثار التى فكوا رموزها، وفهموا ما تدل عليه[1].

وقد ذكر صاحب كتاب "قصة الحضارة" -أيضًا- أن أهل بـابل قـد عبـدوا القمر وكانوا يطلقون عليه اسم "نانار"، وعبدوا الشمس التـى كـانوا يطلقـون عليهـا اسم "شماس"، وعبدوا كوكب الزهرة التـى يطلـق عليهـا "عشـتار" وكوكـب المريـخ "مردوخ"[2]. ونحن نعلم أن القرآنّ الكريم قد أشار فى قصة سيدنا إبراهيـم إلى هـذه المعبودات التى كانت فى عصر هذا النبى الكريم، وذلك فى الآيـات ٧٥ - ٧٩ مـن سورة الأنعام. وكل ما سبق ذكره من أمثلة يؤكد ما يحتويـه القصـص القرآنـى مـن إعجاز علمى وتاريخى ليس له شبيه.

وتعد قصة زواج الرسول عليه السلام من زينب بنت جحش بعد طلاقهـا من زيد بن حارثة دليلاً قويًا آخر على أن القرآن الكريم وحى من السماء، حتى لقد كان تعليق السيدة عائشة رضى الله عنها على نزول الوحى بهذه القصـة أن قـالت : «لو كان النبى -صلى الله عليه وسلم- كاتمًا شيئًا من الوحى لكتم هذه الآية» تعنـى قول الله تعالى فى سورة الأحزاب :﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ . . . .﴾ إلخ، وهـذا حق فإن القرآن الكريم فى نزوله بالآيات المتعلقـة بهـذه القصـة قـد سـجل أمـرًا مـن أخص خصوصيات الرسول «فى أسرته وفى حياته، الأمـر الـذى يـدل بالتـالى قطعًـا على أن القرآن لم يكن حديثًا ذاتيًا للرسول ولا مؤلفًا له. وبالتـالى يـدل على تجرد

---

[1] راجع : اليهود فى القرآن لعفيف طبارة، ص١١٢، ٢٧٤.

[2] راجع : قصة الحضارة، ج٢، ص٢١٤.

القرآن من العوامل الإنسانية الشخصية التى يعتبر التجرد منها فوق مستوى البشر»[1] .

وإن من يمعن النظر فى القصص القرآنى وغيره من جوانب القرآن الكريم يجد بنية داخلية تثبت أنه وحى من السماء، فإن الأسلوب الأدبى للقرآن الكريم يتميز تميزًا واضحًا عن جميع الأساليب الأخرى، سواء أساليب الشعر أو النثر، العادى منه أو السجع، كما يتميز بجلاء ووضوح عن أساليب عامة الناس أو أسلوب سيدنا محمد على وجه الخصوص.

وفى ذلك يقول الدكتور أحمد الحوفى ما نصه :

«لن ينكر دارس متذوق أن أسلوب القرآن الكريم يتميز من أسلوب النبى -صلى الله عليه وسلم- ويمتاز على الأساليب كلها بطابعه الفريد، وبخصائصه التى لا نظير لها فى النسق والتعبير والسمات، وقد أعلن القرآن أنه معجز، وتحدى البلغاء العرب جميعًا ببيانه، فعجزوا عن الإتيان بشىء من مثله، على حين أن النبى لم يدَّعِ أن كلامه معجز، و لم يدَّعِ أحد من المسلمين لأحاديث النبى ضربًا من الإعجاز»[2] .

ومن قبله قال المرحوم مصطفى صادق الرافعى : «إن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه، لأنه ليس وضعًا إنسانيًا البتة، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوبًا من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد. وحسبك أن تأخذ قطعة منه فى الموعظة والترغيب، أو الزجر والتأديب، أو نحو ذلك مما يستفيض فيه الكلام الإنسان، فتقرنها إلى قطعة مثلها من كلام أبلغ الناس بيانًا، وأفصحهم عربية، لترى فرق ما بين أثر المعنى الواحد فى كلتا القطعتين، ولتقع على مقدار ما بين الطبقة الإلهية والطبقة الإنسانية فى السعة والتمكن، فإن هذا أمر لا تصف العبارة منه، وإذا وصفت لا تبلغ من صفته، ثم لا دليل عليه لمن يريد أن يستدل إلا الحسن»[3] .

---

[1] نحو القرآن، د. محمد البهى، ص٢٤، ٢٥.

[2] مع القرآن الكريم، ص٢١.

[3] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص٢٠٣، ٢٠٦.

كذلك نرد على هـؤلاء المستشـرقين الذيـن يدعـون بشـرية القـرآن الكريـم وقصصه بأن هناك مستشرقين مثلهم ومسيحيين قد أحاطوا بالنصرانية علمًا وخبرًا، ثم عرفوا الإسلام معرفة صحيحة، وإن كانت غير تامة وكاملة... وقد صرح هـؤلاء المستشرقون المنصفون بصدق القرآن الكريم وقصصه، واعترفوا بأن ذلك كلـه وحـي نزل من السماء على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

فعلى سـبيل المثـال -لا الحصـر- يقـول الأسـتاذ "إدوار مونتييـه"[1] مـدرس اللغات الشرقية فى مدرسة جنيف، ما ترجمته بالعربية :

«كان محمد نبيًا صادقًا، كما كان أنبيـاء بنـى إسـرائيل فـى القديـم. كـان مثلهم يؤتـى رؤيـا ويوحـى إليـه. وكـانت العقيـدة الدينيـة وفكـرة وجـود الألوهيـة متمكنين فيه، كما كانتا متمكنتـينّ فـى أولئـك الأنبيـاء أسـلافه، فتحـدث فيـه كمـا كانت تحدث فيهم ذلك الإلهام النفسى وهذا التضاعف فى الشخصية اللذيـن يحدثـان فى العقل البشرى المرائى والتجليات والوحى والأحوال الروحية التى من بابها».

وهذا فيلسوف وطبيب سورى كاثوليكى المنشأ قرأ يومًـا فـى مجلـة "المنـار" بعض المناقب المحمدية، فكتب إلى الشيخ محمـد رشـيد رضـا رسـالة قـال فـى أولهـا : «أنت تنظر إلى محمد كنبى فتراه عظيمًا، وأنا أنظر إليه كرجل فأعده أعظم» ثم ذكر جملة أبيات من الشعر فى وصـف الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام، ووصـف القـرآن الكريم وما فيه من آيات محكمات، مانعة لمن تدبرها من تقييد العمـران بالعـادات... إلى أن ختم الأبيات بقوله :

ببيانه أربى علـى أهـل النهـى — وبسيفه أنحـى علـى الهامـات
من دونه الأبطال فى كل الورى — مـن سـابق أو حاضـر أو آت[2]

ونحن نعرف أن "جوته" شاعر ألمانيا الكبير قد ألف ووضع "الأنشودة الثنائية

---

[1] فى مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن الكريم.

[2] راجع : تفسير المنار، ج١١، ص١٦٢.

بين علي وزوجته فاطمته" التـي اشـتهرت باسـم "أنشـودة محمـد" وفيهـا صـور هـذا الشاعر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم علـى أنـه : النمـوذج الأعلـى للإنسـان الذى ملأ الله عليـه قلبـه وحياتـه، وأنعـم عليـه وطهـره واصطفـاه، ليؤسـس الديانـة الكبرى. وفيها ما يشبه جوته النبى -صلى الله عليه وسـلم- بنهـر عـارم مضطـرم، يجرف أمامه كل شيء، ويقتلع ما يصادفه معه، ويندفع به بقوة إلى الإله الأبدى.

وحينما وصف جوتـه كتابـه "الديـوان الشـرقى الغربـى"، فإنـه ضمـن هـذا الديوان أكثر من اثنتى عشر قصيدة تـدور كلهـا حـول سيدنا رسـول الله وتعاليمـه ودعوته الإسلامية الحقة.

كذلك نجد المستشرق الألمانى الكبير "يوسف فون هامر" ينظـم العديـد مـن القصائد الشعرية وينشرها تحت اسم "نفير الجهاد" مصورًا فيها النبى -صلى الله عليه وسلم- داعية عظيمًا للجهاد فى سبيل الله. كذلك وضع هذا المستشرق كتابًا جمـع فيه سير الخلفاء والأمراء والملوك الكبار ونشـره فـى نحـو خمسـين مقالـة تحت عنـوان "إيوان الصور لحكماء المسلمين الكبار فى القرون السبعة الأولى للهجرة"، وقـد عـالج فى هذه المؤلفات سير الخلفاء والأمراء والملوك المشهورين فـى بـلاد الإسـلام، مبتدئًا بسيرة الرسول عليه السلام، وكان مما قاله عنه :

«يجب أن نتمسك بوجهة نظر أن محمدًا لم تكن تدفعـه مجـرد تلـك الفكـرة العظيمة وحدها، فكرة إخراج قومه من ضلال تعدد الآلهة، وهداية هـؤلاء القـوم إلى الصراط المستقيم، وإعادتهم إلى الإيمان بالله الواحد؛ بل إنـه كـان يتملكـه -أيضًـا- شعور دينى حى، واقتناع ذاتى بالوحى الإلهى الذى ينزل به الروح الأمين على قلبـه، وكان على إيمان عميق، شأنه فى ذلك شأن سابقيه من الأنبيـاء الآخريـن وهـو خـاتم النبيين»[1].

---

[1] محمد -صلى الله عليه وسلم- فى أبحاث المستشرقين الألمان، مقال للشيخ طه الولى، فى مجلة الوعى الإسلامى، عدد ربيع الأول ١٣٩٢هـ، ص٧١ وما بعدها.

كذلك يرد على هؤلاء المستشرقين الذين يدعون بأن القصص القرآنى من تأليف الرسول عليه السلام بأن المصحف -بشكله الحالى- يمثل إعجازًا من الله عز وجل، ذلك أن هناك آيات وقصصًا قد نزلت على الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم بعد ذلك -بعام أو عامين أو أكثر- نزلت آيات وقصص أخرى فى السورة نفسها؛ بل إن هناك سورًا قرآنية نزلت بعض آياتها فى مكة وبعضها الآخر فى المدينة، فأى عقل بشرى ذلك الذى يستطيع أن يتذكر الآيات والقصص التى نزلت فى مكة، والآيات والقصص التى نزلت فى المدينة، ثم يجمعها معًا فى سورة واحدة، ويرتبها ترتيبًا صحيحًا معجزًا دون أن ينسى حرفًا واحدًا من آية أو قصة، إلا أن يكون ذلك بوحى من الله عز وجل، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾[1] ؟! وما الذى يحمل الرسول -عليه السلام- إذا كانت المسألة بشرية أن يحمل نفسه هذا العناء، وما يحمله من مخاطر، فى كلام متعبد بتلاوته لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم البعث والحساب ؟! لقد كان من الأسهل على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- لو أن المسألة بشرية أن يجمع الآيات والقصص الموجودة فى المصحف الشريف بترتيب الإخبار والنطق بها؛ أى بما يسميه المفسرون : "ترتيب النزول"، ولكن جمعه بالترتيب التوقيفى الحالى كان إعجازًا أراد به الحق سبحانه وتعالى أن يبين للناس بوضوح : أنه هو سبحانه وتعالى الذى يوحى بالآيات والقصص وسائر ما تضمنه القرآن الكريم، وهو الذى يرتب وينسق، وأن القرآن الكريم -تنزيلاً وترتيبًا- هو من عند الله وحده، ومن هنا جمع آيات وقصصًا كان فارق النزول بينها مدة زمنية طويلة، ورتبها، وجعل رسوله يقرؤها فى الصلاة مرتبة، وكأنها نزلت وبينها دقائق فحسب، فى ترتيب محكم دقيق يشهد بإعجاز القرآن الكريم. وهكذا نرى أن القضية التى أريد بها الطعن فى القرآن الكريم والدين الإسلامى الحنيف هى قضية تخدم الدين والقرآن وتظهر معجزة من معجزات القرآن الكريم ما كان العقل

---

[1] سورة الأعلى، الآية ٦.

البشرى ينتبه إليها، لولا أنْ أثارها المشككون محاولة للطعن فى الدين والقرآن، فثبتوهما من حيث لا يشعرون.

وبعد : فلقد كان من الممكن أن نكتفى فى دحض أباطيل المستشرقين التى سبق عرض نماذج منها ببيان ما ذكره الباقلانى -مثلاً- من «أنه كان معلومًا من حال النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه كان أميًا لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ، وكذلك كان معروفًا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئًا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم... و لم يكن ملابسًا لأهل الآثار وحملة الأخبار ولا مترددًا إلى التعلم منهم»[1].

لكن منعنى من الاكتفاء فى الرد عليهم بذلك أنى وجدت هؤلاء المستشرقين يدعون -كذبًا وزورًا- أن الرسول عليه السلام كان يجيد القراءة الكتابة، وأن سبب تسميته بالأمى : «هو أنه لم ينبغ بين اليهود، بل نبغ بين الأمم، لأنه جرت عادة اليهود أن يطلقوا لفظ الأمم على من لم يكن يهوديًا من الشعوب والملل، كما أن العرب يطلقون لفظة العجم ليس على الفارسى فقط؛ بل على كل من لم يكن عربيًا ما عدا بلاد العرب وسكانها»[2] ، وزعموا -بالتالى- أنه لا يصح الاستدلال على أن محمدًا كان لا يعرف القراءة والكتابة بالآيات القرآنية التى وصفته بالأمى، لأن المراد بهذه الصفة -فى نظر هؤلاء الجهلة الأغبياء- أنه كان نبيًا من الأمم. وزعموا -كذلك- أنه لو كان على فرض عدم معرفته القراءة والكتابة، فلا يعد عليه أن يستفهم من غيره ويقف على تعاليم اليهود وعقائدهم وقصصهم، ولاسيما أن ذلك كان متيسرًا له عن طريق احتكاكه بعبد الله بن سلام وحبيب بن مالك وورقة بن نوفل الذين كانوا يدينون بدين اليهودية، ثم آمنوا به، وكانوا يعرفون بعض القصص والحكايات التى كانت متداولة فى تلك الأيام وبلغت مبلغ التواتر[3] .

---

[1] إعجاز القرآن، ص٣٤.

[2] مصادر الإسلام لتسدال، ص٣٤، ٣٥.

[3] راجع : السابق، ص٣٥.

فنظرًا لإيمانهم السقيم الخاطئ بهذا الرأى، لم أكتفِ فى الرد عليهم بما قاله الباقلانى، لأن من لا يؤمن بشىء لا يمكن أن يسلم به. بل إن من يقرأ بحوث هؤلاء القوم يجد أنهم يستخدمون أقوى ما عندهم لتقويض معالم الإسلام، فعلينا بالتالى أن نستخدم أقوى ما عندنا من حجج وبراهين كى لا ينالوا منا.

ولذلك -أيضًا- لم أكتفِ فى الرد عليهم ببيان أن القرآن الكريم قد صرح فى العديد من آياته بأن أخبار الغيب الماضية التى قصها فى سوره لم يكن النبى عليه السلام ولا قومه يعلمونها، وبأن النبى لم يقرأ فى حياته سفرًا، ولم يكتب سطرًا، ولم يُحِطْ بشىء من أخبار التاريخ خبرًا. على نحو ما نرى فى الآية ٤٤ من سور آل عمران، والآية ٤٩ من سورة هود، والآية ١٠٢ من سورة يوسف، والآية ٤٦ من سورة القصص، والآية ٤٨ من سورة العنكبوت.

لم أكتفِ بذلك -كما قلت- لأن القوم لا يؤمنون بالقرآن الكريم، فضلاً عن نظرتهم المادية المجردة من الصوت الإلهى التى ينظرون بها إلى النبى -صلى الله عليه وسلم- والتى حملتهم على إنكار نبوءته وادعاء أن القرآن الكريم من تأليفه، ونشر البحوث والدراسات العديدة التى تفيض سمومًا دفينة يقدمونها سهلة التناول باسم المناهج العلمية الحديثة فى الدراسات الإسلامية من ناحية. وباسم حرية الفكر والرأى والبحث العلمى من ناحية أخرى. ولذلك يجب أن نفند الفاسد من آرائهم ونوضح مواضع التحامل فيها، ليعرف القارئ المسلم ما يجب أن يدع من هذه الآراء مما يجب أن يأخذ؛ بل يجب -كذلك- أن ننظر إلى تراثنا الإسلامى العريق الذى مسته أيدى المستشرقين نظرة واعية فيها الكثير من اليقظة، وفيها التعمق الفكرى الذى يكشف ما وراءه، فما وافق قيمنا وسار فى درب ثقافتنا الإسلامية قبلناه، وما حاد عن السنن وركب الشطط ولاذ بالانحراف رفضناه وفضحناه، فلقد انحرف كثير من المستشرقين عن أمانة البحث العلمى بدافع من التعصب الدينى أو الجنسى، ومن ثم حوت بحوثهم ودراساتهم كثيرًا من المغالطات المتعمدة، والأباطيل التى ينكرها العلم والتاريخ والحقائق الواضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار.

وصفوة القول : أن ما زعمه المستشرقون مما قدمنا نماذج له فيما سبق ليس بحق، ولا هو من النتائج العلمية التى ينتهى إليها البحث الرشيد، والنظر السديد. وإن ما ذكروه وزعموه ضيق النطاق عن أن يكون مصدرًا للقصص القرآنى، فإن هذا القصص لأعلى وأوسع مما زعموه، وأكبر وأكمل مما توهموه، لأنه أولاً وأخيرًا تنزيل من الله رب العالمين، فيه الإعجاز البيانى.. وفيه الإعجاز العلمى.. وفيه الإعجاز التاريخى.. وفيه غير ذلك من سائر حقائق الإعجاز.

الفصل الثانى

أبطولة اشتمال القصص القرآنى على الأخطاء التاريخية

(مناقشات وردود)

لم يقف المستشرقون المتعصبون للمسيحية والحاقدون على الإسلام والمسلمين عند حد ادعاء أن القصص القرآنى مستمد من الشعر الجاهلى وقصص الفرس وكتب اليهود والنصارى، بل راح جماعة منهم يدعون- كذبًا وافتراء- أن هذا القصص يشتمل على أخطاء تاريخية، ويحتوى على أخطاء، وتحريفات فى ذكر أسماء الشخصيات وأسماء الأنبياء والرسل.

وسأحاول- فى هذا الفصل- أن أورد نماذج مما زعموه فى هذا الصدد، ثم أتبعها بالرد عليها ومواجهتها بالحقائق العلمية والتاريخية الثابتة.

١- نشر المستشرق اليهودى (إبراهيم جيجر) كتابًا بعنوان (ماذا أخذ محمد من اليهودية؟) حاول فيه- جاهدًا- أن يثبت- كذبا وافتراء- أن القرآن الكريم مأخوذ باللفظ أو المعنى من كتب اليهود وليس من عند الله!

وقد احتوى هذا الكتاب من بين ما احتوى على فصل بعنوان: (هل استطاع محمد وكيف استطاع الأخذ من اليهودية؟) وفيه يستعرض المستشرق خبيث الطوية طرق الأخذ الممكنة، فالنبى- فى نظره- إما أن يكون قد نقل مشافهة عن اليهود فى عصره، وإما أن يكون قد نظر فى كتبهم، واستقى منها معلوماته وقصصه مباشرة. وهو يرجح الطريق الأول اعتمادًا على ما توهمه من خطأ فى القرآن الكريم فى قول الله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ سورة مريم: الآية السابعة. فهو يدعى أن النبى لو كان قد قرأ كتب اليهود لعرف أن هناك بعض الأشخاص الذين سموا قبل يحيى بهذا الاسم! فالقرآن- فى نظره- خاطىء، لأن كتب اليهود التى كتبوها بأيديهم فيها أكثر من (يحيى)! ألا ساء ما يحكمون!.

٢- وزعم المستشرق- جفرى-: أن لفظة (آزر) الواردة فى قصة سيدنا إبراهيم بسورة الأنعام "محورة عن لفظة (إليعزر) العبرية اسم الخادم الأمين لإبراهام،

كما ورد فى قصة التكوين التى انتهت إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) فالتبس الاسم على أنه اسم أبى إبراهيم"![1].

٣- وزعم المستشرق (فنسنك): أن الرسول عليه السلام كان يعرف عن سيدنا (إلياس) عليه السلام أكثر مما قاله عنه فى القرآن الكريم. وأن الرسول عليه السلام قد حرف اسم (إلياس) إلى (الياسين) فى الآية رقم ١٣٠ من سورة الصافات، وذلك لضرورة السجع، وأن المفسرين القدامى لَقَوْا فى تأويل ذلك كثيرًا من المشقة والعناء![2].

٤- وزعم المستشرق (كارا دى فو) أن عبارة (وأيدناه بروح القدس) الواردة فى قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ لم يفهمها سيدنا محمد لأنه خلط بين روح القدس وبين جبريل![3].

٥- وزعم المستشرق اليهودى المجرى (جولد تسيهر): أن السؤال الوارد فى القرآن الكريم على لسان الحواريين: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾؟[4] لا يمكن أن يكون قد صدر على لسانهم، بعد إيمانهم بالله وبعيسى عليه السلام. ويدعى جولد تسيهر أن استحالة ذلك هى التى حملت بعض القراء المسلمين على أن يقرأ الآية هكذا (هل تستطيع ربك) بمعنى: هل تستطيع سؤال ربك، أى أن تجعله يفعل ذلك على ضوء سؤالك إياه![5].

---

[1] دائرة المعارف الإسلامية-- مادة آزر.

[2] راجع: السابق- مادة إلياس.

[3] راجع: السابق- مادة إنجيل، والآية ٨٧ من سورة البقرة.

[4] سورة المائدة: الآية ١١٢.

[5] راجع: مذاهب التفسير الإسلامى- ص٣٦، ٣٧.

٦- وعلى الرغم من أن قصة أصحاب الفيل قد أجمع عليها المنصفون من كتاب أوروبا، فإن كاتب هذه المادة فيما يسمى لدى المستشرقين بالحوليات الإسلامية- وهو المستشرق البرنس ليون كانياتي- قد أنكر هذه القصة لأن الرواية اليونانية المعاصرة لحادثة الفيل لم تشر إليها، ولأن الحملة اليمنية- في نظره- كانت موجهة إلى بلاد فارس لا إلى البيت الحرام بمكة، ولأن مصادر المسيحية- أيضًا- لم تشر إطلاقًا إلى أن أبرهة بنى كنيسة في صنعاء حتى يذهب إلى هدم الكعبة التي تنافس كنيسته، ولأن المسيحيين في صنعاء كانوا قليلين بحيث لا يحتاجون إلى كنيسة يشيدها أبرهة الحبشي، ويحاول أن يعارض بها البيت الحرام بمكة، ليصرف العرب عن الحج إليه، ويجعل قبلتهم صنعاء وحدها سواء كانوا عرب الجنوب أو عرب الشمال!.

٧- وتحدث المستشرق الدكتور سنت كلاير تسدل عن قصة مريم الواردة في القرآن الكريم، فزعم أن الآية القرآنية التي تقول: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ توضح أن سيدنا محمدًا- عليه السلام- كان يرى أن مريم كانت أخت هارون أخي موسى. ومما يزيد هذا الأمر وضوحًا- في نظر هذا المستشرق الجاهل- ما ورد في سورة التحريم الآية ١٢، وفي سورة آل عمران الآية ٣١ من النص على أن مريم هي ابنة عمران، بالإضافة إلى ما ورد في سورة الفرقان الآية ٣٧ من النص على أن هارون هو أخو موسى. فهذه الآيات الثلاث تثبت- في نظر تسدل- أن عمران وموسى وهارون ومريم هم نفس الأشخاص اللذين ورد ذكرهم بهذه الأسماء في خمسة أسفار موسى. ثم يقول: «غاية الأمر أنه ورد في التوراة: عمران عوضا عن عمران، وورد في سفر العدد الإصحاح ٢٦ الآية ٥٩ ما نصه: (واسم امرأة عمران: يوكابد بنت لاوى التي ولدت لـلاوى في مصر، فولدت لعمران هرون وموسى ومريم

أختهما) وورد فى سفر الخروج- أيضًا- الإصحاح- ١٥ الآية ٢٠ أن (مريم النبية كانت أخت هارون كما رأينا فى سورة مريم حيث قيل: ﴿يَا مَرْيَم. . . يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾، فلاشك أن محمدًا ذهب إلى أن مريم أخت هارون التى كانت أيضًا ابنة عمرام (أى عمران) هى ذات مريم التى صارت أم يسوع (المسيح عيسى) بعد ذلك بنحو ألف وخمسمائة وسبعين سنة» ثم يدعى الدكتور تسدل «أن بعض المفسرين المسلمين حاولوا تفنيد هذا البرهان الذى أقيم لتزييف القرآن، ولكنهم عجزوا عن ذلك، لأنهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلا» ثم قال: «وربما كان سبب هذا الغلط أنه ورد فى إحدى خرافات اليهود كلام بخصوص مريم أخت هارون نصه: (أن ملاك الموت لم يتسلط عليها، بل ماتت بقبلة إلهية، و لم يتسلط عليها الدود ولا الحشرات). ثم ختم الدكتور تسدل كلامه مدعيًا أن قول القرآن الكريم (يا أخت هارون): "خطأ جسيم"، لأنه لم يقل أحد من اليهود: إن مريم هذه بقيت على قيد الحياة إلى أيام المسيح»!![1].

ومن العجيب أن نرى كثيرًا من مستشرقين آخرين يحرصون على تناقل هذه الأبطولة التى زعمها تسدل، ويتمسكون بها، مثل المستشرق الإنجليزى الفرد جيوم، والمستشرق الأمريكى فردريك بلس والمستشرق الألمانى (فلهلم رودلف) والمستشرق الألمانى (هربرت جوتشالك).

٨- وذكر المستشرق تسدل- أيضًا- أن سائر معجزات سيدنا عيسى المذكورة فى القرآن الكريم هى حقيقية وحدثت بالفعل، إلا أنه استثنى من ذلك أمرين هما فى نظره من نماذج اشتمال القرآن الكريم على أخطاء من أخطاء التاريخ، فقد زعم أن القرآن الكريم قد أخطأ حين قرر أن سيدنا عيسى قد تكلم فى المهد. واستند تسدل فى نسج هذه الأبطولة إلى إنجيل يوحنا الإصحاح ٢ الآية ١١

---

[1] مصادر الإسلام- الترجمة العربية- ص١٠٥- ١٠٧.

حيث يتضح للقارىء حين يقرأ هذا الإنجيل أن المسيح لم يفعل أية معجزة وهو طفل. كما زعم تسدل أن ما ذكره القرآن الكريم عن المائدة التى أنزلها عيسى من السماء لم يحدث واستند تسدل فى هذا الادعاء الكاذب إلى أن هذه الحادثة العجيبة لم يرد لها ذكر فى أى كتاب من الكتب المسيحية!! ثم قال كاذبًا: «ولاشك أن عدم فهم الكتاب المقدس حق الفهم هو منشأ وأصل حكاية المائدة فى القرآن»![1].

٩- وذكر هذا المستشرق- أيضًا- أن والد سيدنا إبراهيم يسمى فى خمسة أسفار موسى: (تارح)، وأن بعض اليهود يسميه (آثر) بالثاء. ثم ادعى هذا المستشرق أن الرسول- عليه السلام- حينما سافر إلى الشام سمع هذه التسمية من اليهود، ولما لم يتذكر صحتها تمامًا قال: إن أبا إبراهيم هو: (آزر)![2].

١٠- كذلك اعتبر هذا المستشرق إنكار القرآن الكريم لصلب المسيح من الأخطاء التاريخية، لأن موت المسيح على الصليب- فى أوهام هذا المستشرق- حقيقة تاريخية ثابتة، ولأن سائر الأنبياء وجميع الحواريين يقرون بذلك، فالأنبياء من قبل عيسى قد تنبأوا بأنه لابد أن المسيح الموعود به يبذل حياته الكريمة الثمينة ويكفر كفارة تامة كاملة عن خطايا جميع النوع الإنسانى. وكذلك الحواريون قد شهدوا بذلك قائلين: إنهم كانوا حاضرين وشاهدوا بأعينهم المسيح مصلوبًا![3].

هذه نماذج عشرة مما روجه بعض المستشرقين من أباطيل وادعاءات بأن القصص القرآنى يحتوى على أخطاء من أخطاء التاريخ، وليس خافيًا أنهم كانوا يهدفون من نشر هذه الأباطيل إلى التدليل الخادع بأن القرآن الكريم ليس من عند

---

[1] راجع: السابق- ص١٢٧، ١٢٨.

[2] راجع: السابق- ص٤٩.

[3] راجع: السابق- ص١٣٣.

الله! وليس خافيا- كذلك- أن هذه الأباطيل وغيرها مما سبق ذكره فى الفصل الذى مضى قد بلغت المدى من الوقاحة والتهجم على القرآن الكريم وعلى سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- فإن هذه الأباطيل التى نسجوها ضروب من التخرص والتعسف والتجنى والمجازفة وتحريف الكلام واللعب بالألفاظ، وعدم التورع عن مزاعم وأباطيل فيها افتراء وسوء أدب نحو القرآن الكريم ومنزله جل وعلا ومن نزل عليه صلوات الله وتسليماته عليه.

ولاشك أن التصدى لهذه الأباطيل ونحوها والعمل على دحضها وكشف زيفها أمر واجب على كل باحث مسلم، ولاسيما إذا كان مثلى- رجل دعوة وأستاذًا بجامعة الأزهر الشريف حرسها الله معقلاً للغة القرآن الكريم وآداب العرب والمسلمين.

نعم!

يجب على كل باحث مسلم أن يشرع قلمه فى جهاد هؤلاء الأدعياء الضالين؛ بل هؤلاء الأعداء الموتورين والحاقدين الذين يصدق عليهم قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ سورة النساء: ٥٤.

إن ما سبق عرضه من نماذج لأباطيل المستشرقين يدل دلالة قوية على أن هؤلاء الناس لم يعنوا بدراسة القرآن الكريم وغيره من ألوان الفكر الإسلامى إلا ليتصيدوا من وراء ذلك أمثال ما زعموه ونحوه من الشبهات وأقوال آراء المنحرفين والغلاة والمتعصبين لتجسيمها واتخاذها وسيلة لتشكيك المسلمين فى قرآنهم المجيد الذى أنزله الله بالحق وبالحق نزل.. يصنع هؤلاء الأفاكون ذلك باسم (البحث العلمى) وهو فى الحقيقة (أباطيل خداعة) لا ينشرها إلا الجهلة الأغبياء، وأصحاب الأقلام المنحرفة، والنفوس الضعيفة، والألسنة المسمومة المعسولة.

لقد كان من الممكن ألا أعنى بمناقشة هذه الأباطيل، لأنها فى الحقيقة تفاهات وسخافات حقيرة تدل على جهل المستشرقين بحقائق القرآن الكريم وحقائق الإسلام، لكن وضعى كباحث فى جامعة الأزهر الشريف، وكدارس للقصص القرآنى بين حقائق الإعجاز وأباطيل الخصوم.. هذا الوضع يفرض علىّ أن أدافع عن القرآن الكريم وعما فيه من قصص وحقائق واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار.. وكلنا نعلم أن المستشرقين والملحدين ما يزالون يروجون الأباطيل، فلا أقل من أن نتصدى لهم- فى مثل هذا البحث- فنفضح كذبهم، وندحض مفترياتهم، ونبين جرأتهم على الكذب والافتراء، فضلاً عما هم عليه من جهالة جهلاء وضلالة عمياء عن حقائق القرآن الكريم وأدب القصة فيه على وجه الخصوص.

لقد توهم المستشرق جيجر- كما سبق الذكر- أن هناك خطأ فى قول الله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾، وادعى أن النبى لو كان قد قرأ كتب اليهود لعرف أن هناك بعض الأشخاص الذين سموا بهذا الاسم!.

وقد سبق أن دحضت دعوى بشرية القرآن الكريم، وأثبت بالأدلة العقلية والمنهج الموضوعى العلمى المنطقى أنه وحى منزل من السماء. أما دعوى جيجر بوجود خطأ فى هذه الآية الكريمة، فهناك أكثر من حقيقة تدحضها وتبطلها، وأوجزها فيما يلى:

أولاً: أن قول الله تعالى فى وصف يحيى: (لم نجعل له من قبل سميا) له أكثر من تفسير، وليس تفسيرًا واحدًا، كما فهم جيجر.

التفسير الأول: أن يكون المراد بذلك: أن أحدًا من البشر لم يسم بهذا الاسم قبل سيدنا يحيى عليه السلام. وإلى ذلك ذهب قتادة وابن جريج وابن زيد. واختاره ابن جرير رحمه الله.[1]" وهذا شاهد على أن الأسامى السنع جديرة

---

[1] راجع: تفسير القرآن الكريم العظيم لابن كثير- ج٣- ص١١٢.

بالأثرة، وإياها كانت العرب تنتحى فى التسمية، لكونها أنبه وأنوه وأنـزه عـن النبز حتى قال القائل فى مدح قوم:

سنع الأسامى مسبلى أزر حمر تمس الأرض بالهدب[1]

التفسير الثانى: أن يكون المراد بذلك: لم يجعل الله لسيدنا يحيى من قبل مثلا وشبيهًا. وإلى ذلك ذهب مجاهد. وقد أخذه من معنى قول الله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أى شبيهًا[2] . قال الزمخشرى: "وإنما قيل للمثل: (سمى) لأن كل مشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم: المثل والشبيه والشكل والنظير فكل واحد سمىّ لصاحبه... قالوا: لم يكن له- أى ليحيى- مثل فى أنه لم يعص و لم يهمّ بمعصية قط، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر وأنه كان حصورا"[3] .

التفسير الثالث: أن يكون المراد بذلك: لم تلد العواقر قبل يحيى مثله، وإلى ذلك ذهب على بن أبى طلحة نقلاً عن ابن عباس رضى الله عنهما[4] .

ثانيًا: قص علينا القرآن الكريم فى سورة آل عمران أن سيدنا زكريا عليه السلام عندما رأى الرزق بلا حساب عند مريم فى المحراب هنالك دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ونلحظ فى صيغة الدعاء -هنا- أن سيدنا زكريا لم يحدد نوع الولد أو صفته من ناحية الذكورة والأنوثة، لأن قوله: (ذرية طيبة) عبارة عامة تحتمل أن تكون الذرية عبارة عن أنثى يهبها الله إياه، كما تحتمل أن تكون الذرية فى صورة ذكر يهبه الله إياه. ثم يقص علينا فى سورة مريم

---

[1] الكشاف- ج٢- ٥٠٣.

[2] راجع: السابقين والصفحتين نفسيهما.

[3] الكشاف- ج٢- ص٥٠٣.

[4] راجع: تفسير ابن كثير- ج٣- ص١١٢.

التي وردت بها الآية التي تعرض لها المستشرق جيجر أن سيدنا زكريا نادى ربه نداء خفيا، فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ وليس خافيا أن صيغة الدعاء- هنا- توضح أن زكريا عليه السلام قد طلب من ربه أن يهبه ولدًا ذكرًا بالذات يرثه في النبوة والعلم وكل ما من شأنه خدمة الدين، وكأن زكريا يهمه العلم والنبوة، وليس المال بكل تأكيد فإن "الأنبياء لا تورث المال"[1] والحقيقة أن تحديد الهبة بالولد الذكر من صلبه امتداد لأمله العريض في بارئه وثقته المطلقة فيه، إذ ينطوي على الكثير من الاعتبارات:

- منها: أن الله تعالى جعله هو وزوجه قادرين على الإنجاب.

- ومنها: أن الولي سيكون غلامًا، تمشيا مع قوله تعالى خطابًا للمصطفى- صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ يوسف: ١٠٩.

- ومنها: أنه عليه السلام يفترض في هذا الابن أن تكتب له الحياة، ويعيش العيشة الطبيعية التي تنتهي بموت الأب وبقاء الأبن. كما يفترض أن يكون الابن صالحًا يقوم على شئون الدين كما ينبغي ويرثه ويرث من آل يعقوب[2].

وكان الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عند حسن ظن عبده زكريا به، فاستجاب لدعائه، وناداه بقوله سبحانه: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ وقد ابتدأت الآية الكريمة- كما نرى- بنداء الله تعالى زكريا، دليلاً على مكانته الرفيعة ومنزلته السامية عند ربه، ثم جاء بعد هذا النداء الرباني من الملأ الأعلى قوله تعالى: (إنا نبشرك) وهي جملة قرآنية تدل على

---

[1] الكشاف، ج٢، ص٣٠٥.

[2] تأملات في سورة مريم: د. حسن باجودة، ص٣٢.

رحمه الله سبحانه بسيدنا زكريا عليه السلام، كما أنها تدل- من ناحية أخرى- على مدى وقع هذه البشارة فى نفسه- عليه السلام- وهو المتعطش لولد ذكر صالح يقوم على الدين خير قيام بعد وفاته عليه السلام. ولا تقف البشارة عند ذكر الغلام، وإنما تتقدم لتسمى الغلام اسمًا يدل على بعض ما يتمنى له زكريا عليه السلام، من بقاء هذا الابن بعده حيا. ثم تختتم الآية بعبارة توضح لزكريا أن هذا الغلام مخصوص من ربه بهذا الاسم- وهو يحيى- دون سواه ممن سبق من البشر، وفى ذلك دلالة على رضا ربه عنه فى مستقبل الزمان بعد ولادته عليه السلام[1].

وهكذا نرى- من خلال النظرة الواعية الدقيقة لهذه الآية الكريمة- كيف أن المولى عزوجل قد نادى عبده زكريا من الملأ الأعلى، وعجل له البشرى، وغمره بالعطف والحنان والتكريم، فبشره بما كان يتمناه ويطلبه، وأبلغه- فى الوقت ذاته- أنه قد اختار للغلام الذى بشره به اسمًا فذا غير مسبوق.. هو ذلك الاسم (يحيى).. وهو اسم مشتق- كما نرى- من الحياة.. ثم يجيء قوله بعد ذلك: (لم نجعل له من قبل سميا) موحيا بأن تسمية الإنسان بلفظ مأخوذ من لفظ (الحياة) لم تكن- حتى ذلك الوقت- معروفة لأحد من البشر، ولا متداولة بينهم. ولا غرو فإن الله الذى سمى يحيى هو الذى سمى من قبله: آدم، وحواء، وإسحاق، ويعقوب، فكان يحيى ابن زكريا خامس خمسة سماهم الله ولم يسمهم أحد سواه.

لقد أنبأ الله سبحانه وتعالى سيدنا زكريا بذلك كله قبل أن تحمل زوج زكريا بسيدنا يحيى؛ بل قبل أن يحدث أى اتصال بين زكريا الذى وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا وبين زوجه التى كانت حتى هذه اللحظة التى صدرت فيها البشرى عاقرًا، وأنبأ الله سيدنا زكريا بالمستقبل الذى ينتظر هذا الغلام بعد سنوات طويلة، وإلى ماذا سيصير... أبلغه الله سبحانه أن امرأته العاقر ستحمل وتلد وتحقق معجزة ربانية تثبت طلاقة القدرة الإلهية التى تقول للشيء: كن فيكون، وأن امرأته

---

[1] راجع: السابق، ص٣٥.

ستلد غلامًا يطلق عليه اسم (يحيى) الذى لم يطلق على أحد من قبله، وأن هذا الغلام- كما أوضحت الآيات الواردة فى سورة آل عمران سيكون مصدقًا بكلمة من الله- وهو سيدنا عيسى عليه السلام- وسيدًا وحصورا ونبيًا من الصالحين، وأنه- كما أوضحت الآيات الواردة فى سورة مريم- سيأخذ الكتاب بقوة، وسيؤتى الحكم صبيا، وسيكون تقيا طاهر النفس والقلب رقيق الشعور، سليم الطبع، مرهف الحس، راجح الفكر، بارًا بوالديه، ولن يكون- بحال- جبارًا عصيا، وأنه سيكون محاطًا من الله بالأمن والسلام والطمأنينة يوم ولادته، ويوم وفاته، ويوم يبعث حيا للوقوف أمام خالقه ومولاه.. كل ذلك أخبر الله عزوجل به سيدنا زكريا عليه السلام، قبل أن يوجد الغلام فى بطن أمه، وقبل أن يتم الحمل الذى كان- بدون شك- من أروع المعجزات الربانية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية.

وهكذا كان الإبلاغ- كما يقول المرحوم فضيلة الشيخ الشعراوى- فيه إعجاز.. إعجاز بعلم الخالق قبل أن يخلق، وقبل أن تحمل زوجه زكريا عليه السلام[1].

ثالثًا: هناك أمر آخر يعد من أقوى الردود على المستشرق إبراهام جيجر فيما ادعاه فقد جاء نص فى أحد الأناجيل الأربعة التى يعترف بها النصارى يقرر- فى وضوح تام- أن اسم هذا الرسول الكريم (يحيى عليه السلام) لم يكن متداولاً من قبل، ولا معروفًا فى عشيرة أمه وأبيه وهم (بنو إسرائيل) مما يدحض ادعاء جيجر بأن كتب اليهود فيها أكثر من يحيى، وأن هناك بعض الأشخاص الذين سموا بهذا الاسم.

لقد ذكرت فى كتابى (تأملات فى إعجاز القصص القرآنى) أن الإصحاح الأول من إنجيل لوقا قد أورد قصتى ولادة يحيى وعيسى عليهما السلام فى سياق واحد مع قصد التدليل على قدرة الله، فقال:

---

[1] معجزة القرآن- ص٣٧٥ من المجلد الذى يضم ثلاثة أجزاء (كتاب اليوم).

"كان فى أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة إبيان وامرأته من بنات هارون واسمها اليصابات. وكان كلاهما بارين أمام الله سالكين فى جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم. ولم يكن لهما ولد، إذ كانت اليصابات عاقرًا. وكانا كلاهما متقدمين فى أيامهما- أى طعنا فى السن- فبينما هو يتكهن فى نوبة فرقته أمام الله حسب عادة الكهان أصابته القرعة- على عادة الكهان- أى يدخل إلى هيكل الرب ويبخر. وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجًا فى وقت البخور، فظهر له ملاك الرب واقفًا عن يمين مذبح البخور، فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك: لا تخف يا زكريا، لأن طلبتك قد سمعت، وامرأتك اليصابات ستلد لك ابنا وتسميه يوحنا ويكون لك فرح وابتهاج ويفرح كثيرون بمولده، لأنه يكون عظيمًا أمام الرب ولا يشرب خمرًا ولا سكرًا ويمتلىء من الروح القدسى وهو فى بطن أمه، ويرد كثيرين من بنى إسرائيل إلى الرب إلههم.." الفقرة ٥-١٥.

ويمضى هذا الإنجيل فى سرد القصة إلى أن يقول بالحرف الواحد ما يلى:

«أما اليصابات فلما تم زمان وضعها ولدت ابنا. وعلم الجيران والأقارب بمولد الصبى. فأسرعوا يهنئون والديه. وفى اليوم الثامن، وهو موعد ختان المولود وتسميته أقيمت الحفلة التقليدية. فأجمع الحاضرون على تسميته زكريا باسم أبيه ظنًا منهم أن هذا الأخير هو شيخ هرم أصبح على عتبة الموت. وأن انتقال اسم الأب إلى الابن يؤدى إلى تخليده. ولكن أمه رفضت قائلة: (لا بل يدعى يوحنا) وعبثا حاولوا إفهامها أن مثل هذا الاسم غريب فى عشيرتها. وتجاه إصرارها راحوا بشتى الإشارات يسألون زكريا. فطلب لوحا وكتب: (اسمه يوحنا)، ولما لمسوا اتفاق الأب والأم على اختيار للاسم ذاته تعجبوا لعلمهم بأن زكريا كان أبكم، وأنه- بسبب بكمه- لم يكن باستطاعته أن يوحى إلى زوجته بالاسم الذى كتبه.. وكان كل من يسمع بذلك يحفظ فى قلبه، ويقول: ما عسى أن يكون هذا الصبى، وكانت يد الرب معه! الفقرة ٥٧- ٦٦.

إن هذه السطور التى اقتبسناها من إنجيل لوقا الذى كتبه وألفه- كغيره من الأناجيل- أحبار النصارى- من أقوى الوثائق الدالة على تناقض المستشرقين فيما يزعمون، وعلى خطأ جيجر حين ادعى أن فى القرآن الكريم خطأ فى وصف يحيى بأن الله لم يجعل له من قبل سميا. فما اصدق القرآن الكريم وهو يقرر الحق الكامل والصدق الشامل فى تسمية هذا النبى الكريم يحيى عليه السلام! حيث لم يكن لأحد من قبله هذا الاسم.

لقد كان حريا بالمستشرق جيجر أن يبتعد عن التعصب الأحمق والمغالطات الخبيثة، وأن ينأى هو وأمثاله من المستشرقين وأذنابهم عن اتهام القرآن الكريم بما يخلو منه تمام الخلو، فإن القرآن الكريم يقص من التاريخ الحقائق الواقعية الثابتة، والأنباء الصادقة الخالية من الأخطاء.

وكان حريا به بدلاً من أن يحاول الطعن فى الآية القرآنية الكريمة وتسمية يحيى عليه السلام أن يقف- ما دام مغرمًا إلى هذا الحد السخيف بالبحث عن الأخطاء- أمام لفظة (يوحنا) التى رأيناها فى النص السابق المقتبس من إنجيل لوقا، وأمام عبارة (يوحنا المعمدان) الواردة فى إنجيل متى: الإصحاح الثالث حيث يقول:

"وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية" وفى غير ذلك من نسخ الأناجيل المحرفة المتداولة بين النصارى واليهود.

ذلك أنهم يذكرون أن يحيى كان يعمد الناس أى يغسلهم فى نهر الأردن للتوبة من الخطايا وللتطهير من الذنوب، وأنه قد عمد المسيح عليه السلام. ومن ذلك أخذوا ما يعرف عندهم باسم (سر المعمودية)، فكما كان يحيى يعمد الناس فى نهر الأردن ليتطهروا من الدنس والإثم، صار العماد بالماء أهم شعائر الكنيسة وأحد أسرارها السبعة، فبعد ولادة الطفل يحضره والده إلى الكنيسة لتعميده وإلا ظل- فى عقائدهم الباطلة- كافرًا. فيخلعون ملابسه، ثم يأتى الكاهن ومساعدوه ويحملونه ويضعونه داخل بئر مملوءة بالماء ويقومون بتغطيسه ثلاث مرات فى هذا البئر، حتى يتطهر من دنس الحمل وخطيئة الميلاد ويصير بذلك نصرانيا!![1].

---

[1] راجع: المسيح إنسان أم إله للدكتور محمد مجدى مرجان- ص٦٠.

ونفسهم من ذلك أن لفظ (المعمدان) الوارد فى أناجيلهم إنما هو صفة لاسم (يوحنا) حيث كان يعمد ويتولى التعميد وهو التبريك بالغسل بالماء للتوبة من الخطايا، فهم إذن يوردون لفظ (المعمدان) على أنه اسم فاعل من الفعل (عمد) بتشديد الميم، وهذا خطأ يجب تصحيحه، لأننا إذا أردنا- كما يقول الأستاذ عبد الرازق نوفل: «إطلاق الصفة على من عمد أو غسل قلنا: المغتسل أو المعمد فيقال بذلك: يوحنا المغتسل أو يوحنا المعمد. ولا يمكن أن نقول: يوحنا المغتسلان أو يوحنا المعمدان، لأن (المغتسلان) أو (المعمدان) هى صيغة للتثنية. والمعمد ليس (اثنان)[1] بل واحد، فهو بلاشك أو جدل، وبلا نقاش أو تفكير: (يوحنا المعمد) ولا يمكن أن يكون: (يوحنا المعمدان). والألف والنون فى المعمدان طالما أنهما ليستا للتثنية فهما زائدتان وبلا داع»[2].

أما لفظ (يوحنا)، فإننا لو رجعنا إلى تركيب حروفه- كما جاءت فى اللغات الأجنبية نراها جميعها تذكره على أنه (يوحان)، وخاصة أنها بهذا التركيب قد جاءت مطبوعة على صور توزع فى مختلف أنحاء العالم لرأس النبى يحيى بعد قتله، وأنها تتداول بهذه الصورة (يوحان) من عشرات المئات من السنين. فالاسم إذن طبقًا لما جاءت به المصادر الأجنبية هو (يوحان)، واختلف وضع الألف والنون وتبادلا، ليصبح فى الأناجيل (يوحنا) بدلاً من (يوحان)، وإذا ما نظرنا إلى لفظ (يوحان) وجدنا- بدون شك- أن الألف والنون زائدتان، كما هو الحال فى لفظ (المعمدان). ويكون تركيب الاسم وصحته هو بدون الألف والنون، سواء أكان الاسم (يوحان) أو اختلف وضع الألف والنون لتصبح (يوحنا)، ويكون الاسم هو (يوحى) ويوحى إنما معناه- كما يظهر ذلك لأول وهلة- هو استمرار الحياة، أى أنه يحيى. ويكون صحة هذا الاسم وحقيقة التركيب وضرورة الترتيب أن يكون

---

[1] هكذا جاءت فى النص المقتبس. والصواب ليس اثنين.

[2] يوحنا المعمدان النبى يحيى عليه السلام- ص١٧.

(يحيى) سواء كتبت يحيى أو كتبت يوحى. وهكذا فإن الاسم الصحيح لهذا النبى الكريم هو ما نطق به القرآن الكريم.. أى يحيى الذى لم يكن له من قبل المثيل[1].

على أن فى القرآن الكريم أمرًا آخر يلفت النظر ويسترعى الانتباه، فإن لفظ (يحيى) يتألف من أربعة حروف- كما نرى- وقد ورد اسم هذا النبى الكريم فى القرآن الكريم فى أربع سور أيضًا هى:

١- آل عمران: الآية ٣٩.

٢- الأنعام: ٨٥.

٣- مريم: الآيتان: ٧، ١٢.

٤- الأنبياء: الآية: ٩٠.

فتأمل هذا التوافق العددي البديع الناطق بالإعجاز القرآنى حتى فى لغة الأرقام!

وننتقل من الرد على المستشرق جيجر إلى الرد على المستشرق (جفرى) الذى ادعى وزعم أن الرسول عليه السلام قد استمد قصة إبراهيم من سفر التكوين، وأنه جعل من لفظة (اليعزر) العبرية (آزر)، وأنه جعل من الخادم الأمين أبا لإبراهيم عليه السلام.

وقد سبق أن أثبتت بالأدلة العقلية والمنهج العلمى الموضوعى المنطقى زيف ما يدعيه المستشرقون بأن القصص القرآنى مستمد من كتب اليهود والنصارى وغيرها مما زعموه، فما قلته هناك يدحض دعوى جفرى بأن الرسول قد استمد قصة إبراهيم من سفر التكوين. وبالتالى يثبت لدينا زيف ادعاء جفرى بأن الرسول قد جعل من (إليعزر) آزر، كما جعل من الخادم الأمين أبا لإبراهيم.

ويكاد يكون ما قاله المستشرق (جفرى) وهو يحسبه حجة له، حجة لنا، فهو يدلنا على أن لفظة (آزر) كان لها وجود فى تلك البيئة، وأن لها مشابهًا هو

---

[1] راجع: السابق- ص١٨، ١٩.

لفظة (إليعزر) التى كانت اسمًا يطلق- فى البيئة نفسها- على الخادم الأمين لإبراهام كما يقول المستشرق جفرى، وكما يقول الإصحاح الخامس عشر من التوراة أيضًا: فقد جاء فى هذا الإصحاح ما نصه:

«فقال إبراهام: أيها السيد الرب ماذا تعطينى وأنا ماض عقيما، ومالك بيتى هو إليعازرر الدمشقى».

ونلحظ أن رسم هذا الاسم قد جاء فى التوراة هكذا (إليعازر) أى بإضافة ألف بين العين والراء. وهو رسم مخالف لرسم اللفظة كما كتبها جفرى، وكما ترسمها المعاجم السامية التى تكتبها كما كتبها جفرى، أى بحذف الألف، وتقول هذه المعاجم: إن لفظ (إليعزر) مركب من : إل - إلاه-ى: ياء المتكلم- عزر: معين. ومعناه: إلا هى معين. وهكذا كانت لفظة (آزر) من منطوق تلك البيئة التى عاش فيها سيدنا إبراهيم وعاش فيها أبوه الذى سمى بهذا الاسم (آزر). وكان أهل هذه البيئة يجعلونه مفردًا كما ورد فى القرآن الكريم، ويجعلونه مركبًا مع غيره، كما جاء فى التوراة. وهذا هو الاستقراء السليم للكلمة، لا الاستقراء الملتوى الذى أتى به جفرى ليوهم الناس بهذا الاستقراء الملتوى أن قصة إبراهيم الواردة فى القرآن الكريم مستمدة من قصة هذا النبى فى سفر التكوين![1].

على أننا نرى تناقضًا واضحًا فى ادعاءات المستشرقين يدل على التوائهم المتعمد وبعدهم عن الحقائق الثابتة وعدم تحرزهم حين يعالجون القضايا لاسيما إذا كانت تلك القضايا تمس عقيدتنا الحقة ونبينا الصادق الأمين.. ومن أوضح الشواهد على تناقضهم أننا نرى جفرى يزعم أن (آزر) محرفة عن (إليعزر)، وفى الوقت نفسه يزعم الدكتور سنت كلاير تسدل أنها محرفة عن (آثر) التى كان يطلقها بعض اليهود على والد سيدنا إبراهيم!

ولقد أوضح الجواليقى فى كتابه (المعرب) عند حديثه عن لفظة (آزر): أن

---

[1] راجع مادة (آزر) بدائرة المعارف الإسلامية.

هذه اللفظة اسم أعجمي، وأنها من العجمي الذى وافق لفظ العربى نحو: الإزار، والأزرة.

وقال الإمام الزمخشرى:

«آزر: اسم أبى إبراهيم عليه السلام، وفى كتب التواريخ أن اسمه بالسريانية تارح، والأقرب أن يكون وزن آزر فاعل مثل تارح وعابر وشالخ وفالغ وما أشبهها من أسمائهم، وهو عطف بيان لأبيه.. وقيل: آزر اسم صنم فيجوز أن ينبز به للزومه عبادته كما نبز ابن قيس بالرقيات اللاتى كان يشبب بهن، فقيل: ابن قيس الرقيات، وفى شعر بعض المحدثين:

أدعى بأسماء نبزا فى قبائلها كأن أسماء أضحت بعض أسمائى

أو أريد: عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه"[1].

وروى الإمام البخارى حديثًا صحيحًا يقول: «عن النبى- صلى الله عليه وسلم- قال: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصنى؟! فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك...»[2].

أما زعم المستشرق (فنسنك) بأن الرسول عليه السلام قد حرف اسم إلياس إلى الياسين لضرورة السجع، فإنها عبارة خبيثة يقصد المستشرق منها أن يوهم قراء دائرة المعارف الإسلامية بأن القرآن الكريم وقصصه من وضع الرسول عليه السلام. والعبارة فى الوقت ذاته دليل واضح على جهل المستشرقين وتفسيراتهم الخاطئة لكثير من أمور اللغة والدين.. تلك التفسيرات الخاطئة التى أورد المرحوم العقاد أمثلة مضحكة منها مثل ما كتبه بعض المستشرقين تفسيرًا لاسم ابى بكر الصديق رضى الله عنه من أنه: (أبو العذراء)، ومثل ما قاله بعضهم فى تفسير لمعنى (القصيد) من أنه: (المقصود)، ومثل تفسير بعضهم لقول الله تعالى:

---

[1] الكشاف: ج٢ ص٢٩، ٣٠.

[2] فتح البارى: ج٦، ص٢٧٦ (طبعة بولاق).

﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾ بأن المعنى: وترى الملائكة بدون أحذية من حول العرش!![1].

لقد فات على هذا المستشرق أن (إلياس) اسم أعجمى ممنوع من الصرف للعلمية مع العجمة، وأن الأعجمى من الأسماء قد تفعل به العرب ذلك، فتقول فى إلياس: إلياسين، وتقول فى إدريس: إدريسين وإدراسين "كما يقال فى إسماعيل: إسماعين: وهى لغة بنى أسد، وأنشد بعض بنى تميم فى ضب صادة:

يقول رب السوق لما جينا ... هذا ورب البيت إسرائينا

ويقال: ميكال وميكائيل وميكائين وإبراهيم وإبراهام وإسرائيل وإسرائين وطور سيناء وطور سينين وهو موضع واحد وكل هذا سائغ"[2].

وننتقل من الرد على المستشرق (فنسنك) إلى ما زعمه المستشرق (كارادى فو) من أن الرسول عليه السلام قد خلط بين روح القدس وجبريل فى الآية الكريمة التى تقول: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس. .﴾!

وعبارة الكاتب- كما نرى- تحمل من الخبث والمغالطة ما تحمل، إذ يوهم الكاتب قراء دائرة المعارف الإسلامية بأن القرآن الكريم وقصصه من تأليف الرسول عليه السلام، وتلك أبطولة سبق دحضها فى الفصل الذى مضى، فلا حاجة بنا لتكرار ما قلته هناك. أما دعواه بأن هناك خلطًا بين روح القدس وجبريل فى الآية الكريمة، فالواقع أننى لا أدرى- بالضبط- ماذا يريد هذا المستشرق بهذا الكلام الغامض الملتوى فضلاً عن كونه خارجًا عن حدود البحث العلمى الذى يتشدق به المستشرقون دائمًا!!

---

[1] راجع: الإسلام دعوة عالمية- ص٢٢٨.

[2] تفسير القرآن العظيم لابن كثير- ج٤ ص٢٠.

لقد نص سيدنا عبد الله بن مسعود- رضى الله عنه- فى تفسيره لهذه الآية الكريمة على أن المراد بروح القدس هو سيدنا جبريل عليه السلام. وقد تابع ابن مسعود على ذلك كل من: عبد الله بن عباس ومحمد بن كعب وإسماعيل بن خالد والسدى والربيع بن أنس وقتادة وعطية العوفى[1]. وجاء فى القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[2]، وجاء فى شعر حسان بن ثابت قوله:

وجبريل أمين الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء[3].

وروى أن نفرًا من اليهود سألوا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقالوا: أخبرنا عن الروح. فقال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل: هل تعلمون أنه جبرائيل وهو الذى يأتينى؟ قالوا: نعم. وروى- أيضًا- أن سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه مر بحسان بن ثابت وهو ينشد الشعر فى المسجد النبوى فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك- يقصد الرسول عليه السلام- ثم التفت إلى سيدنا أبى هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقول: أجب عنى اللهم أيده بروح القدس. فقال: اللهم نعم. وجاء فى بعض الروايات: أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال لحسان: أهجهم- أوهاجهم- وجبريل معك[4].

ومما تقدم يتضح أن روح القدس هو جبريل عليه السلام. فأى خلط ذلك الذى يدعيه المستشرق الجاهل بين روح القدس وجبريل فى الآية الكريمة؟!

وقال الإمام الزمخشرى ما نصه:

---

(1) راجع: السابق ج1، ص122.

(2) الشعراء: 193، 194.

(3) ديوانه، ص75.

(4) راجع: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج1، ص122.

«بروح القدس: بالروح المقدسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل صدق. ووصفها بالقدس كما قال: وروح منه، فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة، وقيل: لأنه لم تضعه الأصلاب ولا أرحام طوامث. وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل ما قال في القرآن: وروحًا من أمرنا. وقيل: باسم الله الأعظم الذى كان يحيى الموتى بذكره»[1].

وكلام الزمخشرى يفيد- كما نرى- أن هناك أكثر من تفسير للمراد بروح القدس الذى يدعى المستشرق الجاهل كاراد فو أن هناك خلطًا فى القرآن الكريم بينه وبين جبريل عليه السلام.

وفضلاً عن ذلك كله فإن إطلاق (روح القدس) على جبريل عليه السلام لا يزيد على أنه نعت له بأنه روح مقدسة طاهرة، بمقتضى وضع العرب الألفاظ للمعانى، وليس فى هذا الإطلاق أى تداخل بين المعانى حتى يسيغ المستشرق كارادى فو لنفسه أن يعبر عن سيدنا رسول الله صلوات الله عليه وتسليماته عليه هذا التعبير السيىء المنكر الخارج عن أصول البحث العلمى، وكأنه يدعى لنفسه- وهو الغريب عن لغة العرب وفهمها حق الفهم- أنه أعلم بها من أصحابها، وليس بنافعه ذلك شيئًا إلا أن يدل القارئين على مقدار علمه بما يكتب، أو يحذف ما زعمه فى ثنايا حديثه عن المادة التى كتبها بدائرة المعارف الإسلامية[2].

لقد نسى هذا المستشرق أو بعبارة أدق تناسى أن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين، وأن الرسول- صلى الله عليه وسلم- قد خاطب الناس بهذه اللغة، وأن هذه اللغة قد احتوت على لفظتى: (روح) و(قدس)، وأن هاتين اللفظتين معروفتا المعنى عند العرب، وأن لفظة (القدس) تأتى نعتًا لغيرها، وأن الموصوف يضاف أحيانًا إلى صفته فى اللغة العربية، ومن هنا كان معنى (روح القدس): الروح المقدسة الطاهرة أو نحو ذلك مما قاله الإمام الزمخشرى فى تفسيره للآية الكريمة.

---

[1] الكشاف: ج١، ص٢٩٤.

[2] راجع: مادة إنجيل بهذه الدائرة.

لقد كان المستشرق كاراد فوفى ادعائه الذى نحن بصدد دحضه متأثرًا كل التأثر بالاستعمال الخاطىء لتعبير (روح القدس) فى الاصطلاحات المسيحية التى ما أنزل الله بها من سلطان، ذلك أن النصارى يزعمون أن الإله الواحد ثلاثة أقانيم- تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا- وهى- كما تدعى كتبهم الزائفة: الذات، والنطق، والحياة. فإذا تجلى الله بصفته ذاتًا، سمى: الآب، وإذا نطق فهو: الابن، وإذا ظهر كحياة فهو الروح القدس. والله الآب جعلوه مصدر العدل، والله الابن جعلوه مصدر الرحمة والله الروح القدس جعلوه مصدر النعمة. ثم زعموا أن "الله الابن، الأقنون الثانى من الثالوث، سُرَّ بأن يصير إنسانًا، ويولد من مريم العذراء، لكى يكون إلهًا وإنسانًا معًا، فهو إله منذ الأزل من طبيعة الآب، وإنسان من وقت التجسد من طبيعة أمه، وهو بذا إله كامل وإنسان كامل"![1] .

تأثر المستشرق كارادى فو كل التأثر بهذه الأباطيل التى يدعيها أبناء نحلته، فراح يدعى ويزعم أن فى القرآن الكريم خلطًا بين روح القدس وجبريل عليه السلام. ونسى المستشرق الجاهل أن استعمال النصارى لروح القدس استعمال خاطىء لايكون حجة على القرآن الكريم ولا على لغة العرب. فالخطأ كل الخطأ فيما ورد فى مصطلحات النصارى وكتبهم الزائفة، والحق كل الحق فيما نطق به القرآن الكريم وقصصه المعجز.

وننتقل من الرد على هذا المستشرق إلى الرد على المستشرق اليهودى المجرى (جولد تسيهر) الذى يدعى أن السؤال الوارد فى القرآن الكريم على لسان الحواريين: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ . . ﴾..إلخ لا يمكن أن يكون قد صدر على لسانهم بعد إيمانهم بالله وبعيسى عليه السلام.. إلى

[1] البراهين العقلية والعلمية فى صحة الديانة المسيحية: تأليف وجمع القائمقام مقام ترتن، من فرقة المهندسين، ترجمة حبيب أفندى سعيد، ١٩٢٥، ص٢١٧، والعنوان فيه مغالطة لأن الدين الحق هو الإسلام فقط.

آخر ما زعمه هذا المستشرق. وسأكتفى فى دحض مزاعم جولد تسيهر بما جاء فى حاشية السيد الشريف أبى الحسن الحسينى الجرجانى المطبوعة فى مجلد واحد مع تفسير الكشاف للزمخشرى.

قال صاحب الحاشية ما يلى:

«.. إن معنى هل يستطيع: هل يفعل؟ كما تقول للقادر على القيام: هل تستطيع أن تقوم؟ مبالغة فى التقاضى. ونقل عن هذا القول عن الحسن. فعلى هذا يكون إيمانهم سالمًا عن قدح الشك فى القدرة، فإن استقام التعبير عن الفعل بالاستطاعة، فذاك- والله أعلم- من باب التعبير عن المسبب بالسبب، إذ الاستطاعة من جملة أسباب الإيجاد»[1].

أما إنكار المستشرق (البرنس ليون كانياتى) لقصة أصحاب الفيل، فمن أشد أباطيل المستشرقين غرابة. وهو لا يهدف من وراء هذا الإنكار إلا شيئًا خبيثًا واحدًا، هو إيهام قراء مادة (أصحاب الفيل) فى الحوليات الإسلامية بأن فى القرآن الكريم أخطاء من أخطاء التاريخ، حيث أورد قصة لم تحدث- فى زعم هذا المستشرق- تاريخيًا!

وقد نسى هذا المستشرق أو بتعبير أدق: تناسى أن حادث الفيل قد وقع فى السنة التى ولد فيها النبى- صلى الله عليه وسلم- ومعنى هذا أن سورة الفيل التى عرضت- فى إيجاز بليغ معجز- قصة هذا الحادث قد نزلت على النبى فى وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم، أو- على الأقل- سمعوا عنه، وبعضهم من أعداء النبى، فلو لم تكن هذه القصة حقيقية لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة ويعلن ذلك على رءوس الأشهاد، وينتهزها فرصة فى الكيد للنبى والطعن عليه، ولاسيما أنهم كانوا وقتئذ يتمنون أن يروا له سقطة أو عثرة أو كذبة، فلولا أنه أذكرهم أمرًا لا يتدافعونه، ولا يستطيع

---

[1] حاشية الجرجانى على الكشاف: ج١، ص٦٥٤.

العدو إنكاره، للذى يرى من إطباق الجميع عليه، لوجدوا أكبر المقال فى تكذيبه والتشنيع عليه. لكن شيئًا من ذلك كله لم يحدث، وإنما نزلت سورة الفيل على النبى- صلى اله عليه وسلم- فى مكة المكرمة، فتلقاها الجميع بالقبول، لأنها تقص عليهم حقيقة معروفة عندهم لا شك فيها، ولا يستطيع أحد إنكارها.

يقول الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى: «سجل القرآن الكريم حديث أصحاب الفيل فى سورة مستقلة، وقد أجمع مؤرخو العرب، والمنصفون من كتاب أوروبا على وقوع حادث الفيل بين حكام اليمن ومكة، على نحو تؤيده الراوية الصحيحة، ويمليه منطق الأحداث، وفيهم من سلسل الأدوار التاريخية لهذا الحادث مرتبة على نسق مقنع يرضى الباحث المحايد، ولا يجد ذرة من الشك لديه، ومؤرخو العرب فى هذا النطاق أولى من سواهم، لأن هذا الحادث الكبير بمغزاه وفجاءاته قد وقع فى أرض عربية، وذاع ذكره على ألسنة صناعتها البيان والإفصاح، فسجلته الرواية المسندة،وصوره الشعر العربى فى أكثر من قصيدة»[(١)].

وهذا حق، فنحن إذ نستقرىء قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى نجد أن «حادثة الفيل لها خطرها فى تاريخ الحجازيين خاصة، والعرب عامة. وقد هزت الكيان القومى لا للمكيين وحدهم، وإنما للعرب أجمع، فإن البيت الحرام يعتبر رمزًا للوحدة العربية، وشعارًا لحرية العرب، وما غرو أبرهة له إلا محاولة للقضاء على هذه الحرية وتلك الوحدة. ولا غرو إذا ما هتف شعراء الحجاز بالقصيد يصبون جام غضبهم على المعتدى الأثيم، ويهزجون بأهازيج النصر»[(٢)] وهذا هو الوجه السياسى الذى حمل أبرهة على التفكير فى هدم الكعبة. أما الوجه الدينى لتلك المحاولة التى باءت بالفشل فمعروف لنا جميعًا من أنه كان يرغب فى تحويل أنظار الناس عن الكعبة بيت الله إلى الكنيسة التى شيدها فى صنعاء، والتى

[(١)] قضايا إسلامية، ج١، ص١٧٨.

[(٢)] قصة الأدب فى الحجاز، ص٤٤٧- ٤٤٨.

"لم ير مثلها فى زمانها بشىء من الأرض"[1] فقد "كان ينقل إليها العدد من الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام وكان من موضع الكنيسة على فراسخ، ونصب فيها صلبانًا من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والأبنوس[2] .

لكن الحق سبحانه وتعالى جعل كيد أصحاب الفيل فى تضليل ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ* تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ *فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾، وكان من ثمار ذلك أن "أعظمت العرب قريشا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مئونة عدوهم، فقالوا فى ذلك أشعارًا يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة، وما رد عن قريش من كيدهم"[3] .

ومن الشعراء الجاهليين الذين نظموا شعرًا فى هذه الحادثة يؤيد صدق ما جاء به القرآن الكريم: عبد الله بن الزبعرى، أبو قيس بن الأسلت الأنصارى، طالب بن أبى طالب بن عبد المطلب، أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى ونفيل بن حبيب الخثعمى، عبد المطلب جد الرسول عليه السلام[4] .

ومن هذا الشعر نختار قول عبد الله بن الزبعرى:

تنكلوا عن بطن مكة إنها ... كانت قديمًا لا يرام حريمها

لم تخلق الشعرى ليالى حرمت ... إذ لا عزيز من الأنام يرومها

سائل أمير الجيش عنها ما رأى ... فلسوف ينبى الجاهلين عليمها

ستون ألفا لم يؤوبوا أرضهم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمها[5]

---

[1] السيرة النبوية، لابن هشام، ج١، ص٤٣.

[2] السابق، هامش، ص٤٣.

[3] السابق، ص٥٨.

[4] راجع: السابق، ص٥٨- ٦١، تفسير ابن كثير، ج٤، ص٥٥٢.

[5] يعنى: أبرهة، إذ حملوه معهم حين أصابه ما أصابه، حتى مات بصنعاء.

كانت بها عاد وجرهم قبلهم ... وا لله من فوق العباد يقيمها

وقول أبى الصلت بن ربيعة الثقفى:

إن آيـــات ربنـــا باقيـــات ... ما يمارى فيهـــم إلا الكفور

خـــلق الليـــل والنهـــار فكل ... مستبين حســـابه مقـــدور

ثم يجلو النهار رب رحـــيم ... بمـــهاة شـــعاعها منشـــور

حبس الفيل بالمغمس حتـــى ... صـــار يحبـــو كأنه معقور

لازمـــا حلقـــة الجـــران كما قطـــر من ظهـــر كبكـــب محـــذور

حوله من ملوك كندة أبطـــال ... ملاويث فى الحروب صقـور

خلفوه ثم ابذعـــروا جميـــعا ... كلهم عظم ســـاقه مكســـور[1]

وقول أبى قيس بن الأسلت من شعراء يثرب:

ومن صنعه يوم فيـــل الحبو ... ش إذ كـــلمـــا بعثـــوه رزم

محاجنهـــم تحـــت أقرابـــه ... وقـــد كـــلموا أنفـــه فانخرم

وقـــد جعلوا ســـوطه معولا ... إذا يممـــوه قفـــاه كـــلـــم

فـــولى وأدبـــر أدراجـــه ... وقد باء بالظلم من كان ثـــم

فأرســـل من فوقهـــم حاصبا ... يلفهـــم مثـــل لـــف القزم

يحث على الطير أجنادهـــم ... وقد تأجـــوا كثـــؤاج الغنم[2]

وقـد روى المؤرخـون والمفسـرون أن أبرهـة الحبشـى حينمـا حـل بـأرض (خثعم) وهو فى طريقه إلى مكة المكرمة اعترض له (نفيل بن حبيـب الخثعمى) فـى قومه (شهراق) و(نـاهس) فقـاتلوه ليصرفـوه عـن هـدم الكعبـة، فقـد رأى نفيـل أن

(1) تفسير ابن كثير، ج٤، ص٥٢٢.

(2) أخبار مكة للأزرقى: ج١، ص٩٧.

جهاده هذا الطاغية حق مقدس فى عنقه، إلا أن أبرهة هزمهم وأسر نفيل بن حبيب، فلما هم أبرهة بقتله قال له نفيل: (لا تقتلنى أيها الملك فإنى دليلك بأرض العرب) فعفا عنه أبرهة واستصحبه معه ليدلّه على الطريق فى بلاد الحجاز. وروى المؤرخون والمفسرون- أيضًا- عن نفيل هذا شيئًا عجيبًا، وهو أن الأحباش لما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل حتى قام إلى جنبه، ثم أخذ بأذنه، وقال: ابرك محمود- وهذا اسم الفيل- وارجع راشدا من حيث جئت، فإنك فى بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل، وخرج ابن حبيب يشتد حتى أصعد فى الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، وكان ما كان من أمر هلاكهم. ولما فاجأتهم تلك الغارات الجوية الإلهية أخذوا- من شدة الهول والفزع- يسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق إلى اليمن. هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وفى ذلك قال نفيل بن حبيب أيضًا:

ألا حييت عنا يا ردينا نعمناكم مع الإصباح عينا

رُدَينة لو رأيت فلا تريه لدى جنب المحصَّب ما رأينا

إذن لعذرتنى وحمدت أمرى ولم تأس على ما فات بينا

حمدت الله إذا أبصرتُ طيرا وخِفْتُ حجارة تلقى علينا

وكل القوم يسأل عن نفيل كأنّ علىّ للحبشان دينا[1].

كذلك روى المؤرخون والمفسرون شعرًا قاله عبد المطلب جد الرسول فى هذه الحادثة فقد راح يقول وهو آخذ بحلقة باب الكعبة، ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرون على أبرهة وجنده:

لا هم إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم أبدا محالك
إن كنت تاركهم وكعبتنا ... فأمر ما بدالك
فلئن فعلت فإنه ... أمر يتم به فعالك
اسمع بأرجس ما أرا ... دوا العدْوَ وانتهكوا حلالك
جروا جميع بلادهم ... والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم ... جهلا وما رقبوا جلالك[1]

ولما أهلك الله أبرهة وجيشه، وحمى بيته من غدر الأحباش أدرك أبو قيس ابن الأسلت القيمة الكبرى لهذه النعمة التى أنعم الله بها عليهم، فقام يدعو العرب لشكر الله على هذه النعمة:

قوموا فصلوا ربكم وتعوذوا ... بأركان هذ البيت بين الأخاشب
فعندكمو منه بلاء مصدق ... غداة أبى يكسوم هادى الكتائب
فلما أجازوا بطن نعمان ردهم ... جنود الإله بين ساف وحاصب
فولوا سراعا نادمين ولم يؤب ... إلى أهله م الجيش غير عصائب[2]

فكل هذه النماذج التى اخترتها من الشعر الجاهلى الذى قيل فى حادثة الفيل تؤكد وقوع هذه الحادثة، وصدق ما جاء فى القرآن الكريم عنها، فضلاً عن أنها تنفى ما ذهب إليه أحد النقاد القدامى من قلة الشعر الحجازى فى العصر الجاهلى، لعدم الحروب والملاحم[3] .

«وإذا كان الشعر الجاهلى قد سجل حادثة الفيل، فمن السهل جدًا أن يرمى بالانتحال لدى هؤلاء الذين يتشككون حيث يحلو لهم التشكك إذ يجدونه

---

[1] راجع: تفسير ابن كثير، ج٤، ص٥٥٠ وقصة الأدب فى الحجاز، ٥٠٦.

[2] راجع: الحيوان للجاحظ، ج٧، ص١٩٧.

[3] راجع: طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى، ص٢١.

سهل المؤونة يسير التسطير، وقد قالوا فيما يأفكون به: إن الأشعار التى قيلت فى حادثة الفيل نظمت تأييدًا للإسلام، وهنا موضع العجب حقًا، لأن الإسلام لم يعتمد فى انتشاره على حادث الفيل، وقد كان الوثنيون يرونه مدعاة فخر لأصنامهم، إذ يزعمون لها من القدرة ما أحبطت به كيد أبرهة، فهو- إذن- أحد مفاخر الجاهلية التى جاء الإسلام ليعفى على خوارق أصنامها الموهومة! فكيف ينظم المسلمون بعد الإسلام شعرًا يؤيدون به حادث الفيل ليكون تقوية لدينهم الجديد؟! وقد كان الحادث قبل البعثة النبوية»[1] وفى العام الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم، حيث ذكر المؤرخون أن أصحاب الفيل جاءوا إلى مكة فى المحرم، ثم ولد النبى بعد ذلك بخمسين يومًا[2] .

صحيح أن هناك أشعارًا نظمت بعد الإسلام، وتضمنت إشارات أو حديثا عن واقعة أصحاب الفيل مثل قول عبد الله بن قيس الرقيات يذكر أبرهة- وهو الأشرم- ويذكر الفيل:

كاده الاشرم الذى جاء بالفيـــ ل، فــولّى وجيشـــه مهـزوم

واستهلت عليهم الطير بالجنـ دل حـــتـــى كـــأنه مرجـــوم

ذلك من يغزه مـن الناس يـــر جع، وهو فل من الجيوش ذميم[3]

ومثل قول الفرزدق يمدح سليمان بن عبد الملك بن مروان، ويهجو الحجاج بن يوسف الثقفى، ويذكر أصحاب الفيل وجيشهم:

فلما طغى الحجاج حين طغه به غنى قال: أنى مرتق فى السلالم

فكان كما ال ابن نوح: سأرتقى إلى جبل من خشـــية الماء عاصم

---

[1] قضايا إسلامية: ص١٨٢، ١٨٣.

[2] راجع: السيرة النبوية لابن هشام، ج١، هامش، ص١٦٥.

[3] السابق، ص٦٢.

رمى ا لله فى جثمان مثل ما رمى — عن القبلة البيضاء ذات المحارم

جنودا تسوق الفيل حتى أعادهم — هباء، وكانوا مطرخمى الطراخم

نصرت كنصر البيت إذ ساق فيله — إليه عظيم المشركين الأعاجم[1]

لكن هذه الأشعار ونحوها لم تنظم من أجل تلك الغاية التى يزعمها المستشرقون، بل كانت من مظاهر تأثر الشعراء المسلمين بالأحداث التاريخية الماضية التى قصها القرآن الكريم، أو من ملامح استعانة الشعراء العرب بالقصص القرآنى فى توضيح ما يتحدثون عنه فى أشعارهم.

لقد ركب المستشرق (كانياتى) رأسه مندفعًا إلى ذلك الشطط الغريب الذى رأيناه من أجل غاية حقيرة هى تكذيب حادثة حقيقية قصها القرآن الكريم، ومن هنا رأينا ذلك الادعاء الكاذب بأن الحملة الحبشية كانت موجهة إلى بلاد فارس لا إلى البيت بمكة، والادعاء بأن المسيحيين فى صنعاء كانوا قليلين بحيث لا يحتاجون إلى كنيسة يشيدها أبرهة الحبشى، ويحاول أن يعارض بها البيت الحرام بمكة ليصرف العرب عن الحج إليه!

وفات على هذا المشترق الجاهل أن فى القرآن الكريم دليلاً من أقوى الدلائل على أن الحملة الحبشية كانت موجهة إلى الكعبة فى مكة، فقد جاء فى المصحف الشريف بعد سورة الفيل مباشرة سورة قريش التى يقول الحق فيها: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾. «وهذه السورة تبدو امتدادًا لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها. وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة، والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة قريش تسع سور، ولكن

---

[1] السابق: ص ص٦١، ٦٢.

ترتيبهما فى المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب»[1] ويوضح فى الوقت ذاته أنهما أشبه ما تكونان بالسورة الواحدة، ولاسيما أن سورة قريش تبدأ بقوله تعالى (لإيلاف) وهو جار ومجرورلابد له من فعل يسبقه ويتعلق به، فإذا ما نظرنا إلى آخر سورة الفيل نجد الحق سبحانه يقول عن أصحاب الفيل: (فجعلهم كعصف مأكول) وهذا يفيد أن الله فعل ما فعل بأصحاب الفيل لإيلاف قريش، فإن الحق سبحانه لو ترك بيته الذى فى مكة لما كان يريده الأحباش من هدم هذا البيت لسقطت مهابة قريش فى الجزيرة العربية، فإن وجودهم بجوار هذا البيت وخدمتهم لحجاجه من العرب هو الذى ربى لهم هذه المهابة، وجعل القبائل لا تجترىء على تجارة قريش ورحلتها الشتوية إلى اليمن، والصيفية إلى الشام. ومن هنا أرشد الحق سبحانه قريشًا إلى شكر نعمته عليهم حين حبس عن مكة الفيل، وأهلك أهله فقال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

على أن هناك مظهرًا إعجازيًا آخر يلفت النظر فى هاتين السورتين، فقد فصل بين نزولهما تسع سور كما سبقت الإشارة، وفى الوقت ذاته نجد سورة الفيل مكونة من خمس آيات وسورة قريش من أربع آيات.. أى تتكون السورتان معًا من تسع آيات، فهل أدرك المستشرقون مثل هذا التوافق العددى المعجز؟!

هذا وقد أشار الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى إلى أن الحق لا يعدم أنصاره أبدا «فقد نهض من ذوى الاستشراق أنفسهم من أجهد نفسه مخلصًا فى البحث والتمحيص، حتى عثر على نص ذكره المؤرخ اليونانى الكبير (بركوب) عن تعرض الأحباش للبلاد الحجازية بتأثير الروم، وكان فى العثور على هذا النص ما يجب أن يقضى على لجاجة المرجفين، بحيث يخفون رءوسهم من حلبة هذا النقاش، لأنهم بنوا أفكارهم على خلو المصادر اليونانية من ذكر الحادث، وها هو ذا بركوب مؤرخ اليونان الأشهر قد سجل الحادث المشتهر!»[2] .

---

[1] فى ظلال القرآن، المجلد السادس، ص٣٩٨٣.

[2] قضايا إسلامية: ج١، ص١٧٩.

وتسجيل المؤرخ اليونانى الكبير لحادثة الفيل يدحض ادعاء المستشرق كانياتى بأن رحلة أبرهة إلى الحجاز لم تكن تهدف إلى هدم الكعبة؛ بل كان الهدف منها أن تقطع صحراء الجزيرة العربية الممتدة، حتى تصل إلى فارس عن طريق العراق لتعاون الدولة الرومانية فى حرب الدولة الفارسية!

ومهما استمر أعداء الإسلام من المستشرقين ونحوهم على تكذيب الحقائق الواردة فى القصص القرآنى فلن ينالوا منه شيئًا أبدًا، لأن القصص القرآنى كلام الله الحق الصادق، ومصدر أساسى للتاريخ القديم تصادقه الحفريات التى أجراها علماء الآثار، وما يكتشفه العلم الحديث فى كل يوم من آفاق جديدة تضىء الطريق إلى الله تبارك وتعالى، وتؤكد حقائق القرآن الكريم، وتشكف زيف ما يدعيه هؤلاء الأعداء الذين يخالفون التحقيق العلمى فى صميمه وهم يزعمون أنهم يستندون إلى العلم لتمحيص تلك الأخبار، وذلك القصص الدينى، فأخطأوا بإنكارهم لذلك فى حق العلم وحق الدين معًا.

لقد انكر بعضهم- كما أشار الدكتور الجغرافى عبد العليم خضر- قصة قوم لوط الواردة فى القرآن الكريم، وزعموا أنها خرافة لا طائل لها، وزعم آخرون منهم أنها قصة رمزية ترمى إلى العظة والذكرى، فليست من التاريخ فى شىء![1].

أنكروا هذه القصة الحقة الواردة فى القرآن الكريم، فلم يمض وقت حتى أثبتت الحفريات التى أجريت أن تلك القصة حقيقية بكل تفاصيلها، وتوصلت إلى اكتشاف مواقع القرى الخمس[2] التى كان يقيم بها قوم لوط ودمرها الله تعالى عليهم. وكان المكتشف لذلك كله هو الدكتور (أولبرايت) الذى قام بمباحث واسعة النطاق فى وادى الأردن وعلى سواحل البحر الميت وهما الموضعان اللذان كان يظن أن قرى قوم لوط كانت فيها. وانتهى البحث إلى أن القصة ليست

---

[1] راجع: المنهج الإيمانى للدراسات الكونية فى القرآ، الكريم، ص١٨٧.

[2] قرية سدوم (وهى العظمى)، وصعبة، وصعود، وغمرة أو عمورية، ودرحا.

خرافة، ولا أسطورة رمزية تهدف إلى العبرة والذكرى؛ بل هى تاريخية بكل تفاصيلها وأبعادها. وهكذا كشفت الحفريات عن صدق ما ورد فى القرآن الكريم، ومطابقة ما صوره قصصه العظيم لوقائع التاريخ. وكان هذا الاكتشاف- بحق- قنبلة فجرها الدكتور أولبرايت فى مجال البحث العلمى الأثرى، وقلب الحسابات والمقاييس رأسًا على عقب حين نشر نتاج كشوفه على الملأ[1] .

كذلك أنكروا- كما يقول الأستاذ العقاد: «قصة الطوفان والسفينة، فوجد العلماء الحفريون هذه القصة مكتوبة على حجارة قديمة من آثار وادى النهرين، وجدوها منقولة متواترة على الألسنة والآثار بين أقوام كثيرين من أمم المشرق والمغرب. وأنكروا قصة سيل العرم وقصة أبرهة الحبشى وهلاك جيشه، فلم يمض زمن حتى وجدوا آثار السد، ووجدوا عليها اسم أبرهة ملقبا بالأمير: (التابع لملك الحبشة وسبأ وريدان، وحضر موت واليمامه وعرب الوعر والسهل) ووجدوا خبر الجدرى الذى أهلك جيشه مكتوبًا فى تاريخ بروكوب مؤرخًا بالزمن الذى ابتدأ بعام الفيل. وأنكروا قصة عاد وثمود، وظنوا أن هذه القبائل لم يكن لها وجود تاريخى، لأنها لم تذكر فى أخبار العهد القديم، فتبين لهم من مراجعة المؤرخين الأقدمين أنها مذكورة فى تاريخ بطليموس، وأن عاد إرم هى عاد راميت اليونانية وأن أخبارها محفورة على آثار هيكل مدين التى عثر عليها المؤرخ التشيكى موزيل»[2] .

وأنكروا ما قرره القرآن الكريم فى المشاهد القصصية التى صورت سيدنا عيسى من أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وزعموا أنه ابن الله- تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا- فظهر القس النصرانى (بابك) الذى نشرت صورته مجلة (تايم) الأمريكية على غلافها[3] مع بحث مطول عنوانه (انقلاب

---

[1] للوقوف على تفاصيل أكثر: راجع: السابق، ص٢٠٩ وما بعدها.

[2] الإسلام دعوة عالمية، ص٢٢٢، ٢٢٣.

[3] كان ذلك فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩٦٦م.

أو ثورة)، وفيه أعلن هذا القس أن السيد المسيح نبى وليس إلهًا ولا ابن الله، معتمدًا فى إعلان هذه الحقيقة على تلك الوثائق التى ظهرت فى كهف بالمملكة الأردنية الهاشمية يقال له: (كهف قمران)، حينما عثر أحد البدر فى هذا الكهف على جرار حجرية غريبة تشتمل على مخطوطات دينية تثبت أن المسيح نبى وليس إلهًا أو ابن الله. وكان هذا الاكتشاف قنبلة عصرية أذهلت العالم النصرانى بأسره، فأسرعت الجامعات الغربية والفاتيكان بإرسال بعثات للحصول على هذه المخطوطات أو أجزاء منها، وقد أجريت فحوص دقيقة من قبل مؤتمر للمستشرقين عقد فى باريس أثبتت أن جميع المخطوطات المكتشفة وثائق تاريخية حقيقية لا زيف فيها ولا تلاعب، وأنها كتبت بأيدي كتبة فى دير (الأسينيين) الذى مازالت أطلاله بادية للعيان إلى يومنا هذا على مقربة من الكهف الذى اكتشفت فيه المخطوطات. ولم يكتف القس بابك بإعلان أن سيدنا عيسى نبى الله ورسوله وليس إلهًا ولا ابن الإله، وإنما توجه بعد ذلك إلى كهف قمران، وظل به ينقب ويدرس، ويفتش ويبحث حتى قضى نحبه منذ سنوات مضت فنشرت زوجته كتابًا عنه يصور هذه التجربة بكل تفاصيلها وأبعادها[1] .

وكان بعضهم ينكر قول الله تعالى عن فرعون موسى (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) معللين هذا الإنكار بأن فرعون موسى قد غرق فى البحر الأحمر بنص التوراة والقرآن معًا. وكانوا يزعمون أن ذلك شاهد على اشتمال القرآن الكريم على الأخطاء التاريخية، وعلى التناقض الواضح الصريح، إذ يذكر أن فرعون هذا قد غرق، ثم يذكر مرة أخرى أنه قد نجا من الغرق.

وتناسى هؤلاء المنكرون أن الإنسان روح وبدن، وأن القرآن الكريم لم يقل فحسب (فاليوم ننجيك)؛ بل قال: (ننجيك ببدنك)، وأن الغرض من إنجاء فرعون

---

[1] راجع: مؤلفات فى الميزان لأنور الجندى، ص١٢٨، ١٢٩ (منشورات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة، مع مجلة منار الإسلام العدد الخامس، السنة الحادية عشرة).

ببدنه بعد أن خرجت روحه فى قاع البحر هو أن يكون آية يتعظ بها ويعتبر من يجيئون بعده من أجيال. وقد أوضح ابن كثير- نقلاً عن ابن عباس وغيره من السلف: «أن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سويًا بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه ولهذا قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أى نرفعك على نشز من الأرض (ببدنك) قال مجاهد: بجسدك، وقال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقال عبد الله بن شداد: سويا صحيحا أى لم يتمزق ليحققوه ويعرفوه، وقال أبو صخر: بدرعك. وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها[1] فالآية والعظة فى هذا البدن الذى مات غرقا وبقى ملقى على الأرض، وأول الآية: (حتى إذا أدركه الغرق قال: آمنت...)، كما كشفت الأبحاث التى أجريت على مومياء فرعون الموجودة بالمتحف المصرى وجود كسور ورضوض فى مناطق كثيرة من جسمه دلت على أنه مات غريقًا"[2] وقد عثر على هذه المومياء فى قبر (امنحتب الثانى) بالأقصر، وتبين من دراستها أن فرعون موسى هو (مرمفتاح) المشتهر باسم (منفتاح) وهو ابن رمسيس الثانى وخليفته. وقوى ذلك عثور العلامة (فلندرس بترى) على لوحة كبيرة من الجرانيت القاتم منقوش على أحد وجهيها بالكتابة الهيروغليفية إشارات إلى قصة خروج بنى إسرائيل من مصر فى عهد مرمفتاح بن رمسيس الثانى. وهذه اللوحة الحجرية توجد الآن فى دار الآثار المصرية بالقاهرة تحت رقم ٥٩٩. وقد ظهر من آثار قبر مرمفتاح أنه لم يكن مهيأ كما يجب لدفن ملك مثله، لأن موته فى البحر الأحمر لم يكن أمرًا متوقعًا للمصريين، فلم يهيئوا له قبرًا خاصًا[3] .

فالنص التاريخى الهيروغليفى الموجود فى دار الآثار المصرية شاهد مادى

---

[1] تفسير القرآن الكريم العظيم: ج٢، ص٤٣١.

[2] السابق، ص١٣٠.

[3] راجع: قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار، ص ص٢٤٠، ٢٤١.

على صدق القرآن الكريم فيما قالة عن غرق فرعون وإخراج جثته، وهو حين يضاف إلى النص القرآني الذي سبق ذكره يجعل مجرد الشك في حقيقة فرعون موسى أمرًا لا يعتد به. ولاسيما أن المكتشفين لمومياء هذا الفرعون قد لاحظوا أن جثته هي الوحيدة التي انفردت بين جثث الفراعنة جميعًا بوجود طبقة ملحية تكسو بعض أجزائها، ولاشك أن وجود هذه الطبقة من الملح قد نشأ عن تشبع جثة فرعون بماء البحر الملح الذي غرق فيه، ثم بعد العثور على الجثة وضعت في مواد التحنيط، وأهمها (النطرون) ومعلوم كيمائيا أن عنصر (الصوديوم) من مركبات ملح الطعام، وأنه يوجد كذلك في النطرون، فلما وضعت الجثة المشبعة بماء البحر الملح في النطرون- وكلاهما مادة قلوية- طرد أحدهما الآخر، فظهر على الجثة، وكان ذلك هو سر انفرادها بهذه الظاهرة دون باقي جثث الفراعنة. وفضلاً عن سائر ما تقدم فإن المكتشفين لجثة مر مفتاح قد لاحظوا أن أرنبة أنفه مأكولة وغير موجودة، فعللوا ذلك بأن السمك الموجود في البحر الأحمر- حينئذ- أكل ذلك المكان من جسم مرمفتاح، وأنه ألقي إلى الساحل، فأخذه المصريون وحنطوه ودفنوه[1].

وهكذا يتضح للأفاكين من المستشرقين وأمثالهم أن القصص القرآني يخلو تمامًا من الأخطاء التاريخية، وأنه حجة تاريخية لا تقبل الطعن في إثبات ما قص من وقائع تاريخية على الرغم من أن القرآن الكريم كان لا يهدف إلى العرض التاريخي بالمعنى المعروف عند المؤرخين المحدثين، وإنما كان يهدف أولاًوقبل كل شيء: أن يكون عظة وعبرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

لقد كان حريا بهؤلاء الأفاكين أن يتحاشوا ادعاءاتهم الكاذبة، ويظهروا- لو كانوا منصفين للبحث العلمي حقًا- كيف أبان القرآن الكريم وجه الحق فيما دخل على بعض القصص الديني والتاريخي من زيف أو تحريف، سواء في كتب العهدين القديم والجديد أو في كتب التاريخ القديمة، ويوضحوا فيما كتبوه من

---

[1] راجع: دعوة الرسل إلى الله تعالى لمحمد أحمد العدوى، ص١٨١.

حوليات، ودوائر معارف وغيرها ما تضمنه القرآن الكريم من إشارات لا تخلو من أصول علم التاريخ وبذور فلسفته، وغير ذلك مما جاء فيه على أكمل نظام وأتقن ترتيب.

لقد كان حريا بهم- مثلاً- أن يوضحوا للناس دقة القرآن الكريم وإعجازه التاريخي في استخدام الألفاظ، على نحو ما فعل إمام العصر الشيخ محمد متولى الشعراوى حين أوضح أن القرآن الكريم عندما تكلم على رأس الدولة فى أيام سيدنا يوسف- عليه السلام- عبر عنه بلفظ الملك: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾[1] ، و لم يقل الحق سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي﴾ على الرغم من أنه عبر عن رأس الدولة فى قصة سيدنا موسى عليه السلام بلفظ (فرعون). وظل سر هذا التعبير مجهولاً، حتى الوقت الذى اكتشف فيه حجر رشيد، فتبين من الوقوف على لغة المصريين القدماء أن فترة وجود سيدنا يوسف عليه السلام فى مصر هى فترة ملوك الرعاة أى الهكسوس الذين غزوا مصر، وأخذوا الملك من المصريين وحكموهم، وصاروا ملوكا، وكان عصرهم يسمى بعصر (الملوك) ومن هنا قال القرآن: (وقال الملك ائتونى به) (وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان...إلخ) و لم يُأْتَ فى قصة يوسف- على طولها- بذكر للفظ (فرعون). وعندما جاء الفراعنة واستردوا ملكهم، وطردوا ملوك الرعاة، استبد الفراعنة بمن كانوا يخدمون الملوك وهم بنو إسرائيل، وكان عصرهم يسمى بعصر (الفراعنة)، ولذلك عبر القرآن الكريم عن حاكم مصر فى أيام سيدنا موسى بلفظ فرعون.. أى باللفظ الذى كان يطلق على الحاكم فى هذه الأيام، فقال القرآن الكريم- مثلا-:﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ..إلخ﴾[2] فكان استمرار

[1] سورة يوسف: ٥٤.

[2] سورة الزخرف: ٥١.

سر هذا التعبير القرآني مجهولاً حتى اكتشاف حجر رشيد من الأمور التي تحتاج حقًا إلى جهد واستنباط، ثم كان الوقوف على هذا السر بعد اكتشاف الحجر آية تدخل ضمن الآيات التي لا حصر لها في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ الآية ٥٣ من سورة فصلت[1].

لكن جهل المستشرقين بلغة القرآن الكريم، وأسرار التعبير المعجز فيه، جعلهم لا يفطنون لمثل ما فطن إليه إمام العصر الشيخ الشعراوى، وما يفطن إليه علماء المسلمين في جامعة الأزهر الشريف وغيرها، ومن بينهم الأستاذ الكبير الدكتور عبد الفتاح الدماصى الذى أشرف على هذا البحث وأفادني بتوجيهاته القيمة وآرائه السديدة وعلمه الغزير ودقته الفائقة في رسم المنهج العلمي الذى قام عليه هذا البحث.

إن جهل المستشرقين بلغة القرآن الكريم وأسرار التعبير المعجز فيه هو نفسه الذى جعل المستشرق الدكتور (سنت كلاير تسدل) يدعى- كذبا وافتراء- أن هناك خطأ من أخطاء التاريخ في الآية القرآنية التي تقول: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ معللا ذلك بأن أحدًا من اليهود لم يقل: إن مريم أخت موسى وهارون بقيت على قيد الحياة إلى أيام المسيح.. إلى آخر ما زعمه هذا المستشرق وغيره ممن سبق ذكرهم! أولئك الذين وهموا- خطأ- أن القرآن الكريم يقصد بمريم أم عيسى مريم أخت موسى وهارون!!

والواقع أن وصف مريم أم عيسى عليه السلام بأخت هارون في الآية الكريمة، من القضايا القرآنية التي تولاها المفسرون بالشرح والإيضاح الذى يثبت

---

[1] راجع: خواطر الشيخ الشعراوى حول القرآن الكريم باللواء الإسلامي العدد ٢٥٠ السنة الخامسة، ص١٣، ١٤.

صحة التحقيق التاريخي فـي القـرآن الكريـم وقصصـه المعجـز. وإذا كـان الدكتـور تسدال قد زعم أن المفسرين المسلمين لم يجدوا لتفسير هذه القضية سـبيلاً، فهـا نحـن نورد نماذج مما قاله مكثرهم ومقلهم.. قديمهم وحديثهم فى هذا المجال:

١-قال الإمام الزمخشرى ما نصه: «يا أخت هارون: كان أخاها من أبيها مـن أمثـل بنى إسرائيل. وقيل: هو أخو موسى- صلوات الله عليهما- وعن النبى- صلـى الله عليه وسلم- إنما عنوا هارون النبى، وكـانت مـن أعقابـه فـى طبقـة الإخـوة وبينها وبينه ألف سنة وأكثر. وعن السدى: كـانت مـن أولاده، وإنمـا قيـل: يـا أخت هارون، كما يقال: يا أخا همدان: أى يا أحدا منهم. وقيل: رجل صـالح أو طالح فى زمانها شبهوها به: أى كنت عندنا مثله فى الصلاح، أو شتموها بـه و لم يريدوا أخوة النسب. ذكر أن هارون الصالح تبع جنازته أربعون ألفا كلهـم يسمى هارون تبركا به وباسمه، فقالوا: كنا نشبهك بهارون هذا[١].

٢-وقال أبو حيان: «... وهارون شقيقها أو أخوها من أمها. وكان من أمثل بنـى إسرائيل أو هارون أخو موسـى إذ كـانت مـن نسـله. أو رجـل صـالح مـن بنـى إسرائيل شبهت به.. أقوال. والأولى أنه أخوها الأقرب»[٢] .

٣-وقال القاضى عبد الجبار: « وربما قيل فى قوله تعالى: (يا أخت هارون): كيـف يصح أن يقال لها ذلك وبينها وبين هارون أخى موسى الزمن الطويل؟ وجوابنـا: أنه ليس فى الظاهر أنه هارون الذى هو أخـو موسى؛ بـل كـان لهـا أخ يسـمى بذلك، وإثبات الاسم واللقب لا يدل على أن المسمى واحد، وقـد قيـل: كـانت من ولد هارون، كما يقال للرجل من قريش: يا أخا قريش»[٣] .

٤- وقـال الدكتـور حسـن بـاجودة: «الـذى يبـدو- والله أعلـم- هـو أن هــارون أخوها- كما رجح أبو حيان- وخير دليل على ذلك هو: أن الكلام بعد ذلـك

---

[١] الكشاف: ج٢، ص٥٠٨.

[٢] البحر المحيط: ج٦، ص١٨٦.

[٣] تنزيه القرآن عن المطاعن، ص٢٤٧.

عرض لأبى مريم وأمها. فكأن القوم اللائمين للبتول، العارفين عائلتها معرفة تامة، قد تعرضوا لأقرب هؤلاء الأهل منها: أخيها وأمها وأبيها»[1] .

٥- وقال الشيخ أبو الأعلى المودودى: "قد يكون لقوله: (يا أخت هارون) معنيان:

الأول: أن يؤخذ على معناه الظاهرى، فيفهم منه: أن مريم كان لها أخ اسمه هارون.

والثانى: أن يؤخذ على أنه تعبير عربى بمعنى: يا أيتها المرأة التى من بيت هارون أو نسله، وهذا شائع عند العرب، فإنهم يقولون للمضرى: يا أخا مضر، وللتميمى: يا أخا تميم.

ودليل ترجيح المعنى الأول: أن هناك ما أثر عن النبى نفسه- صلى الله عليه وسلم فى هذا المعنى.

والدليل على المعنى الثانى: أن الموقف يقتضى ذلك، لأن الضجة التى ثارت فى القوم آنذاك يظهر بالطبع أن السبب فيها هو أن أختا بكرا لرجل مجهول اسمه هارون، أتت قومها تحمل مولودًا بين يديها، بل إن الأمر الذى جعل الناس يجتمعون حول السيدة مريم لا يمكن أن يكون شيئًا آخر سوى رؤيتهم فتاة بكرا من آل هارون- أقدس بيوت بنى إسرائيل- على هذا الحال..."[2] .

٦- ويرى أحد علماء الأزهر الفضلاء: أن هارون الوارد على لسان القوم ليس هو هارون أخا موسى عليهما السلام. واستدل على ذلك بثلاثة أدلة من منطوق القوم أنفسهم: (يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا):

الدليل الأول: أنه لو كان هارون هذا هو هارون أخو موسى لقالوا: يا أخت موسى، فهو أشرف وأرفع، والإضافة إليه أبلغ فى التقريع الذين يريدون.

---

[1] تأملات فى سورة مريم: ص٦٩.

[2] تفسير سورة مريم للمودودى: ص٢١

والدليل الثانى: أنهم لم يذكروا أباها ولا أمها باسميهما، كما ذكروا هارون.

أما الدليل الثالث: أنهم لم يقولوا: ما كان أخوك المعروف الذى سبقت الإضافة إليه. فكل هذه الأدلة توضح- فى رأى العالم الأزهرى المشار إليه- أن هارون الوارد فى الآية ليس أخا موسى عليه السلام[1] .

إن هذه النماذج الستة التى سبق ذكرها تغنى عن عشرات الأمثلة فى دحض ادعاء الدكتور تسدال بأن المفسرين المسلمين قد عجزوا عن تفسير (يا أخت هارون) و لم يجدوا لحلها سبيلا، وتثبت فى الوقت نفسه خلو الآية الكريمة من الخطأ التاريخى.

وإذا كان لابد من أن ألقى بدلوى فى هذه المسألة، فإننى أميل إلى أن كلمة أخت فى اللغة العربية لا تعنى الأخوة فى النسب فحسب، وإنما تستعمل أيضًا بمعنى الشبيه والمماثل. وهناك أمثلة عديدة من التاريخ تثبت أن كلمة أخ وأخت لا تعنى فحسب أبناء الأب الواحد ولا الأم الواحدة، فقد روى ابن هشام- مثلاً- فى قصة (عداس النصرانى) مع الرسول عليه الصلاة والسلام أن الرسول قال لعداس: «من أهل أى البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصرانى وأنا رجل من أهل نينوى. فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : ذاك أخى كان نبيا وأنا نبى...»[2] ولا ريب أن الرسول عليه السلام كان يعرف أنه لم يكن له أخوة، ولكنه أخوه فى النبوة مع ما بينهما من فارق الزمن البعيد. وأورد ابن كثير- أيضًا- حديثًا جاء فى الصحيحين لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- نختار منه قوله- عليه السلام- عن سيدنا إبراهيم: «.. وبينا هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلا، فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل ههنا رجل

---

[1] راجع: بحوث فى قصص القرآن للسيد عبد الحافظ عبد ربه- ص٢٣٢.

[2] السيرة النبوية: ج٢- ص٢٢، ٢٣.

بأرضك معه امرأة أحسن الناس. فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: أختى. قال: فاذهب فأرسل بها إلىّ، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى عنده فإنك أختى فى كتاب الله، وإنه ليس فى الأرض مسلم غيرى وغيرك..»[1] .

وقد كانت مريم أم المسيح معروفة بورعها وتقواها، وهى الأنثى الوحيدة التى وصفها القرآن الكريم بأن الله تعالى تقبلها بقبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنا وكفلها رسول الله زكريا عليه السلام، بل كانت منذورة للسدانة وخدمة البيت المقدس منذ كانت حملا فى بطن أمها امرأة عمران الذى هو- بالطبع- غير عمران أبى موسى وهارون. وقد شاهد زكريا لها مشاهد راعته، وعرف قومها عنها ورعها وتقواها، فشبهوها بهارون عليه السلام يريدون أنها من سلالة طاهرة: أبواها طيبان طاهران، وهى- فى ورعها وتقواها ومنزلتها عند الله- تشبه هارون النبى عليه السلام. ولعل تشبيههم إياها بهارون دون موسى عليه السلام كان راجعًا لأن هارون فى نظر بنى إسرائيل هو صاحب الزعامة الدينية، أما موسى فهو فى نظرهم قائد من كبار قوادهم، وزعيم سياسى تحدى فرعون وخلصهم منه، فلذلك شبهوها بهارون دون موسى عليهما السلام.

وقريب من هذا التشبيه ما يروى من أن سيدنا الحسين بن على رضى الله عنهما كان فى لسانه رتة، فقال الرسول عليه السلام: ورثها من عمه موسى[2] . مشيرًا بذلك إلى ما جاء على لسان موسى فى القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ طه: ٢٥- ٢٨ ولا يستطيع عاقل أن يدعى أن عمومة موسى للحسين عمومة نسب، اللهم إلا إذا كان من أمثال الدكتور تسدال وأمثاله من المستشرقين الجهلاء!

---

[1] تفسير القرآن العظيم، ج٣٠ ص١٨٣.

[2] راجع: الكشاف ج٣- ص٥٣٥.

وقريب من هذا التشبيه- أيضًا- ما ورد فى قول الشاعر محمود أبى الوفا يخاطب النخلة:

يا نخلة القاع من قلبى أحييك	**روحى فداك وأهلى فدى أهليك**
رفعت رأسك نحو ا لله مؤمنة	**أن السماء قريب من تساميك**
هذا هو الحسن، لكن ليس يدركه	**إلا الألى أدركوا أسرار واديك**
تهب حولك هوج الريح عاصفة	**وأنت صامدة لا شىء يثنيك**
كأن عنف الليالى أو ضراوتها	**يزيد عودك حسنا أو يقويك**
آمنت أنك أحلى فطرة عرفت	**بين الثمار، ولا حلوى تساويك**
يا أخت مريم حسب النخل تكرمة	**بأن مريم قد جاءت تحاكيك**
لم تلق مريم فى عيسى ومولده	**أحلى البشائر إلا تهانيك**[1]

فنجد أن الشاعر قد شبه النخلة بأنها أخت مريم، وأن هذه الأخوة التى صنعها ين مريم والنخلة قد استمدها ونسج خيوطها من قول ا لله تعالى مخاطبا مريم- على لسان جبريل أو عيسى-: «وهزى إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنبا»، فقد ورد على خاطر هذا الشاعر- كما يقول-:

«أن ا لله- جل جلاله- ما اختار لمريم هذه الشجرة بالذات إلا لينبه الأذهان لما بين مريم العذراء والنخلة من المشابهة والمحاكاة فى طريقة الحمل، فكأنه سبحانه يقول لمريم: هزى النخلة ليتساقط منها دليل براءتك وبرهان طهارتك، وكأنه يقول للمنكرين من قومها: ما لكم تجحدون أمر ا لله فى مريم وأنتم تشهدون النخلة بأعينكم، وها هو ذا ثمرها بين أيديكم؟! والأمر فى مريم أيسر منه فى النخلة: فالأولى من لحم ودم، والثانية من الطبيعة الصماء.. وأيضًا قد أثبت الطب: أن البلح من أصلح أنواع التغذية للنفساء»[2].

---

[1] ديوانه الجامع: ص ٣٣٤- ٣٣٦.

[2] السابق: هامش ص٣٣٦.

وأضيف إلى ما قاله الشاعر: «أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون»، وقد أورد ابن كثير حديثا عن على بن أبى طالب قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم عليه السلام، وليس من الشجر شىء يلقح غيرها»[1] فيبدو- والله أعلم- أن الحق سبحانه أراد أن تتحقق المثلية بين آدم وعيسى حتى فى هذا الأمر، حيث خلقت النخلة من الطين الذى خلق منه آدم، وكانت ولادة عيسى بجوار النخلة، وأكلت مريم من رطبها الجنى بعد أن أجاءها المخاض إلى جذع النخلة. ولا غرو فى هذه المثلية بين آدم وعيسى، فهناك ما هو أعجب من ذلك فقد ورد كل من لفظ عيسى وآدم فى القرآن الكريم خمسا وعشرين مرة، وكأن الحق سبحانه يريد أن يقول لنا: إن مثل عيسى عنده كمثل آدم حتى فى عدد المرات التى ذكر فيها هذان اللفظان فى القرآن الكريم. وراجع ما دتى عيسى وآدم فى المعجم المفهرس لتتأكد من صحة ذلك، وليتضح لك مدى ما فى القرآن الكريم من إعجاز تتعدد صوره، وتتلون حقائقه.. تلك الحقائق التى لم يفطن إليها المستشرقون الجهلاء، فبدلاً من أن يبحثوا عنها ليؤمنوا باتوا ينسجون خيوط الأباطيل، ويدعون أن فى القرآن الكريم وقصصه أخطاء من أخطاء التاريخ، وبلغت بهم السخافة والحماقة والجهل أن جعلوا كتبهم المحرفة التى كتبها الأحبار والرهبان بأيديهم وثائق تاريخية صحيحة تقوم حجة على القرآن الكريم، فكل ما ورد فى القرآن مخالفا لما جاء فى هذه الكتب يزعمون- كذبا وافتراء- أن فيه خطأ من أخطاء التاريخ، ناسين أو بمعنى أدق متناسين أن ما أوحاه الله إلى رسوله محمد- صلى الله عليه وسلم- ونقل إلينا بالتواتر هو الحق وخبره الصادق، وأن ما خالفه هو الباطل، وناقله خاطىء، أو كاذب، فلا يحتج به أو يعده شبهة على القرآن الكريم، فإن حال التاريخ قبل نزول هذا الكتاب الحق الخالد كانت مشتبهة الأعلام، حالكة الظلام،

---

[1] تفسير القرآن العظيم: ج٣، ١١٧، ١١٨.

فلا رواية يوثق بها فى الوقوف على رجال سندها، وقد انتقل العالم بعد نزول القرآن الكريم من حال إلى حال، فكان بداية تاريخ جديد للبشرية كان يتحتم عليها- لو أنصفت- أن تؤرخ به قاطبة، لأنه الكتاب الذى وصفه منزله سبحانه أدق وصف حين قال فيه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ سورة الإسراء: ١٠٥.

وننتقل إلى الرد على ادعاء المستشرق تسدال بأن القرآن الكريم أخطأ تاريخيا حين قرر أن عيسى تكلم فى المهد، وأن هناك مائدة طلب عيسى من ربه أن ينزلها من السماء فتكون عيدا لأول القوم وآخرهم!

والواقع أن كلام سيدنا عيسى ابن مريم فى المهد كان معجزة من بين المعجزات العديدة التى كان لابد منها لإفحام اليهود الذين اتهموا مريم بالفاحشة.. لقد تعددت المعجزات التى تظهر براءتها وبتوليتها فى أمومتها فهناك معجزة الحمل، ومعجزة الولادة الغريبة، ومعجزة الأكل من نخلة يابسة، والشرب من جدول جاف جعله ربها تحتها يفيض بالماء، ثم هناك هذه المعجزة التى ينكرها تسدال وأمثاله.. معجزة نطق الطفل وهو فى المهد.

لقد شاءت إرادة الحق سبحانه وتعالى أن ينطق الغلام وهو ما زال فى المهد طفلا رضيعا- خلافا لكل عادة- رحمة من الله تعالى بمريم العفيفة الطاهرة، وتأكيدًا لبراءتها وخلو ساحتها، ودفعا لألسنة السوء وسياط التقريع عنها. وإن معجزة كلام عيسى وهو ما زال فى المهد طفلا لا تقل فى روعتها وحقيقة وقوعها عن معجزة ميلاده من عذراء ولاسيما أن هذا الطفل الذى ولد من أنثى دون ذكر كان إتمامًا لدورة القدرة الإلهية وطلاقتها فى خلق الإنسان، فآدم خلق بلا ذكر، ولا أنثى، وحواء خلقت من ذكر دون أنثى، وعيسى خلق من أنثى دون ذكر، وسائر البشر خلقوا من ذكر وأنثى فهذه صور أربع لميلاد البشر ووجودهم، وكل صورة منها تناظر أختها فى الدلالة والبرهنة على قدرة الخالق المبدع سبحانه وتعالى، بل إن

خلق الإنسان العادى من ذكر وأنثى لا يقل عظمة عن بقية معجزات الخالق، ولا يغض من شعورنا بإعجازها سوى تكرارها اليومى، فهذه القدرة التى تخلق النطفة وتودعها رحم الأم وتنتقل بها إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ثم لحم يكسوها إلى جنين فى صورة إنسان ذى عقل يفكر، وقلب ينبض، وجوارح تحس وتتحرك.. كل مرحلة من هذه المراحل تتحقق فى المولود الواحد تحققا تعجز الإنسانية كلها عن أن تقوم به.

وإن معجزة كلام عيسى فى المهد لا تقل روعة وعظمة عن ولادة أمه نفسها، ولاسيما أنه كان دعوة حنة بنت فاعود أم مريم وزيادة، فلقد أرادت امرأة عمران المسماة بحنة غلاما ذكرًا ليكون مخصصًا للعبادة والطاعة فى بيت المقدس وخدمة بيت الله، محررا من كل التزام لها نحوه، أو التزام له نحوها فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، لكن الحق سبحانه أراد غير ما أرادت امرأة عمران، فلم يعطها الذكر الذى تمنته، وإنما أعطاها أنثى كان لها شأن عظيم. أعطاها آية أكبر من خدمة بيت المقدس... آية لا تخدم رقعة أرضية تقام فيها لله الشعائر، بل آية للعالمين تخدم عقائد تسير فى الدنيا إلى أن تقوم الساعة.. أورد الحق فى هذه الأنثى التى لم تطلبها من الله امرأة عمران آية لا توجد فى غيرها.... هى ذلك الطفل الوليد الذى تكلم فى المهد، فكان مولده وكلامه من آيات الله الكبرى الدالة على طلاقة القدرة الإلهية. وحينما رأت امرأة عمران أن المولودة قد فاتها- بسبب كونها أنثى- أن تكون فى خدمة بيت الله، تمنت امرأة عمران وتفاءلت أن تكون هذه المولودة طائعة عابدة فسمتها (مريم)، لأن مريم فى لغتهم معناها (العابدة)، فما فات المولودة فى خدمة بيت الله، فليكن فى خدمة عقائدها وخدمة منهجها فى ذاتها. وأرادت امرأة عمران أن تحمى ابنتها (مريم) من نزغ الشيطان، لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصى كلها تأتى من

نزغ الشيطان، فقالت داعية ربها: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، فكان عيسى هو ذرية مريم، وأعاذ الله مريم وابنها الذى تكلم فى المهد من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليهما سبيلا.

ورد بإسناد ابن كثير عن أبى هريرة قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-:

«كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبه حين تلده أمه إلا عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن بالحجاب».

وعن أبى هريرة- أيضًا- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مسه إياه إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)[1].

وكل هذه العجائب وغيرها مما نراه فى ولادة عيسى وولادة أمة نفسها تدل دلالة واضحة على أن العقل يجب أن تكون له وحدة تفسيرية، فما دام العقل يصدق بسائر هذه العجائب والآيات، فحرى به من باب أولى أن يصدق بكلام عيسى فى المهد وهو ما زال طفلا. ولقد دخل عيسى الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب هو ولادته من عذراء؛ بل إنه خرج من الوجود ومن الحياة بأمر عجيب هو رفعه إلى السماء، ثم إنه سيعود إلى الأرض بأمر عجيب حين ينزل فى آخر الزمان، فيكسر الصليب- كما قال الرسول عليه السلام[2]- ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها.

وإن من كانت له كل هذه العجائب والآيات فضلاً عن معجزاته

---

[1] راجع: تفسير القرآن العظيم ج١- ص٣٥٩.

[2] فى حديث شريف رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة.

الأخرى[1] لا عجب أن يتكلم فى المهد، ولا عجب أن تنزل عليه مائدة من السماء.. تلك التى يعدها الدكتور تسدال هى والكلام فى المهد من أخطاء التاريخ فى القرآن!

وإذا كان هذا الأمران لم يرد لهما ذكر فى الأناجيل المحرفة، فإن ذلك لا يعد وثيقة يحتج بها على القرآن الذى هو كلام الله الحق الصادق فى كل ما يقول.

فالحق أن عيسى تكلم فى المهد، ثم عاد إلى حالة الأطفال، ومشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان. ونلحظ أنه حين نطق فى المهد قد وصف نفسه بصفات ثمانية أولها اعترافه بعبوديته لله، وآخرها قوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ وكل هذه الصفات أكبر دليل على تبرئة أمه الطاهرة البتول، كما أن قوله: (والسلام على... إلخ) ذلك الذى جاء معرفًا بالألف واللام "كان تعريضا باللعنة على متهمى مريم عليها السلام بالفاحشة وتحقيقه أن اللام للجنس. فإذا قال: وجنس السلام علىّ خاصة، فقد عرض بأن ضده عليكم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ يعنى أن العذاب على من كذب وتولى وكان المقام مقام مناكرة وعناد فهو مئنة لنحو هذا من التعريض"[2].

لقد تناسى الدكتور تسدال وأمثاله ممن يعدون كلام عيسى فى المهد خطأ تاريخيا فى القرآن:

أن البارى سبحانه قادر على كل شىء، وأن القدرة الإلهية التى رفعت السموات بلا عمد لا تعجز- إطلاقًا- عن إكمال عقل عيسى وتقوية جسمه، وإطلاق لسانه بالكلام وهو ما زال فى المهد، وإن كانت هذه الأمور تحدث فينا-

[1] مثل: إحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص، وخلق الطير من الطين.

[2] الكشاف، ج٢، ص٥٠٨.

عادة- بالتدرج وتستغرق وقتًا طويلا "وإذا كان كذلك وألهمه الله تعالى هذا القول صح أن يقول ما قال، وصح سائر ما وصف به نفسه. أو ليس يوجب قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أنه في هذا الوقت خاصة، لأن الوصية تتقدم وتتأخر"؟[1].

أما دعوى صلب المسيح التي يزعم هذا المستشرق وأمثاله أن القرآن الكريم أخطأ تاريخيا في نفيها حين قال ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾، فهي دعوى باطلة أسهب كتاب المسيحية في سردها موهمين الناس أن عيسى قد صلب وسفك دمه من أجل تخليص البشرية من خطيئة آدم، ونوالهم رضوان الله. وكل هذه أباطيل تناقض كل حق وصدق، وكل عقل ومنطق؛ بل يناقض ما جاء في كتبهم وفي كافة الكتب السماوية والقوانين الوضعية من مسئولية كل إنسان عن فعله، وأن كل نفس بما كسبت رهينة، فكل فرد يحاسب عما اقترفت يداه، والولد لا يؤخذ بخطيئة الوالد، ولا يعاقب أحد على ذنب ارتكبه آخر.

جاء فيما يسمونه الكتاب المقدس ما نصه: «لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء. كل إنسان بخطيئته يقتل»[2].

فهذا النص- مثلا- يدحض افتراءاتهم، وقد اخترته من كتبهم التي يؤمنون بها ليكون مثالاً يغني عن عشرات الأمثلة في الرد عليهم.

ولا أريد أن أرد عليهم بقوله تعالى- وهو الحق-: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ لأنهم يزعمون أن هذا القول من الأخطاء التاريخية في القرآن، وتجاهلوا أن القرآن الكريم حين قال ذلك قد أعلن الحقيقة "التي رفعت قدر عيسى

---

[1] تنزيه القرآن عن المطاعن، ص٢٤٧، ٢٤٨.

[2] سفر التثنية: ص٣٤، الفقرة ١٦.

وردت عنه الشبهات. الحقيقة التى تؤكد أن الله سبحانه لم يرض لرسوله عيسى أن يذبح بأيدى ضالة الشعوب وأنجس الأمم؛ بل لقد هيأ الله له الإعزاز والتكريم، ورد عنه الكيد والأذى، وكف عنه الاعتداء ورفعه إليه، وجعل المصير الدون الذى أرادوه لنبيه هو مصير تلميذه الخائن الذى وشى به عند أعدائه، فرد الله خنجر الخائن إلى صدره، وأغمد نصله فى قلبه، وأماتة الميتة التى أرادها لمعلمه العظيم"[1] .

يحدثنا الحوارى (برنابا) فى إنجيله عن الحقيقة كلها فى وضوح تام فيقول ما يلى: «قال يسوع: اعلم يا برنابا أنه سيبيعنى أحد تلاميذى بثلاثين قطعة من النقود، وأنى على يقين من أن من يبيعنى يقتل باسمى، لأن الله سيعدنى من الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياى..».

ثم يشرح (برنابا) الطريقة التى رفع بها عيسى إلى السماء حينما جاء يهوذا مع الجنود اليهود للقبض عليه فيقول فى وضوح تام كذلك:

«ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع، سمع يسوع دنو جمع غفير، وكان التلاميذ الأحد عشر نياما، فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه فى السماء الثالثة فى صحبة الملائكة التى تسبح الله، ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى أصعد منها يسوع، فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا فى النطق والوجه، فصار شبيها بيسوع، حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع. أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم لذلك تعجبنا وأجبنا: أنت يا سيدى معلمنا، أنسيتنا الآن؟! ودخل الجنود فأخذوا يهوذا وأوثقوه ظانين أنه يسوع».

هذا ما قاله الحوارى (برنابا) فماذا يقول الدكتور تسدال وأمثاله من الأفاكين المستشرقين؟!! وصفوه القول فى سائر ما تقدم: أن المستشرقين قد أخطأوا خطأ جسيما حين زعموا: أن فى القصص القرآنى أخطاء من أخطاء التاريخ، ولو

[1] المسيح إنسان أم إله، ص١٧٤، ١٧٥.

كان هؤلاء الأغبياء المتعصبون لعقائدهم الزائفة قد فهموا أسرار القرآن الكريم حق الفهم لما صدرت منهم هذه الأباطيل التى سبق دحضها والرد عليها بالأسلوب العلمى المستقيم والمنهج الموضوعى المنطقى، والحقائق القرآنية الواضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار.. ذلك أن القرآن الكريم بدون أدنى شك صادق إذا خالف التاريخ، والتاريخ كاذب فى هذه المخالفة، لأن التاريخ- كما نعلم ويعلم كل باحث واع منصف دقيق- يتناقض فيما يروى، وتختلف مصادره، وتتنوع رواياته. أما كتاب الله الحق الخالد فإنه مصدر من المصادر التى لا يختلف العقلاء على تقديرها واحترامها.

ولقد أثبت البحث أن القرآن الكريم ليس مصدرًا للتاريخ الإسلامى فحسب؛ بل هو- أيضًا- مصدر من أعظم المصادر للتاريخ العالمى، إذ نرى القرآن الكريم لا يتحدث فحسب عن تاريخ الماضين من الأنبياء السابقين وأقوامهم منذ خلق آدم إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما يعنى- أيضًا- بأحداث تاريخية لا ترتبط بتاريخ الأنبياء السابقين مثل عنايته بأول حادث قتل فى تاريخ البشرية (المائدة: ٢٧- ٣١) وعنايته بتخريب بختنصر لمملكة إسرائيل (الإسراء: ٢-٨) وقصة سبأ وسيل العرم (سورة سبأ: ١٥- ٢١)، وقصة أهل الكهف، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين، ومثل ما ورد من إشارات عن تاريخ المصريين- فى سياق قصة يوسف- من خلال نشأته فى بيت عزيز مصر وتطور أمره إلى أن أصبح عزيز مصر، ومثل حديثه عن علاقة بنى إسرائيل بالأمم المجاورة كالعمالقة، والصراع بينهم وبين بنى إسرائيل، والذى انتهى بانتصار بنى إسرائيل بقيادة سيدنا داود عليه السلام، حيث هزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت (البقرة: ٢٥١).. كل ذلك ونحوه من أحداث التاريخ قصه القرآن الكريم فى صدق تام وواقعية ليس لها مثيل لتكون عظة وعبرة يتأسى بها الناس فى كل زمان ومكان.

وقد بلغ القرآن الكريم غاية الإعجاز فى إيراد وعرض الأحداث التاريخية، وهناك شواهد عديدة تثبت ذلك، وحسبنا أن نذكر منها فى هذا المقام أنه استقل بمنهج خاص فى عرض الأحداث التاريخية فى وضوح وإبانة تتفق مع وصف القرآن الكريم بالكتاب المبين، ومع وصف آياته بالآيات البينات. ثم نراه من قبل ومن بعد لا يعرض الأحداث التاريخية من خلال ما يسميه المحدثون بالتأريخ (مصدر أرخ) وإنما يعرضها من خلال (القصص)، وهذا يؤكد أن المادة التاريخية التى أوردها القرآن الكريم قد وظفت لهدف أسمى، وغاية أنبل من مجرد العرض التاريخى. وبلغ من روعة القرآن الكريم وإعجازه فى هذا الصدد: أن مادة (أرخ) لم ترد فيه بسائر ما يشتق منها إطلاقًا، بينما وردت مادة (قص) وصور عديدة من مشتقاتها فى العديد من المواضع القرآنية.

ولذلك كله نقرر ونؤكد: أن المستشرقين قد أخطأوا خطأ جسيما حين باتوا يزعمون أن القرآن الكريم يشتمل- فى قصصه- على أخطاء من الأخطاء التاريخية، وكان عليهم أن يدركوا كل الإدراك- لو لم يغمضوا قلوبهم وعيونهم وعقولهم عن الحقائق- أن القرآن الكريم وثيقة تاريخية من أعظم الوثائق، لأنه كلام الله الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وكان حريا بهم بدلاً من أن يزعموا ما زعموا أن يتأملوا كيف أن القرآن الكريم فى قصصه لم يقتصر على عرض لوحات مجردة لماضى البشرية فى صراع قوى الخير والشر، وإنما كان يهدف- كما يقول باحث واع معاصر-: «إلى بعث المثال من التاريخ، واستغلال الأحداث التاريخية فى التربية ومعالجة النزعات النفسية فى الإنسان، وأمراض المجتمع الذى يعيش فيه بما لتلك الأحداث من قوة مفروضة على النفس تحدث فيها انصهارا ووعيا ويقظة إحساس. ومن هنا كان هذا القصص التاريخى أشد تأثيرا وأسمى طموحا من التاريخ، لأنه يمد الإنسان بسلاح الإيمان

والثبات، ويعرفه بما لله من نواميس قارة فى نظام الخلق والإبداع، ومن سنن مطردة فى نظام الأقوام والأمم»[1].

وكان حريا بهؤلاء الأفاكين- أيضًا- أن يتذكروا ما رواه التاريخ الذى يتحدثون عنه من أن جعفر بن أبى طالب- رضى الله عنه- لما قرأ على النجاشى ملك الحبشة- وكان نصرانيا حينئذ- سورة مريم صاح النجاشى هذا قائلاً (لا تفاوت بين واقعة عيسى وبين المذكور فى هذا الكلام)[2].

وخلاصة الخلاصة التى نخرج بها من هذا الفصل: أن القصص القرآنى يخلو تمام الخلو من سائر ما زعمه المستشرقون، فليس فيه إطلاقًا مثقال ذرة من أخطاء التاريخ.

---

[1] سيكلوجية القصة فى القرآن: ص٢٢٤.

[2] راجع: تفسير الفخر الرازى: ج٧، ص٥٥، ٥٦.

الفصل الثالث

دعوى اشتمال القرآن الكريم على القصص الأدبى الأسطورى

(مناقشات وردود)

قرأت للشاعر الصوفى الراحل محمود رمزى نظيم المكنى بأبى الوفا قصيدة رائعة عنوانها : "تجلى الهلال" ذكر فيها -من بين ما ذكر- أن القرآن العظيم ينتظم القصص الحق الذى يكشف فيه الأستار عن الأمم البائدة وما كان لها من حضارة وازدهار، وهذه إحدى معجزاته.

وكفى بالكتاب معجزة كبرى	**تضىء القلوب والأبصارا**
قصص السابقين فيه توالى	**كاشفًا للمحقق الأستارا**
عن قرون عاشت وبادت وكانت	**تملأ الأرض زينة وازدهارا**
زعموا أنه خيال فضلوا	**وأضلوا وسمموا الأفكارا**
هل نسيتم بأنه (القصص الحق)	**وأن الكتاب ليس يُمارَى**
قاتل الله من تعامى عن النو	**ر ومَن كان فاجرًا كفارا[1]**

ويلفت النظر -فى الأبيات السابقة- ما أشار إليه الشاعر من أن هناك جماعة من الناس قد ضلوا وأضلوا وسمموا الأفكار بادعائهم أن القصص القرآنى الحق من قبيل الخيال.

وما أشار إليه الشاعر ليس تصويرًا شعريًا من بنات الخيال؛ بل هو أمر قد حدث، وفعلٌ قد حصل فى القديم حينما كان يتنزل القرآن الكريم على الرسول -صلى الله عليه وسلم- وفى العصر الحديث بعد نزول القرآن الكريم بألف وأربعمائة عام تقريبًا ... وكان حامل لواء هذا الأمر -قديمًا- هم المشركون من قريش. وكان حامل اللواء -حديثًا- بعض النقاد والدارسين المحدثين العاملين فى حقل الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة.

فنحن إذ نقرأ القرآن الكريم نجده يقص علينا أن من مشركى العرب فى عصر صدر الإسلام من كان يستمع إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهو يقرأ

---

[1] ديوانه، ص ٢٠.

القرآن الكريم، وأنهم كانوا إن رأوا كل آية لا يؤمنوا بها، حتى إذا جاءوا النبى -صلى الله عليه وسلم- يقولون : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1].

ونرى القرآن الكريم فى موضع ثان يقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣١، ٣٢).

ويقول فى موضع ثالث : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (سورة النحل : ٢٤).

ويقول فى موضع رابع : ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون : ٨٣).

ويقول فى موضع خامس : ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان: ٥،٦).

ويقول فى موضع سادس: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (النمل : ٦٧، ٦٨).

ويقول فى موضع سابع : ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأحقاف : ١٧).

---

[1] راجع : سورة الأنعام، الآية ٢٥.

ويقول فى موضع ثامن : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (سورة القلم : ١٠ - ١٥).

وأخيرًا يقول فى موضع تاسع : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (سورة المطففين : ١٠ - ١٣).

هذه هى جملة المواطن القرآنية[1] التى ورد فيها ما جاء على لسان المشركين -قديمًا- من وصف القرآن أو قصصه أو البعث بأنه أساطير الأولين. وقد نقلها بأكملها الدكتور محمد أحمد خلف الله فى كتابه "الفن القصصى فى القرآن الكريم"[2] للاستدلال بها على أن القرآن الكريم «لم يحرص على أن ينفى عن نفسه وجود الأساطير فيه، وإنما حرص -فقط- على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هى الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام، وليس من عند الله»[3] وكان الدكتور خلف الله قد ساق هذه الآيات الكريمة بين يدى ادعائه بأن القرآن الكريم يتضمن القصص الأدبى الأسطورى، شأنه فى ذلك شأن ما نراه من قصص يقوم على الأسطورة أحيانًا فى نتاج الأدباء من كتاب القصة الفنية! وأن اشتمال القرآن الكريم على القصة الأسطورية لا يقدح فى حقه، ولا يوقع القائل بذلك فى حرج «لأنّا فى ذلك لا نقول قولاً يعارض نصًا من نصوص القرآن»![4] بل إن القصص

---

[1] ذكرت سائر الآيات القرآنية التى تناولت هذه المسألة للحاجة إليها فى عرض الدعوى، ثم الرد عليها. كما سنرى فى الصفحات التالية إن شاء الله.

[2] راجع : ص ١٧٢، ١٧٣.

[3] ص ١٧٥.

[4] ص ١٧٧.

الأسطورى هذا يفسر -فى مزاعم الدكتور خلف الله- «جانبًا من جوانب الإعجاز فى القرآن الكريم، فقد وضع تقليدًا جديدًا فى الحياة الأدبية العربية، وهو بناء القصص الدينى على بعض الأساطير، وهو بذلك قد جعل القصة الأسطورية لونًا من ألوان الأدب الرفيع»![1] فاشتمال القرآن الكريم على قصص أدبى أسطورى «يعتبر تجديدًا فى الحياة الأدبية المكية، وتجديدًا جاء به القرآن الكريم، وتجديدًا لم يألفه القوم ومن هنا أنكروه»![2] .

وكان الدكتور خلف الله قد رفض الالتزام بمفهوم القصة فى القرآن الكريم ... ذلك المفهوم القائم على الصدق والواقعية والبعد عن الخيال[3] ، والذى التزم به كل من اللغويين والمفسرين عند شرحهم وإيضاحهم معنى "القصة" ومعنى "القصص" .. رفض الدكتور خلف الله -كما قلت- الالتزام بهذا المفهوم، وراح يلهث وراء ذلك التعريف الذى يمكن أن نخرج به من كلام الأدباء والنقاد المحدثين عن القصة، وهى أنها : ذلك العمل الأدبى الذى يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له، أو لبطل له وجود ولكن الأحداث التى دارت حوله فى القصة لم تقع، أو وقعت للبطل ولكنها نظمت فى القصة على أساس فنى بلاغى فقدم بعضها وأخر آخر، وذكر بعضها وحذف آخر، أو أضيف إلى الواقع بعض لم يقع، أو بولغ فى التصوير إلى الحد الذى يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون من الحقائق العادية والمألوفة ويجعلها عن الأشخاص الخياليين.

ومن هنا كان الدكتور خلف الله من الدارسين المحدثين الذين يحلو لهم -أحيانًا- تطبيق المناهج النقدية الحديثة، والتعريف الفنى للقصة على قصص القرآن الكريم، واهمين أنهم بهذا الصنيع قد يكونون من المجددين فى الأدب الإسلامى، أو المجتهدين فى تفسير القصص القرآنى تفسيرًا جديدًا لم يسبق إليه أحد من الناس!

---

[1] ص ١٧٩.

[2] ص ١٧٩.

[3] لمزيد من المعرفة عن مفهوم القصة القرآنية : انظر كتابنا (أدب القصة فى القرآن الكريم).

انخدع الدكتور خلف الله بلفظة "قصة" في موضوع القصص القرآني، فأخذها بمعايير النقد الأدبي للقصة بما فيها من تلفيقات الوهم والخيال، وأحيانًا الخرافات والأساطير، ومن ثم فإنه وقع في خطأ فادح أدى به إلى الزعم تارة بأن القرآن الكريم يسوق بعض قصصه حبًا في الإثارة الفنية التي من ورائها العبرة والعظة، لأن القصص القرآني فن، والفن في صميمه حرية، ولا حرية مع إلزام والتزام، والقرآن أحيانًا يعرض الشخصيات التاريخية، وقصص المرسلين عرضًا فنيًا يقوم على ما كان يعتقده المخاطبون حين نزول هذا القصص في صدر الإسلام، ثم هو تارة ثالثة يأتي بقصص قائم على الأساطير .. وكل ذلك في نظر الدكتور خلف الله لا يقدح في القرآن الكريم، ولا يعيبه، لأنه تجديد في الحياة الأدبية المكية لم يكن القوم يألفونه قبل نزول القرآن الكريم !

ولم يقف الدكتور خلف الله عند هذا الحد، وإنما دعا إلى فتح باب القول بالأسطورة في القرآن الكريم على مصراعيه، فاستمع إلى جهالته الجهلاء بحقيقة القصص القرآني وضلالته العمياء عن الحق الذي ينبغي أن يذكر وهو يقول في هذا الصدد ما نصه : «يجب أن نحرص على فتح هذا الباب، ولا نوصده في وجه الذين يقولون بوجود الأساطير في القرآن الكريم، وإنما يجب أن نفسره التفسير الذي اهتدى إليه الرازي، ووقف عنده الأستاذ الإمام محمد عبده ولم ينكره على نفسه القرآن الكريم»[1].

أتدري ما هو التفسير الذي اهتدى إليه الرازي، ووقف عنده الشيخ الإمام محمد عبده ؟

لقد اعتمد الدكتور خلف الله على فهمه الغريب للآيات القرآنية السابقة، وعلى نقطتين رئيسيتين فتحتا أمامه بابًا كان مغلقًا في هذا اللون من القصص الأسطوري الذي يدعي وجوده في القرآن الكريم .. إحداهما جاءت على لسان الفخر الرازي، والأخرى على لسان الشيخ محمد عبده :

---

[1] ص ١٧٩.

فقد جاء على لسان الفخر الرازى عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ (سورة يونس : ٣٩) «أنهم كلما سمعوا شيئًا من القصص قالوا : ليس فى هذا الكتاب إلا أساطير الأولين، و لم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية؛ بل أمور أخرى مغايرة لها»[١] .

وجاء على لسان الشيخ محمد عبده عند تفسيره لقصة "هاروت وماروت" من سورة البقرة : «أن القصص جاءت فى القرآن لأجل الموعظة والاعتبار، لا لبيان التاريخ، ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين، وإنه ليحكى عن عقائدهم الحق والباطل، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب، ومن عاداتهم النافع والضار، لأجل الموعظة والاعتبار. فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة، ولا تتجاوز مواطن الهداية، ولابد أن يأتى فى العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح. وقد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وإن لم تكن صحيحة فى نفسها كقوله ﴿كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ وكقوله : ﴿بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ وهذا الأسلوب مألوف فإننا نرى كثيرًا من كتاب العربية وكتاب الإفرنج يذكرون آلهة الخير والشر فى خطبهم ومقالاتهم، لاسيما كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء، ولا يعتقد أحد منهم شيئًا من تلك الخرافات الوثنية»[٢] .

نقل الدكتور خلف الله هذين النصين بعد أن اعتقد أن فيهما ما يشير إلى مثل ما يدعيه من اشتمال القرآن الكريم على القصص الأدبى الأسطورى، فراح يزعم أنهما يدلان على «أن بعض المفسرين من أصحاب اللمحات قد فتح الباب، وأجاز القول بوجود القصة الأسطورية فى القرآن، وأصل لذلك أصولاً مهمة لهذه

---

[١] تفسير الفخر الرازى، ج ٤، ص ٩٥١، وراجع : الفن القصصى، ص ١٧٠.

[٢] تفسير المنار، ج ١، ص ٣٩٩، وراجع الفن القصصى، ص ١٧١.

الفكرة»[1]، وقال الدكتور خلف الله : «لا ننكر أن المفسرين الكبيرين قالا هذا، وقد فتحا الباب أمامنا، لكنهما وقف عند هذا الحد، و لم يضعا بين أيدينا قصة واحدة ليشرحاها الشرح الأدبى الذى يسمح لنا بأن نجعلها فاتحة الحديث عن القصة الأسطورية، ونمضى على هدى منه. إن كل ما صنعاه أنهما جعلا جسم القصة أو هيكل الحكاية غير مقصود من القرآن، وأنه لو كان أسطورة من الأساطير، فإن ذلك لا يقدح فى حق القرآن الكريم، لأنه ليس من مقاصده، وليس من الأمور التى عنى بشرحها وتفصيلها»[2] .

ومن العجيب أن الدكتور خلف الله -ذاته- لم يضع بين أيدينا نحن قصة واحدة ليشرحها الشرح الأدبىّ الذى يؤكد ادعاءه بأن القرآن الكريم يشتمل على قصص أدبى أسطورى .. لم يفعلّ الدكتور خلف الله هذا، اللهم إلا قوله : «إذا ما قال المشركون : إن بالقرآن أساطير قلنا : ليس عليه فى ذلك بأس، وإنما البأس عليكم لأنكم قد عجزتم عن فهم مقاصده، وقعدتم عن المضى معه فى هذا السبيل. وإذا ما قال المستشرقون : إن بعض القصص القرآنى كقصة أصحاب الكهف أو قصة موسى (مع الغبد الصالح) فى سورة الكهف قد بنيت على بعض الأساطير، قلنا: ليس فى ذلك على القرآن من بأس فإنما هذه السبيل سبيل الآداب العالمية والأديان الكبرى، ويكفينا فخرًا أن كتابنا الكريم قد سن السنن وقعد القواعد، وسبق غيره فى هذه الميادين، ومن هنا يجب ألا يزعجنا أن يثبت عالم من العلماء أو أديب من الأدباء أن بالقرآن أساطير، ذلك لأن هذ الإثبات لن يعارض نصًا من نصوص القرآن الكريم»[3] !

ونحن إذ نتأمل النص الذى نقلناه له آنفًا يتأكد لنا -بما لا يدع مجالاً للشك- أن الدكتور خلف الله كان فى ادعائه اشتمال القرآن الكريم على القصص

---

[1] الفن القصصى، ص ١٧١.

[2] ص ١٧١، ١٧٢.

[3] ص ١٨٠.

الأدبي الأسطوري، سائرًا في ركاب بعض المستشرقين الطاعنين على القرآن الكريم وقصصه العظيم، فقد ادعى واحد منهم مثلاً، وهو الدكتور سنت كلاير تسدال : أن سيدنا محمدًا قد استمد كثيرًا من أساطير وخرافات جهلة النصارى وآرائهم ومذاهبهم الفاسدة الكاسدة، وأدخلها في قرآنه مثل "قصة أصحاب الكهف" التي هي -كما يدعي هذا المستشرق وأمثاله- خرافة من خرافات اليونان وردت في كتاب لاتيني اسمه "مجد الشهداء" من تأليف كاتب اسمه "غريغوريوس"، وأنها -أيضًا- خرافة من الخرافات العجائزية التي تقصها وتحكيها العجائز للأطفال لتسليتهم وانشراحهم كحكاية (القط والفأر)، وحكاية (حسين الكردي)، وحكاية (الغول) وغير ذلك، ولكن سيدنا محمد اتخذها وأوردها في قرآنه، وعلمها لصحابته كأنها حكاية حقيقية [1] !!

سار الدكتور خلف الله في ركاب المستشرقين حين زعموا ذلك، فراح يدعي اشتمال القرآن الكريم على القصص الأدبي الأسطوري، ويكتب صفحات عديدة في كتابه "الفن القصصي في القرآن الكريم" عن هذا الضرب من القصص، وينسب إلى الدكتور محمد إقبال أنه كان يذهب إلى أن قصة آدم وخروجه من الجنة قصة أسطورية، لا صلة لها بظهور الإنسان الأول على الكوكب الأرضي[2] ، وينسب تارة أخرى إلى بعض المفسرين أنهما يقفان من قصتي العزير، وطيور إبراهيم الأربعة موقفًا يدل على أنهما أحاديث خرافة ومن الأقاصيص التي لم تقع و لم تحدث[3] !

ويستعرض صاحب "الفن القصصي" المواضع التسعة التي وردت فيها عبارة "أساطير الأولين" والتي سبق ذكرها ويرى فيها رؤى غريبة يخلص منها إلى أن

---

[1] راجع : مصادر الإسلام، ص ١٠٢ - ١٠٤.

[2] راجع : ١٨١،١٨٤.

[3] راجع : ص ١٧٨.

الشبهة عند الذين وصفوا القرآن الكريم بهذه الصفة كانت شبهة قوية جارفة، تقوم على أساس يطمئنون إليه، وأنهم لم يصفوا القرآن وقصصه بأنه أساطير الأولين إلا حينما وجدوا فيهما ما يبرر وصفهما بذلك، بل يخلص الدكتور خلف الله من استعراضه العجيب ورؤاه الغريبة المستنكرة إلى أن وصف المشركين للقرآن الكريم بهذا الوصف لم يكن من الأخطاء التى ملكت عليهم نفوسهم، وإنما ذلك شيء من حال القرآن الذى لم يحرص على نفى الأساطير عنه جعلهم يقولون ذلك، فقد اكتفى بتهديدهم فى آيات سورتى الأنعام والمطففين على إنكارهم ليوم البعث، وصدهم الناس عن اتباع النبى، و لم يهددهم على قولهم بأن الأساطير قد وردت فى القرآن الكريم اللهم إلا مرة واحدة هى تلك التى وردت فى سورة الفرقان، ومع ذلك فإن هذه المرة الوحيدة لم تنفِ وجود الأساطير فى القرآن، وإنما تنفى أن تكون هذه الأساطير من عند محمد يكتتبُها وتملى عليه، وتثبت أن هذه الأساطير أنزلها الذى يعلم السر فى السموات والأرض[1] !!

وينتهى الدكتور خلف الله من سائر ما سبق عرضه من مزاعم إلى أن المشركين لم يقولوا كذبًا وادعاءً حين وصفوا القرآن الكريم بأنه أساطير الأولين، وإنما قالوا قولاً لا يعارضه نص من نصوص القرآن الكريم، وقد صدروا فيه عن عقيدة قوية ثابتة، وتخيل يستبعد أن يصدر مثل هذا القصص الأسطورى من عند الله، فكان مدار الحوار بين القرآن والمشركين عن اتخاذهم ورود الأساطير دليلاً على أن القرآن من عند سيدنا محمد لم يجئه به الوحى، و لم ينزل عليه من السماء، و لم يكن هذ الحوار -أبدًا- عن اشتمال القرآن الكريم على الأساطير[2] !

ثم اختتم الدكتور خلف الله مزاعمه بقوله : «إن المسألة أوضح من أن نختلف عليها بعد الآن ... القصة الأسطورية إذن من القصص الأدبى الذى نجد من المفسرين من أجاز أن يكون موجودًا فى القرآن الكريم»[3] !

---

(1) راجع : ص ١٧٢ - ١٧٧.

(2) راجع : ص ١٧٧.

(3) ص ١٨٠.

هذا تلخيص يكاد يكون شاملاً لدعوى الدكتور خلف الله ومن سار فى ركابهم من المستشرقين بأن القرآن الكريم يحتوى على قصص أدبى أسطورى.

ومن الغريب أننى رأيت أستاذًا جامعيًا له منزلته العلمية فى الأوساط الجامعية وحقل الدراسات الأدبية والنقدية ينخدع بهذه الأباطيل، فيدعى هو الآخر الأبطولة ذاتها ويقول بالحرف الواحد فى صدد حديثه عن ألوان القصة فى القرآن الكريم ما يلى :

«القصة الأسطورية : وهى تخالف كلا اللونين السابقين -يقصد القصة التاريخية والقصة التمثيلية- ليست أحداثًا تاريخية واقعية تناولها القرآن ورتبها ترتيبًا يحقق الغاية من إيرادها، وليس قصصًا تمثيليًا أحداثه مفروضة أو متخيلة، وإنما هى قصة أسطورية بأكملها، وهو اسم ينفر منه بعض العلماء، وأجازه آخرون»[1] !

وليس خافيًا أن سكوت الأستاذ الجامعى المشار إليه عن دحض هذه الأبطولة يدل دلالة قوية على أنه لا ينفر منها، وإنما يجيز اشتمال القرآن الكريم على القصص الأدبى الأسطورى، فإن السكوت علامة الرضا كما يقول المثل المعروف.

كذلك رأيت أستاذًا جامعيًا آخر يدعى الأبطولة ذاتها فى كتاب له[2] قد ضمنه العديد من المقولات المليئة بالمغالطات والأباطيل وسائر طرق الجدال بالباطل لدحض قضية الحق ومحاربته جهارًا نهارًا، وكان هذا الأستاذ -ويدعى الدكتور صادق جلال العظم- متسترًا فى كل هذا بعبارات التقدم العلمى والصناعى، والمناهج العلمية الحديثة، فلا يقدم من الأدلة إلا قوله -مثلاً- : إن العلم يرفض هذا، أو لا يسلم بها، أو يثبت هذا، دون أن يقدم لنا مناقشة علمية مفيدة تتحرى الحقيقة، وتبحث عنها، وتلتزم بها، وكان من غريب ما صنع أنه -وهو الأستاذ الجامعى العربى المسلم- قد جارى المستشرقين -أيضًا- فادعى أن قصة إبليس الواردة فى القرآن من الأساطير الدينية، مثلها كمثل الأساطير الخيالية التى تنتهى

---

[1] القصة القصيرة : دراسات ومختارات للدكتور الطاهر أحمد مكى، ص ٢٢.

[2] بعنوان "نقد الفكر الدينى"، ومؤلفه أستاذ فى الجامعة الأمريكية ببيروت.

بمأساة دراميـة، لأن شـخصية إبليـس شـخصية ميثولوجيـة أبدعتهـا ملكـة الإنسـان الخرافية، وطورها وضخمها خياله الخصب، ثـم احتواهـا القـرآن الكريـم، وكذلـك قصة سيدنا إبراهيم، وأمر الله له بذبح إسماعيل مأساة درامية أسطورية وأيضًا يدعى أن قصة ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام من النماذج القرآنية الدالة فـى وضـوح تـام على اشتمال القرآن على القصص الأسطورى، فهى مأساة أسطورية .. وهكذا.

ولكن أعظم بطـل ذى قصـة مأسـاوية فـى نظـره هـو إبليـس، لأنـه تحـدى الموقف المأساوى ببطولة.

ولقد حرص العظم على ترديد دعوى اشتمال القرآن الكريم على القصـص الخرافى الأسطورى فى مواضع عديدة من كتابه الذى يعد -بدون شك- نموذجًا من التضليل المراد، القائم على المغالطات والمماحكات، والأباطيل والتخرصات، وتزيـين وجه الباطل الإلحادى، الذى حمل لواء مناصرته والتبشير به، فهو يقول -على سـبيل المثال- ما يلى :

«يشدد القائلون بالتوافق التام بـين الإسـلام والعلـم علـى أن الإسـلام ديـن خالٍ من الخرافات والأساطير، باعتبار أنه هو والعلم واحد فى النهاية. لنمحص هذا الادعاء التوفيقى بشىء من الدقة بإحالته إلى مسألة محـددة تمامًـا. جـاء فـى القـرآن -مثلاً- : أن الله خلق آدم من طين، ثـم أمـر الملائكـة بالسـجود لـه، فسـجدوا إلا إبليس، مما دعا الله إلى طرده من الجنة. هـل تشـكل هـذه القصـة أسـطورة أم لا ؟ نريد جوابًا محددًا وحاسمًا من الموفقين، وليـس خطابـة. هـل يفـترض فـى المسـلم أن يعتقد فى النصف الثانى من القرن العشرين بأن مثل هــذه الحادثـة وقعـت فعـلاً فـى تاريخ الكون ؟ إن كانت هذه القصة القرآنية صادقة صدقًا تامًا، وتنطبق علـى واقـع الكون وتاريخه، فلابد مـن القـول : إنهـا تتنـاقض تناقضًـا صريحًـا مـع كـل معارفنـا العلمية، ولا مهرب -عندئذ- من الاستنتاج بأن العلم الحديث على ضلال فـى هـذه

القضية. وإن لم تنطبق القصة القرآنية على الواقع، فماذا تكون -إذن- فى نظر الموفقين إن لم تكن أسطورة جميلة ؟»[1]!!

ويقول فى موضع آخر : «... أريد أن يتضح للجميع بأن بحثى يدور فى إطار معين، لا يجوز الابتعاد عنه على الإطلاق، ألا وهو إطار التفكير الميثولوجى الدينى الناتج عن خيال الإنسان الأسطورى وملكاته الخرافية. إننى لا أريد معالجة قصة إبليس باعتبارها موضوعًا يدخل نطاق الإيمان الدينى الصرف، ولا أريد أن أتكلم عنه باعتباره كائنًا موجودًا حقيقيًا، وإنما أريد دراسة شخصيته باعتبارها شخصية ميثولوجية أبدعتها ملكة الإنسان الخرافية، وطورها وضخمها خياله الخصب»[2]!

واستمع إليه إذ يقول أيضًا :

«هل يفترض فى المسلم فى هذا العصر أن يعتقد بوجود كائنات مثل : الجن، والملائكة، وإبليس، وهاروت وماروت، ويأجوج، ومأجوج، وجودًا حقيقيًا غير مرئى، باعتبارها مذكورة كلها فى القرآن، أم يحق له أن يعتبرها كائنات أسطورية، مثلها مثل آلهة اليونان وعروس البحر، والغول والعنقاء ؟ يا حبذا لو عالج الموفقون بين الإسلام والعلم مثل هذه القضايا المحددة، وأعطونا رأيهم فيها بصراحة ووضوح، بدلاً من الخطابة حول الانسجام الكامل بين العلم والإسلام»[3] !

وعلى هذا النحو الكاذب حرص هذا الدكتور الملحد على التشكيك فى حقائق القصص القرآنى، ووصفها بالخرافة والأسطورة، حتى إنه زعم أن المعجزات الربانية التى أجراها الله على أيدى رسله من قبيل الأساطير، وأن حديث القرآن الكريم عن هذه المعجزات حديث يرفضه العلم، وأن العلماء الماديين لا يرتاحون من

---

[1] ص ٣٦.

[2] ص ٨٣.

[3] ص ٣٦.

وجهة نظرهم إلى الآيات القرآنية التى تقص علينا : كيف شق موسى البحر بعصاه، وكيف تحولت النار فجأة إلى برد وسلام على إبراهيم، ونحو ذلك من المعجزات الربانية!

وبلغ من حرص الكاتب على نفى المعجزات التى وقعت للأنبياء أنه لم يذكر ذلك مرة واحدة، بل أثار هذه المسألة فى مواضع متفرقة عديدة من كتابه الذى يتحتم على المسئولين مصادرته فورًا، ومحاكمة صاحبه على ما جاء فيه من سموم استشراقية، وأباطيل تبشيرية، تحاول علنًا الطعن على قصص القرآن الكريم.

لقد ارتدى هذا الكاتب قناع العلمانية، والبحث العلمى المتقدم، واستغل بالباطل كل ثقل التقدم العلمى المادى فى الصناعة والتكنولوجيا، محاولاً بذلك أن يدعم تيار الإلحاد والكفر با لله، وامتد قلمه الدنس إلى القصص القرآنى المعجز، فراح يثير هذه التساؤلات الكاذبة، وتلك التخرصات المتهافتة، بعد أن أنكر وجود ا لله، وأبطل الشرائع السماوية كلها، وأنكر القرآن الكريم وصحة نسبته إلى ا لله سبحانه وتعالى، تحت شعار "البحث العلمى الحر" وما شابهه من تلك الشعارات التى يرددها الملحدون، ثم يدلفون منها إلى محاولة الطعن على القرآن الكريم، ووصف ما جاء فيه من قصص حق، وحوادث تاريخية جرت فى تاريخ الكون بأنه من باب الأساطير .. كبرت كلمة تخرج من أفواههم الدنسة إن يقولون إلا كذبًا.

ومما لا شك فيه أن ما ادعاه الدكتور خلف ا لله والدكتور تسدال ومن جرى مجراهم إنما هو باطل الأباطيل ووهم الواهمين، وخرافات المخرفين، لأنه لا يعقل -إطلاقًا- أن يحمل القرآن الكريم الذى هو كلام ا لله هذا الباطل، وذلك الضلال على أنه نوع من قصصه، وآى من آياته، وبضعة منه ينصبها فى مقام العبرة والعظة. ولا يعقل -كذلك- أن يصف ا لله القرآن الكريم بالصدق المطلق وأن يقسم به فى مقام التشريف والتقدير، وهو يحمل فى كيانه خرافات وأساطير ؟!

ولو كان الدكتور خلف ا لله أورد ما ذكره من مزاعم على أنها آراء

اجتهادية استقامت له من النظر فى مواد القصص القرآنى، لوصفناه -حينئذ- بأنه باحث أخطأ فى اجتهاده، لكن الدكتور خلف الله -كما رأينا- لم يصنع ذلك، وإنما ادعى أن فى القرآن الكريم قصصًا أدبيًا أسطوريًا، وراح -بعد ذلك- يحاول جاهدًا أن يستدعى لدعواه أدلة من القرآن الكريم نفسه، وينطق شهودًا من أئمة التفسير المسلمين، فكان هذا الصنيع منه عدوانًا على القرآن الكريم، وجرأة فى الادعاء عليه، وإضافة أقوال إلى من لم يقل بها، فهو -إذن- ليس مجرد باحث أخطأ فى اجتهاده؛ بل معتد أثيم تجاهل أن القصص القرآنى كلام الله، وأن كلام الله لا يحمل باطلاً، ولا يتلبس به، ولا يقيم الباطل إلى جواره، بل إنه يلقى الباطل دائمًا بما يطمس وجهه، ويسود وجه المتعاملين به.

وتجاهل -أيضًا- أن محاولة فرض مقاييس القصة الفنية على القصص القرآنى محاولة غير سديدة وغير جائزة، لأن القصص القرآنى شىء، والقصص الفنية شىء آخر، فهذه لا تتقيد بالحقائق التاريخية، فلكاتب القصة الفنية مطلق الحرية فى استلهام الخيال والأساطير، وله أن يثير اهتمام قارئه بما يشاء، وبما يملكه من قدرات أدبية على التحليق فى الخيال، أو استدعاء الحوادث الأسطورية، أو غير ذلك، فلا بأس عليه إذا لم يتقيد فيما يكتبه بالحقائق والوقائع الثابتة، ولا بأس عليه إذا أسند إلى الشخصيات التاريخية كلامًا لم تقله، أو أفعالاً لم تفعلها؛ بل لكاتب القصة الفنية أن يتخيل بطلاً خياليًا يسند إليه أحداثًا تاريخية لم تحدث منه، و لم تصدر عنه .. كل ذلك وغيره من ظواهر الحرية الفنية جائز فى القصص الفنية. أما القصة فى القرآن الكريم، فإنها حقيقة ليست من الخيال والأساطير، ولا الخيال والأساطير منها. فكل ما ورد فى القرآن الكريم من قصص إنما هو حقائق لا مراء فيها، وصدق لا يستطيع خلف الله ولا العظم ولا غيرهما من الناس قاطبة أن يجد فيه مطعنًا، لأن القرآن الكريم كتاب أنزله الله بالحق، وبالحق نزل، ولأن القرآن الكريم لو اتسع لأية شبهة من شبهات الباطل لانسحب ذلك على سائر ما يحمل من العقيدة والشريعة ولما كان هناك مفهوم صحيح سوىّ لنزوله بالحق والصدق.

ومادام القرآن الكريم كتابًا أنزله الله بالحق، وبالحق نزل، فإنه بهذه السمة يتنافى هو والمعنى المعروف للأساطير وخصائصها، فهما ضدان لا يمكن اجتماعهما بحال من الأحوال فى القرآن الكريم، فإن الأسطورة «حكاية تعيش منذ القدم فى تقاليد قبيلة أو جنس أو أمة، يتوارثها خلف عن سلف، وتدور حول الآلهة وأنصاف الآلهة والأحداث الخارقة .. والأسطورة تنتمى إلى أشكال الحضارة القديمة، وترجع إلى مرحلة سابقة على العلم والفلسفة، فهى تفسر بمنطق العقل البدائى ظواهر الكون والطبيعة والإنسان»[1]. ومن الأمثلة على ذلك :

١-أسطورة "برسيفون" التى تفسر تعاقب الفصول، فتروى هذه الأسطورة الكلاسيكية أن "برسيفون" بنت "دميتر" إلهة القمح، قد اختطفها الإله "هاديس" ونزل بها إلى العالم السفلى، ولكنه سمح لها بالعودة كل عام لتقيم مع أمها "دميتر" ستة أشهر، فاختلف الطقس على مدار السنة، وحدث تعاقب الفصول لهذا السبب.

٢-أسطورة "بروميثيوس" التى تفسر اكتشاف الإنسان للنار، فتروى هذه الأسطورة أن "بروميثيوس" قد سرق سر النـاس من الآلهة، وأتى به إلى العالم الأرضى، فعرف الإنسان النار وسر اشتعالها.

٣-أسطورة "إيزيس وأوزوريس" المصرية القديمة التى تفسر فيضان نهر النيل بفيض الدموع التى ذرفتها "إيزيس" حزنًا على قتل "أوزوريس"، وتفسر امتياز بعض الأراضى المصرية على غيرها فى الخصب ووفرة الإنتاج الزراعى والحيوانى بأن "ست" الشرير حين غدر بأخيه الخيِّر "أوزوريس" قطعه إربًا إربًا، فأخصب ذلك أرض مصر، ولكنه أخصب -بصفة خاصة- المنطقة التى دفن فيها عضو تذكيره[2] .

---

[1] الكاتب العربى والأسطورة، ص ٥.

[2] راجع : السابق، ص ٥،٦.

ومن هذه الأمثلة يتضح لنا : أن الإنسان فى العصور القديمة، ولاسيما عند المصريين القدماء والإغريق والبابليين والآشوريين والهنود، كان يستخدم الأساطير لكى يفسر بها مظاهر الطبيعة التى يغلب عليها الغموض، والمشاكل العديدة التى كانت تواجهه، فالأساطير ليست إلا تراثًا بشريًا يحمل تفسيرًا خاصًا لمعنى أو شعور بالذات عند شعب من الشعوب.

كذلك يتضح لنا أن الأسطورة لا تقوم على أى مظهر من مظاهر الحق الذى نجده فى كل جزئية من جزئيات القرآن الكريم، وإنما الأسطورة فى أصلها وملامحها وخصائصها «خرافة اخترعها خيال الإنسان لتفسير العلاقة التى تربطه بالوجود، وتعليل ما يجرى فيه من بعض الظواهر التى عجز عقله عن معرفة أسبابها الحقيقية، فانساق مع الأوهام. لذلك كان أكثر الأساطير مما يثير العجب والدهشة، لأن الأحداث فيها لا تسير سيرها الطبيعى وفق سنن الكون، ولكن تسيرها قوة جبارة خفية تصنع الخوارق، وتهيئ الظروف الملائمة لتمضى بها لا فى المسلك الطبيعى، بل فى المسلك الذى رسمه القاص إلى النهاية، ويشبه الأساطير من بعض الوجوه ذلك القصص الدينى الذى لم يقتصر فيه الرواة والمفسرون على ما أوردته الكتب المقدسة، بل جعلوا منه على مر العصور مرتعًا لتصوراتهم ومسرحًا لتخيلاتهم. والخرافيون هم آفة الأخبار وآفة الأديان فى كل زمان. والناس يروقهم أن يجعلوا من الاستثناء قاعدة، ومن الشذوذ قانونًا. وهنا الطامة التى تعصف بالدين والعلم معًا. فكم من قصص دينى لو صح لما تماسك للكون نظام ولا بقيت لقانون السببية حرمة»[1]!

فمن هذا النوع -مثلاً- ما يرويه الكسائى فى كتابه الشهير "قصص الأنبياء" من أن سيدنا يوسف -عليه السلام- قال لإخوته حين دخلوا عليه يكتالون

---

[1] سيكولوجية القصة فى القرآن، ص ١٥٩، ١٦٠، وراجع : ركائز الإيمان بين العقل والقلب للشيخ محمد الغزالى، ص ٣١٧.

وهم لا يعرفونـه : «يـا أولاد يعقـوب! إن مـن العجـب أن يـأكل الذئـب أخـاكم، وفيكم من يصيح بالأسد فيخر ميتًا، وفيكم من يأخذ برجل الذئب فيشـقه نصفـين، وفيكم من إذا صاح وضعت الحامل ما فـى بطنهـا، وفيكـم مـن يقلـع الشـجرة مـن أصلها، وفيكم من يعدو مع الفرس فيسبقها. قالوا : نعم أيها العزيز! وفينا من يفعل أكثر من ذلك، لكن إذا جاء القضاء عمى البصر، وضعفت القوة»[1] .

وواضح أن القرآن الكريم لم يأتِ بصفـة واحـدة مـن هـذه الصفـات التـى كادت تبرز إخوة يوسف أولاد يعقوب خلقًا غريبًا، أو من جنس يختلـف عـن سـائر الجنس البشرى، ولكنها مبالغات الرواة، وأخيلتهم الخصبة المحلقة القادرة على توليـد الصورة الأسطورية.

ومن هذا النوع -أيضًا- ما يرويه "الخـازن" فـى تفسـيره مـن أن «يـأجوج أمة، ومأجوج أمة، وكل أمة أربعة آلاف أمةَ! ولا يموت الرجـل منهـم حتـى يـرى من صلبه ألف رجل قد حمل السلاح! وهم ثلاثة أصناف : صنـف منهـم مثـل الأرز -شجر بالشام طوله عشـرون ومائـة ذراع- وصنـف منهـم عرضـه وطولـه سـواء : عشرون ومائة ذراع، وهو لا يقوم له جبل ولا حديد! وصنف منهم يفترش أحدهـم أذنه، ويلتحف بالأخرى ولا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلـوه .. ومنهـم من طوله شبر»[2] !

ولا شك أن هذه العوالم التى خلقها الخازن، وأخرجها علـى الصـورة التـى يراهـا، كلها عوالم من مواليد الخيـالات، والأوهـام، بـل هـى مثـل واضـح للإغـراب والتحطيب الأسطورى الذى يتخذ من الكلمة القرآنية منطلقًا ينطلق بـه القـاص فـى أودية الخيال والأوهام والأساطير التى يخلو منها كتاب الله الكريم تمام الخلو ..

ويبدو أن هـذه الروايات والتفسيرات الأسطورية وأمثالها من كل مـا نـأى

---

[1] ص ١٧٠.

[2] تفسير الخازن لكلمتى يأجوج ومأجوج الواردتين فى قصة ذى القرنين بسورة الكهف.

عن الصدق التاريخى وخرج عن المنهج المرسوم للقصص القرآنى إلى الطريق الإلهائية الأسطورية -هى التى ازداد بها الالتباس، ولاسيما عند من يعجزون عن التفرقة بين ما جاء فى بعض القصص القرآنى من خوارق ومعجزات وهى من آيات القدرة الإلهية الباهرة، وما اخترعه خيال الإنسان من أحداث عجيبة، ووقائع غريبة، فتحصل لهم الشبهة لانعدام التمييز، ومن ثم يزعمون أن فى القرآن الكريم قصصًا أسطوريًا، متناسين أن القرآن الكريم كان وما يزال وسيظل منارة الحق التام والصدق الشامل المهيمن على سائر بحور الأساطير فى كل زمان ومكان.

و لم يكن العرب الجاهليون يوم نزل القرآن الكريم على الهادى البشير -صلى الله عليه وسلم- فى حاجة إلى الأدب الأسطورى، حتى يزعم الدكتور محمد أحمد خلف الله أن القرآن الكريم قد اشتمل على قصص أدبى أسطورى، وأن القرآن الكريم قد وضع تقليدًا جديدًا فى الحياة الأدبية العربية وهو بناء القصص الدينى على بعض الأساطير، وجعل القصة الأسطورية لونًا من ألوان الأدب الرفيع، وتجديدًا لم يكن العرب يألفونه فى الحياة الأدبية المكية! فالدكتور خلف الله بادعائه هذا لا يكذب على القرآن الكريم وحده، بل يكذب -أيضًا- على تاريخ الأدب فى العصر الجاهلى، فنحن إذ نقرأ المصادر والكتب التى تناولت أدب هذا العصر نجد فيها العديد من الشواهد التى تؤكد عكس ما زعمه الدكتور خلف الله.

فالدكتور شوقى ضيف يذكر : أن تجار مكة قد اتصلوا بالأمم المجاورة، حيث كانوا يدخلون فى مصر والشام وبلاد فارس، وكان من مظاهر تأثيرات هذا الاتصال : أن العرب قد عرفوا عن هذه الأمم بعض أخبارهم وأساطيرهم، ويؤكد الدكتور شوقى ضيف أن العرب كانوا يشغفون بالقصص والأساطير شغفًا شديدًا، ولاسيما ما كان يقصه عليهم النضر بن الحارث عن ملوك الفرس وأبطالهم الأسطوريين، وأن أوقات فراغ الجاهليين الواسعة فى الصحراء قد ساعدتهم على ذلك، فكانوا إذا جن الليل جلسوا للسمر مرهفين أسماعهم لما يروى من قصص

وأخبار وأساطير، وكان القصاصون منهم يفيضون عليها من خيالاتهم وفنهم، حتى يبهروا سامعيهم، ويملكوا عليهم قلوبهم، التي تخفق من آن إلى آن[1].

ويقول -أيضًا- : «ولهم في الجن كثير من الأساطير عرض لها الجاحظ في الجزء السادس من حيوانه، فتحدث عن مواطنها في رأيهم، وأنها تركب النعام والظباء والحشرات، وأنها تتصور في صور كثيرة، وتتوالد مع الناس، وقد تستهويهم وتقتلهم أو تخبلهم، ويسمع ليلاً عزيفهم وهتافهم. ومنهم من يألف الكهان ويخدمهم وهو (الرئي)، ومنهم من صورته على نصف صورة الإنسان ويسمى (شقا) ولكل شاعر شيطانه الذي ينفث فيه الشعر، ومنهم : السعلاة، والغول وهي من سباعهم. ويزعم تأبط شرًا في شعر يضاف إليه أنه لقيها في ليلة مظلمة وهو يسعى في فلاة، فنازلها ومازال بها حتى قتلها وهو لا يعرفها»[2].

وقال المستشرق الألماني كارل بروكلمان في حديثه عن "أولية النثر العربي" :

«لم يكن الشاعر وحده هو الذي تهفو له النفوس، وتسمو إليه الأعين عند عرب الجاهلية، بل كان القاص يقوم -أيضًا- مقامًا هامًا إلى جانب الشاعر في سمر الليل .. وكان القصاص يستمدون قصصهم تارة من الأساطير والخرافات السائرة المتنقلة بين الأمم، وتارة أخرى من الأخبار والأحاديث الخرافية والتاريخية المأثورة عن العرب أنفسهم وعمن جاورهم..»[3].

ويروى لنا السيوطي في مزهره قصة تعد شاهدًا للقصص الديني الجاهلي المبني على بعض الأساطير، وموجزها : أن قبيلة "همدان" كانت تعبد نسرًا، وكان هذا النسر يأتيها في كل عام، فيقرعون بين بناتهم، فأيتهن أصابتها القرعة تقدم

---

[1] راجع : العصر الجاهلي، ص ٨١، ٣٩٩.

[2] السابق، ص ٩٥.

[3] تاريخ الأدب العربي، ص ١٢٨.

للنسر، فيحجل نحوها، ويتركونها حتى يأكلها، ثم يؤتى له بخمر فيشرب وينتشى، ثم يخبرهم بما سيحدث فى عامهم المقبل ويطير. ثم حدث أن جاءهم النسر كعادته، فأقرعوا بين فتياتهم وأصابت القرعة إحدى الفتيات، وكان أبوها يحبها كثيرًا، فحزن حزنًا شديدًا، فلما رأى الرجال ما هو عليه من الحزن قالوا له : ماذا يا مراد لو فدينا ابنتك بابنة المرأة الهمدانية ؟ وكانت هذه الابنة الهمدانية ابنة لرجل مرادى وامرأة من قبيلة همدان، ثم توفى أبوها، وظلت أمها فى قبيلة مراد، فقر رأى مراد على ذلك. وحين علمت الأم وابنتها بهذا الأمر ساءت حال الأم وأخذت البنت تبكى، وصادف هذا قدوم خال الابنة لزيارة أخته، فلما رأى حزنهما سألهما عن سببه، إلا أن الأم أبت أن تبوح له بشىء، ولكن الابنة دخلت خباء وشرعت تنشد الشعر بصوت عال، لتسمع خالها، فعرف القصة، ومن ثم قال لأخته : إذا جاءك المراديون فادفعى إليهم ابنتك، وأنا أتدبر الأمر بعد ذلك، فلما جاءوها فعلت ما نصحه بها، فدفعوا الفتاة فى خباء النسر، فلما رآها النسر حجل نحوها، ولكن الخال كان قد اختفى فى الخباء، فرمى النسر بسهم أصابه فأرداه قتيلاً، وأخذ أخته وابنتها وولى هاربًا، فلما أدركت قبيلة مراد أن الحيلة قد تمت عليها غذت السير وراءهم، ولكنها لم تدركهم، فكان هذا سببًا فى اشتعال نار العداوة بين قبيلتى مراد وهمدان .. إلى أن جاء الإسلام فحجر بينهما[1]. فهذه القصة تدل من ناحية على أن هناك قصصًا دينيًا جاهليًا بنى على بعض الأساطير، ومن ناحية أخرى، فإنها تدل على نزوع الإنسان الجاهلى إلى تغيير معتقداته التى بدأ يتشكك فيها قبيل ظهور الإسلام. ثم هى من ناحية ثالثة تدحض دعوى الدكتور خلف الله بأن العرب فى الجاهلية لم يكونوا يعرفون القصص الدينى المبنى على بعض الأساطير، وأن القرآن الكريم قد جدد الحياة الأدبية العربية باشتماله على القصص الأدبى الأسطورى !

وأشار الأستاذ أحمد أمين إلى أن العرب الجاهليين كانوا يزعمون فى

[1] راجع : الجزء الأول، ص ١٦٤.

أساطيرهم أن "الهديل" فرخ كان على عهد سيدنا نوح عليه السلام، فصاده جارح، فما من حمامة إلا وهى تبكيه وتدعوه، فلا يجيبها، وفى ذلك قال أحد شعرائهم :

من تهتفين بـه لنصـر بأسرع جابة لك من هديل[1]

ويروى لنا الجاحظ قصيدة من شواهد القصص المبنى على الأساطير .. هذا هو نصها :

قال النابغة من قصيدة له يعاتب بها بنى مرة :

أليس لنا مولى يحب سراحنا فيعذرنا من مرة التناصره

وإنى لاقٍ من ذوى الضغن نكبة بلا عثرة والنفس لابد عاثره

كما لقيت ذات الصفا من حليفها وما انفكت الأمثال فى الناس سائره

فقالت له : أدعوك للعقل وافرا ولا تغشينى منك للظلم بادره

فواثقها باللّه حتى تراضيا فكانت تديه الجزع خفيًا وظاهره

فلما توفى العقل إلا أقله وجارت به نفس عن الخير جائره

تفكر أنى يجمع اللّه شمله فيصبح ذا مال ويقتل واتره

فظل على فأس يحد غرابها ليقتلها والنفس للقتل حاذره

فلما وقاها اللّه ضربة فأسه وللّه عين لا تغمض ساهره

فقال : تعالى نجعل اللّه بيننا على العقل حتى تنجزى لى آخره

فقالت : يمين اللّه أفعل إننى رأيتك ختارًا يمينك فاجره

أبى لك قبر لا يزال مواجها وضربة فأس فوق رأسى فاقره[2]

كذلك أورد الجاحظ أسطورة جاهلية بعنوان "أسطورة خداع الغراب

---

[1] راجع : فجر الإسلام، ص ٦٦.

[2] الحيوان، ج ٤، ص ٢٠٤.

للديك" وتتلخص فى أن سيدنا نوحًا -عليه السلام- حين بقى فى اللجة أيامًا بعث الغراب لينظر هل يرى فى الأرض موضعًا يكون للسفينة مرفأ، ولكن الغراب وقع على جيفة و لم يرجع إلى نوح عليه السلام. ويزعم الأعراب -أيضًا- أن الغراب كان نديمًا للديك، وأنهما شربا الخمر عند خمار و لم يعطياه شيئًا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن، ورهن الديك عند الخمار، لكنه خدع الديك وتلعّب به، فلم يرجع إليه مثلما لم يرجع إلى نوح، فبقى الديك محبوسًا عند الخمار، وبذلك صار للغراب الغنم، وعلى الديك الغرم. فكانوا يقولون فى المثل : «لا يرجع فلان حتى يرجع غراب نوح» وقال أمية بن أبى الصلت :

بآية قام ينطق كل شيء ... وخان أمانة الديك الغراب

ثم إن نوحًا عليه السلام بعث الحمامة، وجعل الطوق الذى فى عنقها أجرًا لها على وفائها وقيامها بالبحث عن مرفأ للسفينة[1].

وقد سجل أمية بن أبى الصلت أسطورة طوق الحمامة فى شعره، وسبق أن أوردت له أبياتًا فى هذا الصدد، فلتراجع هناك[2].

كذلك أشار إليها الشاعر الجاهلى "جران العود النميرى" فى شعره، فقال:

وذكرنى الصبا بعد التناهى ... حمامة أيكة تدعو الحماما

أسيلا خده، والجيد منه ... تقلد زينة خلقت لزاما

كساه اللّه يوم دعاه نوح ... نظامًا ما يريد به نظاما[3]

ومن أساطير الجاهلية التى رواها الجاحظ -أيضًا- : أنهم كانوا يزعمون أن نوحًا عليه السلام لما دخل السفينة تمنع الحمار بعسره ونكده، فلما قال نوح للحمار: ادخل يا ملعون دخل الحمار السفينة ودخل إبليس معه، إذ كان فى جوفه.

---

(1) راجع : السابق، ج ٢، ص ٣١٨ وما بعدها.

(2) راجع : ص١٤ من الكتاب.

(3) ديوانه، ص ٣٣.

فلما رأى نوح إبليس فى السفينة قال له : مَن أدخلك السفينة يا ملعون ؟- قال : أنت أمرتنى بالدخول. قال : ومتى أمرتك ؟ قال : حين قلت : ادخل يا ملعون، ولم يكن هناك ملعون غيرى[1] !

وكانوا يزعمون -كذلك- أن سيدنا صالحًا عليه السلام قد وجه رجلاً يسمى : أبا رغال زيد بن مخلف إلى مكة المكرمة ليجمع صدقات الأموال من أهل الحرم، لكن أبا رغال خالف أمر النبى صالح، وأساء السيرة، فوثب عليه ثقيف وهو: قسى بن منبه بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، فقتله قتلاً شنيعًا، لسوء سيرته فى أهل الحرم[2] .

وقال الجاحظ -أيضًا- : «وتزعم الأعراب أن الله تعالى حين أهلك الأمة التى كانت تسمى "وبار" كما أهلك طمسًا وجديسًا وعملاق وثمودًا وعادًا، سكنت الجن فى منازلهم، وحمتها من كل من أرادها، وأنها أخصب بلاد الله وأكثرها شجرًا وأطيبها ثمرًا، وأكثرها حبًا وعنبًا، وأكثرها نخلاً وموزًا. فإن دنا اليوم إنسان من تلك البلاد متعمدًا، أو غالطًا، حثوا فى وجهه التراب، فإن أبى الرجوع خبلوه، وربما قتلوه»[3] .

وحسبنا من نماذج القصص الأسطورى الجاهلى ما سبق ذكره، فإن هذه النماذج خير دليل، وأقوى شاهد على أن الحياة الأدبية العربية فى العصر الجاهلى كانت تألف وتعرف القصص الزاخر بالأساطير المغرقة المغرية، والأحاديث الخرافية التى يقول عنها الدكتور محمد مصطفى هدارة فى حديث له عن مسألة "الشعر الجاهلى بين التاريخ والأسطورة" : «يحاول بعض الباحثين تفسير الشعر الجاهلى عن طريق الأسطورة للاستدلال على التاريخ الدينى والاجتماعى عند العرب منذ

---

[1] راجع : الحيوان، ج ٢، ص ٣٢٢.

[2] راجع : السابق، ج ٦، ص ١٥٦.

[3] البيان والتبيين، ج ٦، ص ٦٦.

العصور السحيقة»[1] . ويقول عنها المستشرق الإيطالى كارلو نالينو : «لعلها هى أساطير الأولين التى كان مشركو قريش وكفار مكة يشبهون بها إنذارات القرآن الكريم وقصصه»[2] ، وكل هذا يدحض دعوى الدكتور خلف الله بأن الجاهليين لم يألفوا الأساطير، فأراد القرآن الكريم أن يجدد فى الحياة الأدبية الجاهلية، فاشتمل على قصص أسطورى !

ونحن إذ ننظر -بعد ذلك- إلى الأدلة المحتطبة التى أتى بها الدكتور خلف الله فى هذا الشأن، لا نجد منها دليلاً واحدًا صحيحًا أو حتى مقنعًا يصلح سندًا لتلك الدعوى الخطيرة التى غاب عن الدكتور خلف الله أنها من أخطر الدعاوى فى التاريخ البشرى كله. فليس فى آية من الآيات القرآنية التى استشهد بها دلالة على فكرة الأساطير ووجودها فى القرآن الكريم، وإنما فيها جميعًا دلالة قوية على أن مشركى مكة كانوا يحكمون عقولهم القاصرة فى الأسرار المغيبة، لفرط جهلهم بحقائق القرآن الكريم، وكثرة عنادهم للرسول عليه السلام، ومن ثم وصفوا القرآن الكريم بأنه : ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وقد وصفهم الله تعالى فى أول موضع قرآنى من المواضع التسعة التى استشهد بها الدكتور خلف الله بأن الحق سبحانه وتعالى قد ضرب على قلوبهم، وجعل فى آذانهم وقرًا، إذ لم يؤمنوا بكل آية، ووصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين، ومما لا شك فيه أن وصف القرآن إياهم بهذا الوصف شهادة قرآنية ناطقة على استنكار الله عز وجل أن يكون القرآن الكريم حديث خرافة.

وهناك قصة طريفة أوردها الإمام الزمخشرى عن معاوية بن أبى سفيان : أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! فقال الرجل لمعاوية : أجهل من قومى قومك، قالوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين

[1] الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى، ص ٢٣.

[2] تاريخ الآداب العربية، ص ٩٦.

دعاهم إلى الحق : ﴿إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ و لم يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا له[1]!

فجهل مشركى مكة بالأسرار المغيبة والحقائق القرآنية هو الذى دفعهم إلى وصف هذه الأسرار والحقائق بأنها من أساطير الأولين، فكان موقفهم هذا شبيهًا بموقفهم حين تلا عليهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- قول الحق سبحانه : ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ . .﴾ إلخ[2]، فقالوا -حينئذ- : «ظهر كذبه، لأن الشجر لا ينبت فى الأرض اليابسة فكيف ينبت فى أصل النار؟!»[3] . وقال أبو جهل -عليه لعائن الله- : «هاتوا لنا تمرًا وزبدًا، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا»[4] .

وتجاهل الدكتور خلف الله للمعانى الحقيقية التى تنطق بها الآيات القرآنية هو الذى دفعه إلى ادعاء أن القرآن الكريم لم يحرص على أن ينفى عن نفسه وجود الأساطير فيه، وإنما حرص -فقط- على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هى الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام، وليس من عند الله! وإنى لأعجب كل العجب من هذا الفهم الخاص الذى انفرد به الدكتور خلف الله دون الناس أجمعين، إذ لم يرد فى كتاب من كتب التفسير المختلفة!

يقول الإمام الزمخشرى -مثلاً- فى تفسير قول الله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ . .﴾ إلخ : «المعنى : أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك

---

[1] راجع : الكشاف، ج ٢، ص ١٥٥.

[2] سورة الصافات : الآيات ٦٢ - ٦٥.

[3] أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطى، ج ١، ص ٥٠.

[4] تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج ٣، ص ٤٨.

ويناكرونك. وفسر (الله) مجادلتهم بأنهم يقولون : ﴿إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، فيجعلون كلام الله وأصدق الحديث خرافات وأكاذيب وهي الغاية في التكذيب»[1] .

ويقول ابن كثير في تفسير قول الله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا . . .﴾ إلخ : «يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنهم يقولون : ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَا﴾ وهذا منهم قول بلا فعل، وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطل .. ومعنى أساطير الأولين -وهو جمع أسطورة- أى كتبهم، اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكذب البحت كما أخبر الله عنهم فى الآية الأخرى : ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أى لمن تاب إليه وأناب فإنه يتقبل منه ويصفح عنه»[2] .

ومما قاله المرحوم سيد قطب عن قول الله تعالى : ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. . .﴾ : «زعموا أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- طلب أن تكتب له، لتقرأ عليه فى الصباح والمساء -إذ كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب- ثم يقولها هو بدوره، وينسبها إلى الله ! وهذا استطراد فى دعواهم التى لا تقوم على أساس، ولا

---

[1] الكشاف، ج ٢، ص ١٢.

[2] تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

تثبت للمناقشة. وإن سياق القصص فى القرآن بهذا التنسيق فى عرضه، وبهذا التناسق بينه وبين الموضوع الذى يساق فيه، ويستشهد بالقصص عليه، وبهذا التناسب بين أهداف القصص وأهداف السياق فى السورة الوحدة. إن هذا كله ليشهد بالقصد والتدبير العميق اللطيف الذى لا يلحظ فى الأساطير المبعثرة التى لا تجمعها فكرة، ولا يوجهها قصد، إنما تساق للتسلية وتزجية الفراغ»[1].

ويقول الشيخ عبد القادر المغربى فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . .﴾ : «.. بقى من خصال الوليد الخصلة العاشرة، وهى استخفافه بآيات الله وتسميته لها : "أساطير الأولين" أى : أكاذيب يتداولها الناس بينهم من أخبار الأقدمين ليست صحيحة ولا تحدث فى النفس أثرًا، وإنا تقال : تفكهة وتسلية، وقد كان الوليد بن المغيرة كلما تليت عليه آيات القرآن رجاء النظر فيها والإيمان بها، سخر منها وقال : إنها أساطير الأولين»[2].

ولا شك أننا نفهم من القصص القرآنى ومن تفسير الشيخ المغربى له : أن الخصلة العاشرة للوليد وهى قوله : بأن القرآن أساطير الأولين، داخلة فى جملة الخصال التى بها استحق عقاب الله فى قوله (سنسمه على الخرطوم) وبذلك يكون القرآن الكريم قد هدد المشركين على وصفهم للقرآن بهذا الادعاء الباطل أكثر من مرة، وليس مرة واحدة كما ادعى الدكتور خلف الله، على أن هذا التهديد المتكرر يدل دلالة قوية على أن القرآن قد نفى وجود الأساطير فيه نفيًا إن لم يكن بصريح اللفظ كان بمفهوم العبارة.

ويقول الشيخ محمد عبده فى قول الله تعالى : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ . .﴾ إلخ : «فلذلك إذا تليت عليهم الآيات المنزلة الناطقة بأصدق الخبر عما يكون فى ذلك

---

[1] فى ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٥٥١.

[2] تفسيره لجزء تبارك، ص ٢٠.

اليوم مما لا مفر منه، ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والأساطير : أحاديث لا نظام لها، أى ذلك كلام مكرر الحكاية، يأثره الآخر عن الأول، والخلف عن السلف، ولكنه ما لا ينطبق على الواقع، فهو مما تعودت النفوس سماعه، وتعودت ألا تتأثر منه، وألا تحظى منه بطائل، فلا يستحق النظر فيه، هكذا حال القوم، يتلى عليهم كتاب الله، وفيه ما ينعى عليهم حالهم ويكشف لهم ما لبسوا على أنفسهم، ويبين لهم سيئات أعمالهم، فيقولون : هذا مفهوم، ولكن من ذا الذى يعمل به ؟ ولِم لَم يعمل فلان وفلان حتى نسلك مسالكهم، ونستقيم على طريقهم، فهؤلاء واصفون لكتاب الله بأنه أساطير الأولين، وإن لم ينطقوا باللفظ الدال على الوصف، ليعللوا أنفسهم بأنهم مسلمون، وأنهم مع فجورهم ناجون. كلا إن هذه الآيات ليست بأساطير تسطر، وأقاصيص تحكى، وتؤثر وتعاد، وتكرر بدون حقيقة ولا أثر، بل هى الحق الذى لا مراء فيه، عرفه منها أهل العدل، المتعرضون للرحمة والفضل، وإنما الذى غطى قلوب المكذبين وحجبها عن فهم ما جاءت به الآيات، تلك الملكات الرديئة، والعادات السيئة، والأعمال الخبيثة التى كانوا يكسبونها»[1].

وهذا النص الذى نقلته عن الأستاذ الإمام يمثل رأيه الحق فى الموضوع الذى نحن بصدده، ومن ناحية أخرى، فإن الآيات الكريمة التى تحدث عنها هذا النص تنكر فى صراحة أن يكون القرآن حديث خرافة، وحسبها فى إنكارها الصريح لذلك أنها وصفت من يقول عن القرآن ذلك بأنه معتدٍ أثيم، ويكذب ويستحق الويل، فماذا كان يريد الدكتور خلف الله بعد ذلك كله ؟!

أما ما نقله عن الإمام الرازى، والإمام محمد عبده فى هذا المقام، فليس فيه شىء مما ادعاه سيادته، وكلام المفسرين الكبيرين أوضح من أن يكشف عن مضمونه، فضلاً عن أنهما وغيرهما من سائر المفسرين لا يلتزمون رأيًا واحدًا فى التفسير، ولكنهم ينقلون آراء متعددة، لمجرد العلم بها، دون أن يكون ذلك فهمًا

---

[1] تفسير جزء عم، ص ٣٤، ٣٥.

خاصًا لهم، فإن كان لهم فى الآية فهم خاص صرحوا به، و لم أرَ واحدًا من المفسرين قال : إن القرآن الكريم يحتوى على قصص أسطورى؛ بل الجميع ينكرون ذلك وينفرون منه، وإن من يدقق النظر فى نقول الدكتور خلف الله يجده ينقل عن المفسرين ما يقع اختياره عليه من الآراء العديدة التى يعرضونها، والتى تشتمل أحيانًا على الكثير من الإسرائيليات والخرافات والأساطير التى هى من قبيل العرض، لا الرأى، فليس من أصول البحث العلمى الدقيق أن ينسب الدكتور خلف الله لعلمائنا ومفسرينا شيئًا لم يقولوه أو لم يقصدوه.

وفضلاً عن ذلك فإننا إذا نظرنا إلى الآية القرآنية التى عرض لها الفخر الرازى، وجدناها قد جاءت فى ثنايا الآيات الكريمة التالية :

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة يونس : ٣٨ - ٤٠).

ونحن إذ نتأمل هذه الآيات لا نجد فيها أى سياق للقصة، حتى يذهب الفخر الرازى لما ذهب إليه، وإنما هو ناشئ من طبيعته فى الاستطراد، وتقسيم المسائل، وإقامة الفروع، والميل إلى الجدل وعلم الكلام، وتحميل الألفاظ ما لا تتحمله أحيانًا. لقد جاءت الآيات -كما نرى- فى معرض التحدى بالإتيان بسورة من مثل القرآن الكريم مفتراة .. والآية التى عرض لها الرازى تصور لنا أن كفار مكة كانوا يسارعون إلى التكذيب والإنكار قبل أن يفهموا ويتذوقوا ويتأملوا، فكان شأنهم فى ذلك شأن من سبقهم من الأمم الذين كذبوا، وظلموا أنفسهم، فحق عليهم الهلاك والعقاب. ولو كانوا قد تأنوا وتأملوا وتذوقوا القرآن الكريم لأدركوا ما فيه من إعجاز فى النظم، وإعجاز فى الإخبار بالمغيبات، وغير ذلك من

حقائق الإعجاز التى تنفى عنه أن يكون -كما زعموا- من أساطير الأولين، وإن إيمان بعضهم بأن هذا القرآن حق لأبلغ رد على دعوى الدكتور خلف الله بأن الشبهة كانت عندهم قوية.

ونحن فى الحقيقة لم نرفض أبطولة اشتمال القصص القرآنى على الأسطورة حبًا فى الرفض، ولا رغبة فى الجدل والمناقشات والردود، وإنما رفضناها تقديسًا للحقيقة التى يجب أن تعتمد على أسس وطيدة من المنطق والواقع والتاريخ، وليس على أدلة مثل هذه الأدلة التى ساقها الدكتور خلف الله والتى هى -كما رأينا- أوْهَى من خيوط العنكبوت.

ولقد كان حريًا بالدكتور خلف الله ومَن جرى مجراه أن يكونوا موضوعيين فى دراساتهم وبحوثهم، فلا يدعون اشتمال القرآن الكريم على القصص الأدبى الأسطورى، لأن الأساطير هى الأحاديث التى لا نظام لها، وهى الأباطيل والأحاديث العجيبة، التى لم تقع فى التاريخ ولا يقبلها العقل، حتى إن الناس اليوم إذا أرادوا وجود شىء قالوا : إنه أسطورى، يعنون بذلك : أنه من الخيال المحض القائم على التلفيق والاختراع، فالأساطير قصص خيالية صرفة تبعد عن التاريخ بمقدار ما يبعد الوهم عن الحقيقة، وكل ذلك لم يشتمل عليه القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر، لأنه كتاب لا مكان للخيال القصصى فيه، ولا صلة للأساطير والخرافات به، بل إنه كان حريصًا على نفى الخيال القصصى عن قصصه، فقرر فى مواضع عديدة منه أن قصصه ينبئ عن الحق، وأن هذا القصص ليس حديثًا يفترى وأنه من وحى الله إلى نبيه -صلى الله عليه وسلم- ومن هذه المواضع قول الحق سبحانه وتعالى عن أهل الكهف : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾.

إننا إذا رحنا نبحث -مثلاً- عن الأسطورة فى هذه القصة القرآنية، لم نجد لشىء من ذلك أثرًا، وإنما نجد هذه الآية القرآنية الكريم التى تنص نصًا صريحًا وحاسمًا على أن القصة من واقع التاريخ الحق، لا صلة للأساطير بها، فمن المدهش

حقًا أن يصف القرآن الكريم هذه القصة بهذا الوصف الصريح الحاسم، ثم يظهر فى البيئة العربية والإسلامية من يتجاهل ويتعامى عن هذه الحقيقة، ويسلم قياده للمستشرقين فيدعى ما يدعون، ويزعم أن القرآن الكريم فى ذلك قد سلك سبيل الآداب العالمية والأديان الكبرى - وأن القرآن الكريم لا يعيبه أن يشتمل على الأساطير، لأنه بذلك قد قعد القواعد، وسن السنن

لقد اشتملت قصة أهل الكهف -بالذات- على أمور تدل دلالة قوية على عدم صلتها بالأسطورة، كذلك التقديم القرآنى الرائع الذى يسبقها فى السورة القرآنية الكريمة التى احتوتها : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا * أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾.

فتجد أن المولى عز وجل يقول لمن يتعجب من هذه القصة، ويستبعد عقله وقوعها، ويرى فيها لونًا من الاعتماد على الأسطورة فى الوصول إلى قلوب الناس وعقولهم -يقول لهؤلاء ومن جرى مجراهم : إن آية أصحاب الكهف والرقيم ليست بأغرب ولا أعجب من صنيع الله فى الأرض، وتزيينه لها ولأهلها بما أوجد فيها من أسباب الحياة، ومظاهر النعم، ثم تحويل ذلك كله إلى حال آخر يتبدل فيه منظر الأرض، حين تصبح صعيدًا جرزًا، وأرضًا بيضاء لا نبات فيها ولا شجر، ولا حيوان ولا ثمر «فلو أن عاقلاً تفكر فى هذا الذى يطرأ على الأرض، وتراه العيون فيها يومًا بعد يوم، لما وجد فى قصة أصحاب الكهف عجبًا، ولما وصل به التعجب إلى اعتقاد أنه أمام قصة مخترعة ونبأ مفترى»[1] يتخذ من الأسطورة متكأ.

وثانى ما يلفت النظر فى هذه القصة ويؤكد بعدها التام عن الأسطورة وجوها : أن الحق سبحانه وتعالى لم يذكر أن أصحابها قد بعثوا من موت -وإن

---

(1) البيان القصصى، ص ١٠٩.

كان البعث من الموت ليس على الله بمستغرب، كما فى قصة العزير وحماره مثلاً- وإنما الذى أوضحته القصة أنهم بعثوا من نوم عميق طويل غشى عيونهم بعد أن سلبوا أسباب التنبه والاستيقاظ، وضرب الله على آذانهم فى الكهف سنين عددا.

وفضلاً عن هذا، فإن القرآن الكريم قد أشار إلى أمر آخر هام هو أنهم قد أحيطوا بسائر أسباب الحفظ والصون، بحيث لم يتسرب إلى أجسادهم شىء من المتلفات أو المنبهات، فكانت الشمس ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾[1]، وكان الحق سبحانه يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، حتى ليحسبهم الإنسان أيقاظًا وهم رقود، ولو اطلع عليهم لولى منهم فرارًا ولملئ منهم رعبًا -إلى آخر ما تحتويه هذه القصة من وقائع وأحداث، تؤكد -بما لا يدع مجالاً لشك- أنها تقوم على الحقائق، وترد على المستشرقين ومن نحا نحوهم مزاعمهم الكاذبة، من الواقع الفنى الذى يعززه الإعلان والتنبيه !

وثالث ما يلفت النظر ويؤكد صدق هذه القصة : أننا نراها فى كل جزئية من جزئياتها تصور الأمر وكأنه مرئى بالحس، لا مذكور بالخبر وحده، فالقصة وإن كانت تتناول موضوعًا ماضيًا، فإنها تذكر فى القرآن الكريم بطريقة معجزة فريدة، تجعل الإنسان حين يقرؤها أو يستمع إليها يشعر وكأنه يعاين وقائعها، فيفهم مغزاها بدون التباس وغير ارتياب.

لقد استهل القرآن الكريم القصة -مثلاً- بقوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ فهذا الاستهلال الرائع يجمع فى لفظة واحدة بين الإيغال فى الماضى والحضور فى الذهن، لأن الابتداء بضمير الغائب (إنهم) يشدنا من أقصى الحاضر إلى

---

[1] سورة الكهف : الآية ١٧.

أقصى الماضى، ولكن اقتران هذا الضمير بـ (إن) المؤكدة للجملة يحملها من أقصى الحاضر إلى الحاضر، فإذا بنا نرى هؤلاء المتحدث عنهم فى حالتهم التى هم عليها: ﴿فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[1].

وبعد هذا الاستهلال الرائع يعرض القرآن الكريم القصة فى مشاهد تتوالى كأنها ترى، فهؤلاء هم أصحاب الكهف قد آووا إلى الكهف راجين الرحمة والرشاد، مبتعدين عن الوثنية وآثامها، وساروا فى غيبوبة كأنهم الموتى، وليسوا أمواتًا، وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود، ويقلبهم الله ذات اليمين وذات الشمال، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وذات الشمال، وهم فى فجوة من الجبل الذى فيه الكهف.. وها هم بعد ثلثمائة وتسع سنة يستيقظون من سباتهم العميق ويتساءلون كم قضوا من العمر فى هذا الكهف .. إلى آخر ما تضمنته القصة من أحداث صورها القرآن الكريم تصويرًا محكمًا نلحظ ونحن نقرؤه كأنه ماثل أمام أبصارنا فى مشاهد واضحة بينة تدل على عظمة القرآن الكريم فى عرضه القصصى الفريد.

ورابع ما يلفت النظر فى هذه القصة : أنها كانت مظهرًا واقعيًا لصورة من صور التحدى القرآنى لأعداء سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- فقد كان النبى صلوات الله عليه يقص على العرب ما ينزله الله تعالى عليه من غير اقتراح ولا طلب من أحد، ثم حدث أن طلب المشركون -بإغراء من اليهود- أن يقص عليهم الرسول نبأ أهل الكهف وما انتهى إليه أمرهم، وكذلك نبأ رجل طاف العالم، وأظهر فيه بعض العجائب فى قوته ومظهره وهدايته .. فكان هذا الطلب من المشركين بمثابة امتحان للنبى صلى الله عليه وسلم نجح فيه النبى نجاحًا باهرًا، وكان برهانًا صادقًا على أنه نبى صادق لا يقص عليهم إلا ما يوحى إليه من الله عز وجل، فقد قص عليهم ما طلبوا بأدق تفاصيل وأصدق بيان. ودل على تمام صدقه

---

[1] راجع : البيان القصصى، ص ٢٨.

أنه كان قد وعدهم بأنه سيجيب غدًا ثقة منه بأن الله الذى يعلمه كل شىء سيحقق وعده كما وعد، لكن الوحى أبطأ عليه حتى شق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم وكذبته قريش، ثم نزل الوحى بقصة أهل الكهف وقصة ذى القرنين، وفى ثنايا القصة الأولى قول الله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ. . .﴾[1]. وقبل القصة الثانية جاء ذكر قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح فى تصوير قرآنى محكم دقيق.

وخامس ما يلفت النظر فى قصة أصحاب الكهف : أن القرآن الكريم قد اتبع فى عرضها طريقة التلخيص الإجمالى أولاً، ثم العرض التفصيلى أخيرًا، فهى تبدأ هكذا :

﴿حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾.

فهذه الآيات الكريمة تلخيص يجمل القصة، ويرسم خطوطها الرئيسية العريضة، ويشير إلى أنها آية عجيبة من آيات الله، لكنها مع غرابتها ليست بأعجب آيات الله، ففى صفحات كونه الممتد من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف. وبعد هذا التلخيص المشوق للقصة يجىء التفصيل مبتدئًا ببيان أن ما سيقصه الله منها هو فصل الخطاب فى الروايات المتضاربة فى عددهم ومدة نومهم .. وغير ذلك من الحق اليقين فى أحداثهم[2]. ثم يعقب القرآن الكريم على القصة بإعلان الوحدانية الظاهرة الأثر فى سير القصة وأحداثها : ﴿لَهُم مِّن دُونِهِ مِن

---

[1] راجع :الكشاف، ج ٢، ص ٤٨٠.

[2] راجع : فى ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ٢٢٦٣.

وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾، وبتوجيه النبى -صلى الله عليه وسلم- إلى تلاوة ما أوحاه ربه إليه، وفيه فصل الخطاب -وهو الحق الذى لا يأتيه الباطل- والاتجاه إلى الله وحده، فليس من حِمًى إلا حماه، وقد فر إليه أصحاب الكهف فشملهم برحمته وهدايته : ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ وهكذا تنتهى القصة تسبقها وتتخللها وتتعقبها أمور عديدة تشهد بأنها قصة واقعية لا صلة للأساطير بها. فكيف يدعى المستشرقون ومن نحا نحوهم من العرب المستغربين أنها قصة أسطورية ؟

هذا وقد أشار الدكتور عبد الله العمرانى فى مقال له بعنوان "النيام السبعة وأهل الكهف"[1] إلى أن دائرة الآثار الأردنية قد اكتشفت فى عام ١٩٦٢ موقع كهف أهل الرقيم فى قرية أردنية تسمى "الرميم" على بعد سبع كيلو مترات جنوب العاصمة الأردنية (عمان)، حيث تم العثور داخل الكهف على نقوش وحلى ونقود بيزنطية تعود للقرن الثالث الميلادى، مصداقًا لقول الله تعالى : ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ..﴾ إلخ، كما تم العثور على سبع جماجم بشرية فى سبعة قبور بداخل الكهف وعلى جمجمة كلب، وتما لعثور أيضًا على أعمدة المسجد الذى أقيم فوق الكهف، وكذلك على الفجوة التى بداخل الكهف، وتبلغ مساحتها على وجه التقريب نحو أربعة أمتار فى ثلاثة، بل ثبت أن الشمس تمر فعلاً عند طلوعها أمام اكهف، وتنحرف عنه عند غروبها، فأشعتها لا تنفذ داخل الكهف، كما أخبر القرآن الكريم قبل هذا الاكتشاف العصرى.

ويقول الدكتور عبد العليم خضر فى شأن قول الله تعالى : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ : «هذا خبر من الله تعالى لرسوله -صلى الله

---

[1] منشور فى مجلة العربى الكويتية، العدد ٢١٦، ص ٣٣ وما بعدها.

عليه وسلم- بمقدار ما لبث أصحاب الكهف فى كهفهم منذ أن أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية، وهى ثلثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلثمائة : ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ .. هكذا أخبرنا محمد عليه الصلاة والسلام عن الفرق بين التقويم الشمسى والتقويم القمرى، فالشمسى ما كان يسير عليه الناس زمن حكم الرومان (وهو زمن وقوع القصة) والقمرى ما سار عليه العرب، وكانت الهجرة فيما بعد عليه دليلاً، إن الله يقول : أيها الناس هذا النبى الأمى الذى لم يقرأ و لم يكتب و لم يدرس علم الحساب ولا الهندسة ولا الفلك من أين جاء له أن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية وكل سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يومًا ؟ .. ليس لذلك أى معنى سوى الإعجاز القرآنى»[1]. وحسبنا فى الرد على المستشرقين والدكتور خلف الله والدكتور مكى هذا القدر من الردود والمناقشات الداحضة لمزاعمهم الباطلة.

أما الدكتور العظم : فالواقع أن هذا الناقد الملحد كان يقصد بادعائه أن قصة آدم وإبليس فى القرآن الكريم تتناقض تناقضًا صريحًا مع سائر المعارف العلمية -كان يقصد أنها تتناقض مع نظرية النشوء والارتقاء التى اخترعها "داروين"، ومن هنا فنحن نقول له هو وأمثاله من ملاحدة العصر : إن الحق هو ما قصه علينا الحق سبحانه فى كتابه المبين، ولو تناقض مع الفرضية الداروينية، إذ ليس فيما قصه القرآن الكريم تناقض بين الدين والعلم، بل هو تناقض بين الحق الدينى القرآنى، وبين ما نسب إلى العلم، وهو ليس من العلم الصحيح فى شىء، وهذا لا يؤثر مطلقًا فى جوهر الموضوع، ولا حقيقة القصة، لأن نظرية داروين ليست -فى واقع الأمر وحقيقته- حقيقة علمية باعتراف العلماء أنفسهم، فهى لا تملك أدلة إثبات يقينية

---

[1] المنهج الإيمانى للدراسات الكونية، ص ١٥٥ - ١٥٧.

فيما يتصل بتاريخ الإنسان ونشأته الأولى، ولأن العلم -نفسه- لا يملك مهما ترقى أدلة يستطيع عن طريقها نفى ما هو ثابت بنص القرآن الكريم من وجود جن وملائكة. وباستطاعتنا أن نعكس السؤال على هذا الناقد الملحد فنقول له : هل يملك العلم المادى الحديث أن يقدم لنا دلائل يقينية قاطعة تثبت ما يدعيه عن نشأة الإنسان الأولى وتاريخه ؟! إن ما يزعمونه هو مجرد احتمال افتراضى لو لم يدعوه لما وجدوا أمامهم إلا ما قرره القصص القرآنى المعجز عن مسألة الخلق الربانى .. وهذا هو ما يتهرب الماديون الملحدون منه بدون دليل أو برهان[1]، تعصبًا منهم لإلحادهم ومزاعمهم، وإنكارًا للحقيقة القرآنية.

يقول وحيد الدين خان -نقلاً عن سير آرثر كيث- فى هذا الصدد ما نصه:

«إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميًا، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه»[2].

إن الناقد العظم لو تحقق فى الأمر، وتخلى عن الإلحاد، لوجد أن الخرافة والأسطورة إنما تتمثل فيما قاله داروين وأمثاله، فهى أقوال مزعومة، وأباطيل منسوجة تتناقض تناقضًا صريحًا مع ما جاء فى القرآن الكريم عن خلق آدم وقصته مع إبليس، لأن افتراضات داروين ومن نحا نحوه لا تملك -فى هذه المواقف- أى دليل أو برهان سوى مجرد الاحتمالات الافتراضية البعيدة كل البعد عن الحقائق القرآنية من ناحية، والحقائق العلمية السديدة من ناحية أخرى، فادعاؤه التناقض بين الدين والحقائق العلمية فى هذه القصة العظيمة .. قصة خلق آدم عليه السلام.. إنما هو ادعاء رجل ملحد يخالف -بهذه الافتراءات التى ادعاها- سائر الأسس العلمية، والقواعد المنطقية، على أنه يخالف من قبل ومن بعد حقائق الإعجاز فى قصص القرآن الكريم.

---

[1] راجع : صراع مع الملاحدة حتى العظم، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى، ص ٢٩٦، ٢٩٧.

[2] الإسلام يتحدى، ص ٣٩.

أما ادعاءاته الكاذبة عن يأجوج ومأجوج، وهاروت وماروت، فيبدو من كلامه عنهم أنه لا يفقه أغلب هذه الأسماء التي يعدها من الكائنات الأسطورية في القرآن الكريم، «والظاهر أنه أخذها عن مكتوبات الماركسيين غير المسلمين، ونقلها نقلاً ببغاويًا بالترجمة الحرفية، دون أن يرجع إلى المصادر الإسلامية ويعرف دلالاتها منها، ففي إيراده لهاروت وماروت ويأجوج ومأجوج على أنها كائنات غير مرئية كالجن والملائكة وإبليس جهل فاضح جدًا، فمن هذا الذي قال إن هاروت وماروت ويأجوج ومأجوج مخلوقات غير مرئية كالجن والملائكة»[1] وإذا كانوا اليوم غير مرئيين، فقد كانوا ذات يوم مرئيين كما نعرف، ولو أن الناقد العظم كان قد قرأ ما قصته سورة البقرة عن هاروت وماروت، وما قصته سورة الكهف عن يأجوج ومأجوج .. لو كان قد فعل هذا ما صدر منه هذا التخبط الفكري الدال على جهله الكبير، ولا خلط خلط عمياء فيما زعمه وادعاه، ولا كان كاذبًا وهو الذي سماه أبوه يوم مولده صادقًا !

وأما ما زعمه وادعاه عن المعجزات التي أثبتها القصص القرآني للأنبياء، فهو زعم وادعاء صدر فيه عن إنكار الحقيقة الكبرى ..«أعني حقيقة وجود الله عز وجل، فلابد أن ينكر سائر ما يستند إليها، ومن العجيب أن الملحدين الماديين يقبلون معجزات الطفرة الوحيدة التي تقول بها الداروينية، ولا سند لها إلا الحدس والخيال، ويرفضون المعجزات الربانية التي يجريها الله على أيدي رسله، وهي معجزات ثابتة تاريخيًا بشهادة (القصص القرآني المعجز) والأخبار (النبوية) المتواترة المقطوع بها، مضافًا إليها الشواهد العقلية والأثرية المؤيدة لها !! لكن هذا هو شأن الملحدين .. إنهم يتناقضون بين ما يقبلون وبين ما يرفضون، تعصبًا لإلحادهم، ومعاندة لخالقهم ومكابرة على الباطل»[2] .

---

[1] صراع مع الملاحدة، ص ٢٩٨.

[2] السابق، ص ٣١٣.

إنه الكفر والإلحاد الذى جعل الدكتور العظم لا ينكر المعجزات فحسب، بل قاده كذلك إلى إنكار البعث والحياة بعد الموت .. فبدلاً من أن ينظر إلى قصة أهل الكهف التى تعلم الناس بشهادة الحس كيف يحيى الله الموتى، والتى يقول الحق فيها : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا . .﴾.
وبدلاً من أن ينظر فى قصة العزير، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، وقصة إحياء قتيل بنى إسرائيل لسؤاله عن القاتل .. وقصة إحياء الطيور الأربعة لسيدنا إبراهيم عليه السلام، حين سأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى، ومعجزة عيسى عليه السلام فى إحيائه الموتى بإذن الله... بدلاً من أن ينظر الدكتور العظم منكر البعث فى ذلك ونحوه من القصص والآيات المثبتة للبعث -راح ينظر فى قصة أدبية من صنع البشر صاغها أحد أساتذته فى الكفر والإلحاد .. أعنى تلك القصة الخيالية التى كتبها الفيلسوف الإنجليزى الملحد "برتراند رسل" تحت عنوان : "عبادة الإنسان الحر"، وصور فيها بأسلوب أدبى براق خادع تفسيرات الملحدين لقصة الخليقة .. ونشأة الكون وتطوره، ونشأ الحياة وتدرجها، وأصل الإنسان ونشأته وتطوره، ونشوء الديانات والعبادات والطقوس وتطورها كما ضمنها إنكاره للآخرة وما فيها من موازين العدل الإلهى، لأن الكون -فى تصوره الكاذب- بدأ من السديم الحار الذى دار عبثًا فى الفضاء عصورًا لا تعد ولا تحصى، ثم نشأت عن هذا الدوران هذه الكائنات المنظمة البديعة بطريق الصدفة .. وسوف يحدث اصطدام كبير فى هذا الكون يعود به كل شىء إلى سديم كما كان فى البداية.

قرأ الناقد العظم هذه القصة التى نسجها خيال صاحبها، فآمن بأن كل ما جاء فيها صحيح، وبات يدعى أنها السند الأمثل للتحقيق العلمى فى قصة الخليقة، وأنها قطعة أدبية جميلة تتفق والمنهج العلمى السليم، ثم علق عليها فى الصفحة السادسة والعشرين من كتابه فقال : «هذا المقطع الذى كتبه رسل يلخص لنا بكل

بساطة النظرة العلمية الطبيعية للقضايا التالية : نشوء الكون وتطوره، نشوء الحياة وتطورها، أصل الإنسان ونشأته وتطوره، نشوء الديانات والعبادات والطقوس وتطورها، وأخيرًا يشدد على أن النهاية الحتمية لجميع الأشياء هى الفناء والعدم، ولا أمل لكائن بعدها بشىء، إنه من السديم وإليه يعود».

وهكذا -وبكل بساطة- رفض الدكتور العظم ما صورته القصص القرآنية التى مر ذكرها لأنها فى تصوره السقيم من قبيل الآداب الأسطورية، وآمن بتلك القصة التى كتبها واحد من أساتذته فى الإلحاد، بل وصف ما جاء فيها بأنه حقائق مقررة مسلم بها علميًا ... رفض الحقائق التى جاء بيانها بالأخبار الصادقة عن الله، وآمن بالأباطيل التى اخترعها عقل فيلسوف وأديب ملحد!!

جرى الدكتور العظم وراء ما قاله "برتراند رسل" وغاب عن ذهنه أو تجاهل أن الحقائق العلمية أبعد ما تكون عن القصص التقريرية التى تنسجها أخيلة الكتاب والأدباء والشعراء أو أخيلة واضعى النظريات لأغراض معينة، ومن هنا راح يخبط خبط عشواء، ويخلط خلط عمياء فيما سماه بنقد الفكر الدينى ... فلم يقف عند حد ما سبق ذكره ودحضه، بل قال أيضًا فى الصفحة السابعة والعشرين من كتابه بعد أن فرغ من عرض كلام برتراند رسل : «لنقارن بين هذه النظرية العلمية المجردة القاسية الباردة، وبين القصة الدينية الإسلامية الجميلة المريحة الدافئة التى تعودنا عليها، نجد أن الغيبيات والملائكة والصلوات والمعجزات والجن تؤلف جزءًا لا يتجزأ من التعليل الدينى لنشأة الكون وطبيعته، كذلك الأمر بالنسبة لتاريخ الإنسان ومصيره».

ولا شك أن الدكتور العظم قد بلغ -هنا- أعلى درجة من درجات الأباطيل المنسوجة حول القصص الدينى الإسلامى، لأن ما أسماه نظرية علمية مجردة قاسية باردة إنما هو «فرضيات احتمالية صاغها الملحدون باسم العلم، وليس لها براهين علمية مقبولة، ثم تلقفها المجرمون فى الأرض، وأخذوا يروجون لها،

ويلبسونها أثواب الحقائق العلمية، ويعطونها من قوة التثبيت ما لا تملك شيئًا منه. فكونها نظرية : دعوى باطلة؛ لأنها فرضيات احتمالية لم تدعمها أدلة تجعلها فى مستوى النظريات. وكونها علمية هى أيضًا دعوى باطلة، لأن الفرضيات ظنون ضعيفة لا يصح تسميتها علمًا، لاسيما إذا كان يوجد ما يخالفها مما تدعمه الأدلة دعمًا أقوى من دعمها. وكونها مجردة قاسية باردة لا أجد له تفسيرًا واقعيًا إلا أنها مجردة من النطق السليم، ومجردة عن أية غاية كريمة، وقاسية على النفوس قسوة الباطل حينما يبهت الحق بتزييفه، وباردة برودة الميت الذى لا يستطيع أن يحيا»[1].

وتلك صفات يتحلى القصص الدينى الإسلامى بعكسها تمامًا : فهو يتحلى ببرود المنطق السليم، وله غايات كريمة سامية، ويحنو على النفوس حنو الحق حينما يتغلب على الباطل كله، على أنه من قبل ومن بعد كلام الله الذى وصفه مرة بأنه الحق، ومرة بأنه أحسن القصص، ومرة بأنه آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ممن يؤمنون بالكتاب الحق الذى تضمنه، ولم يصفه مطلقًا بأنه نظرية، لأن النظريات من وضع البشر، فكيف يسمح هذا الملحد لنفسه أن يقارن بين القصص الذى هذا شأنه وتلك حقيقته، وبين ما أسماه بالنظرية العلمية المجردة القاسية الباردة ؟!

ثم من الذى قال : إن الملائكة والصلوات والجن والمعجزات كان لها أثر فى نشأة الكون وطبيعته؟!

إن مثل هذا التدجيل والتدليس والتزييف لا يمكن -بحال- أن يصدر من صغار المثقفين؛ بل عن الجهلة من الناس، فكيف يتفوه به صادق جلال العظم وهو الرجل الذى يحمل شهادة الدكتوراه ؟!

لقد قرر القرآن الكريم فى مواطن عديدة أن الكون قد نشأ بخلق الله له؛ بل يلفت النظر، ويسترعى الانتباه -حقًا- أن أول موضع من القرآن من المواضع التى صورت قصة آدم وإبليس التى جعلها هذا الناقد الملحد أسطورة -قد جاء تاليًا

---

[1] صراع مع الملاحدة، ص ٢١٥.

مباشرة لقول الحق سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة : ٢٩).

فما هذا الخلط العجيب المفترى على الإسلام وقصص القرآن الكريم ؟!

وهل هذا فكر أستاذ جامعي يُستأمَن على تعليم وتربية شباب المسلمين ؟! وهل هذه هي رسالة النقد الذى ينبغي أن يكون مرآة يسترشد بها الأدب والفكر، لا أن يكون معول هدم يمتد إلى عقائد المسلمين، وقصص كتابهم المبين ؟!

* * *

وبعد :

فإن الذى نقره -بعد هذه الرحلة التى نحسبها قد طالت- أنه ينبغى ألا يقال بأن القرآن الكريم يشتمل على قصص أدبى أسطورى -رضى هؤلاء الباحثون أو غضبوا- لأن القرآن الكريم كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ولا يعيب القصص القرآنى أن يخالف القصص الفنى البشرى فى هذه الناحية، لأن لكل بيان خصائصه التى تسرى فى خلاله، وسماته التى تتراءى بين ثناياه، بحيث يتميز كل بيان عن غيره، ولأن المجال الأسطورى ضرب من التزييف الذى لا يعتمد عليه فى نسج القصة إلا أولئك القصاصون العاجزون عن تقديم الحقيقة الحقة .. والخاضعون لوسائلهم البيانية الضيقة المحدودة، وعقولهم القاصرة التى ترى اليوم ما لم تره بالأمس، وتهش غدًا لما تنفر منه اليوم. ومن ثم فلا يصح أبدًا أن نخضع القصص القرآنى للمقاييس النقدية والظواهر القصصية المتعارف عليها، لأنه نسيج وحده فى الشكل و المضمون على حد سواء، ولا صلة للأساطير والخرافات به.

الفصل الرابع

أبطولة اشتمال القرآن الكريم على القصص الخيالي التمثيلى والقياس الشعرى

(عرض ومناقشة)

أوضحت -فيما سبق- أن التعريف الأدبى للقصة الذى يمكن أن نخرج به من كلام الأدباء والنقاد المحدثين هو قولنا : هى ذلك العمل الأدبى الذى يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له، أو لبطل له وجود ولكن الأحداث التى دارت حوله فى القصة لم تقع، أو وقعت للبطل ولكنها نظمت فى القصة على أساس فنى بلاغى فقدم بعضها وأخّر وآخر، وذكر بعضها وحذف آخر، أو أضيف إلى الواقع بعضٌ لم يقع، أو بولغ فى التصوير إلى الحد الذى يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون من الحقائق العادية والمألوفة ويجعلها من الأشخاص الخياليين.

كذلك أوضحت أن جماعة من الدارسين المحدثين حلا لهم أن يطبقوا هذا التعريف على القصص القرآنى المعجز، واهمين أنهم بهذا الصنيع قد يكونون من المجددين فى الأدب الإسلامى، أو المجتهدين فى تفسير القصص القرآنى تفسيرًا جديدًا لم يسبق إليه أحد من الناس!

وأوضحت أن الدكتور محمد أحمد خلف الله كان من أسبق هؤلاء، حين رفض الوقوف عند ذلك المفهوم الذى أوضحته للفظة (القصص) فى القرآن الكريم، وعند الحدود التى وقف عندها اللغويون والمفسرون فى شرحهم لمعنى القصة والقصص، وأصر كل الإصرار على الوقوف عند ما قاله النقاد فى التعريف الأدبى أو الفنى للقصة، وبالتالى فإنه بات يزعم أن فى القرآن الكريم ضربًا من القصص يدخل تحت صورة من صور التعريف الأدبى السابق للقصة، وهو ذلك اللون الذى يدور حول الشخصيات التاريخية من أمثال الأنبياء والمرسلين، والذى لم يلتزم القرآن الكريم فيه الصدق والتحرى عن الحقيقة، وإنما عرضه عرضًا فنيًا يقوم على ما كان يعتقده المخاطبون حين نزول هذا القصص فى صدر الإسلام.. إلى آخر ما قلته وعقبت عليه فى موضعه هناك[1].

---

[1] راجع : الفصل السابق.

وأضيف -هنا- أن الدكتور خلف الله لم يقف عند حد هذا الزعم، وترويج تلك الأبطولة، وإنما حاول بشتى الطرق أن يثبت اشتمال القرآن على كل ما يمكن دخوله تحت صورة من صور التعريف الأدبى للقصة عند النقاد.

لذلك رأيناه ينسج أبطولة أخرى تمثل صورة من هذه الصور، فقد بات يدعى اشتمال القرآن الكريم على ضرب من القصص الذى يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له، أو لبطل له وجود ولكن الأحداث التى ألمت به لم تقع أصلاً.

زعم الدكتور وجود هذا اللون القصصى التخييلى فى القرآن الكريم، وكان -كحاطب ليل- حين راح يلفق الأدلة من هنا، ويخترع الشواهد من هناك، بل نقل عن أئمة التفسير قديمًا وحديثًا نصوصًا زعم أنها تؤيد ما يراه، مع أنه -فى الحقيقة- كان مدلسًا فى نقلها حين أخذها من مصادرها مبتورة، واحتج بأنها تمثل اعترافهم الصريح بوجود القصص المبنى على الخيال فى القرآن الكريم!

يدعى الدكتور خلف الله كل هذا الزعم، ويزعم أن القرآن الكريم يشتمل على لون من القصص سيق على سبيل مثل مضروب أو جاء تمثيلاً، وأن هذا يسمى "القصص التمثيلى"، وأن منه ما تكون كل مواده القصصية وليدة الخيال والاختراع، وبعضه قد يكون وليد أحداث واقعية، لكنه سيق على سبيل التمثيل والتخييل !

ويمضى فى نسج هذه الأبطولة، فيدعى أن الاعتماد على عنصر الخيال القصصى أسلوب من أساليب القرآن الكريم، وأنه الأسلوب الذى تستلزمه وتقتضيه حاجة العقول البشرية إلى هذا النوع من الكلام والقصص، وقد جرت البشرية فى بلاغتها عليه، والحق سبحانه وتعالى حين يورد هذا القصص الذى يسوده الخيال إنما يحدث الناس بما يعتادون، وبما يجرى عليه التعبير عن الأحاسيس والأفكار، فضلاً عما يتضمنه القصص المتولد عن الخيال من قوة وتأثير نفسى فى العاطفة والوجدان.

وهذا القصص التخييلى يرد على صورتين، فأحيانًا يرد فى أعقاب المعانى

ليمنحها قوة ووضوحًا، وأحيانًا يأتى فى ابتداء الكلام، وسواء جاء على هذه الصورة أو تلك، فإنه -عند الدكتور خلف الله- من صنع الخيال، وموجود فى القرآن الكريم؛ بل هو قصص أدبى فنى بكل ما تعنيه كلمة الفن من معنى ! ويدخل تحت صورة من صور التعريف الأدبى للقصة عند النقاد المحدثين !

وحين أراد الدكتور خلف الله الاستشهاد بنماذج قرآنية تبرهن على صحة أبطولته، لم يقف عند مجرد التمثيل بالقصص الذى ضرب مثلاً أو جاء تمثيلاً فى القرآن الكريم، بل تجاوز ذلك إلى ألوان قصصية أخرى فى القرآن الكريم لم يسقها القرآن الكريم مساق المثل، وإنما تلاها على الناس !

فلقد مثل الدكتور خلف الله للقصص الخيالى الذى يدعى وجوده فى كتاب الله عز وجل بالقصص القرآنى التالى :

١- قصة الخصم الذين تسوروا المحراب .. الواردة فى سورة "ص"، فهى عنده قصة تمثيلية تخييلية وليدة أحداث واقعية، كما يشير إلى ذلك ما تحتويه من أحداث من تاريخ داود عليه السلام !

٢- قصة أصحاب القرية الواردة فى سورة "يس"، فهى فى تصوره أنموذج للتمثيل الخيالى القصصى الذى يجىء فى أعقاب المعانى ليزيدها قوة وجلاء، فقد ذكر المولى سبحانه وتعالى فى أول السورة كثيرًا من المعانى التى تصور حال الرسول -صلى الله عليه وسلم- مع كفار مكة، ثم أتبعها بهذه القصة الخيالية للبيان والإيضاح !

٣- قصة قابيل وهابيل.

٤- قصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها.

٥- قصة سيدنا إبراهيم مع الطيور الأربعة.

٦- قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

٧- قصة المائدة التى أنزلها الله على بنى إسرائيل بعد دعوة عيسى.

٨- قصة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

٩- قصة سيدنا آدم عليه السلام.

هذه القصص التسع تمثل -عند الدكتور خلف الله- نماذج قرآنية لاشتمال القرآن الكريم على صورة من صور التعريف الأدبى للقصة عند النقاد المحدثين.. يعنى : تلك الصور القصصية التى تكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له، أو من بطل له وجود، ولكن الأحداث التى ألمت به لم تقع أصلاً.

كل هذه القصص -عنده- قصص خيالية مخترعة لحاجة البشر إليها، وللمشاركة فى إثبات أن القرآن الكريم لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، حتى صور التعريف الأدبى للقصة عند النقاد فى نظر الدكتور خلف الله !!

فقصة الخصم مع داود عليه السلام -عنده- لم ترد على سبيل التحقيق؛ بل هى فرض واختراع من بنات الخيال القصصى ! وقصة المائدة مثل ضربه الله تعالى لخلقه ينهاهم به عن مساءلة أنبياء الله الآيات، و لم ينزل الله مائدة على بنى إسرائيل! وقصة الذين خرجوا من ديارهم ليست قصة واقعية ! وقصة العزيز مع حماره من قبيل الخيال ! و لم يكن هناك قطع أعضاء ولحوم وريش ودماء فى قصة إبراهيم مع الطيور الأربعة، وإنما هى قصة خيالية يقرب بها الحق أمر البعث وإحياء الموتى على الناس ! كقصة العزيز تمامًا ! وقصة قابيل وهابيل لا تقوم مادتها القصصية على أساس تاريخى؛ بل تقوم على أساس أدبى فنى عماده التصوير والتمثيل والجمع الخيالى بين أمور متباعدة فى الزمن، فقابيل وهابيل هما ولدا آدم عليه السلام، والقربان الذى قرباه كان مشروعًا فى بنى إسرائيل و لم يكن من قبل، ودفن الموتى أمر جرى ويجرى فى حياة البشرية كلها ! كذلك قصة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ قصة خيالية فى نظر الدكتور خلف الله، لا تقوم على أساس تاريخى؛ بل تصور حالة مشركى مكة فى جهلهم وقولهم بالشرك،

وإبليس فى قصة آدم -عليه السلام- يمثل يهود المدينة المنورة، والقصة كلها تمثيلية خيالية !!

و لم يقف الدكتور خلف الله -أيضًا- عند هذا الحد، بل ادعى فى ثنايا حديثه وجود القياس الشعرى في القرآن الكريم، وفى كلام الأنبياء جميعًا ! وحمل حملة شديدة على العقلية الأزهرية وثقافة الأزهريين، فزعم أنهم لا يعرفون الثقافة الأدبية للقصة الفنية، وأنهم لا يرضون من مسائل البيان العربى والنقد الأدبى إلا ما كان قديمًا، أو كان متصلاً من هذا القديم بسبب، وأنه -أى الدكتور خلف الله- من أجل ذلك قد حاول الاعتماد على شيء من ذلك القديم فى تقرير ما ذهب إليه ورآه، فاعتمد فى تقرير اشتمال القرآن الكريم على القصص الخيالى والقياس الشعرى على بعض ما قاله البلاغيون والنقاد بخصوص مسألة "اللزوم" ومسألة "التمثيل" حيث يمكن الاعتماد على المسألة الاولى فى الحديث عن الأحداث القصصية وبيان مدى صلتها بالحق والواقع، أو بالعرف والخيال، كما يمكن الاعتماد على المسألة الثانية فى بيان كيفية استخراج القيم العقلية والتيارات الفكرية من القصة الخيالية فى القرآن الكريم، وفى بيان أن الممثل به فى هذا الضرب من القصص القرآنى لا يلزم ولا يتحتم أن يكون من الحقائق التاريخية؛ بل يكتفى فيه بالمشهورات المتداولة وبالفرضيات المتخيلة !

وتعد هذه الناحية -كما أشار الدكتور خلف الله- من الأسس التى اعتمد عليها فى نسج أبطولة اشتمال القرآن الكريم على القصص الخيالى والقياس الشعرى!

فقد ذكر من بين ما ذكر أن التمثيل الذى تحدث عنه البلاغيون القدامى لا يقف عند حد التشبيهات التمثيلية والاستعارات التمثيلية والصور الأدبية الأخرى كالكناية والمبالغة والغلو والإغراق بل يكون التمثيل عنده -أيضًا- بالقصص الذى يجيء فى أعقاب المعانى ليزيدها وضوحًا، أو يجيء المعنى ابتداءً فى صورة التمثيل القصصى الخيالى.

وأضاف أن هؤلاء البلاغيين القدامى قد تنبهوا إلى تلك الحقيقة الفنية التى نص عليها النقاد المحدثون حين قرروا أن الأدب يتناول الأشياء لا كما هى، بل كما تبدو فى ظاهرها، ولا كما هى كائنة فى ذاتها، بل كما تدركها الحواس، وتؤثر فى مشاعرنا وعواطفنا. ومما يدل على فطنة البلاغيين القدامى لهذه الحقيقة الفنية : اكتفاؤهم فى مسألة "اللزوم" باللزوم الذهنى الذى يقوم على العرف والعادة، و لم يتطلبوا اللزوم العقلى المنطقى الذى يقوم على حقائق الأشياء فى ذاتها، واكتفاؤهم باللزوم العرفى فى المسائل البيانية من تشبيه واستعارة، وكناية وتمثيل، ومن قص القصص لضرب الأمثال والهداية -جعل البلاغيين -فى تصور الدكتور خلف الله- فى حل تام من أن يعتمدوا من مسائل التاريخ وقضاياه ما هو المشهور المتداول حين يقصون القصص أو يضربون الأمثال، فلا يتحتم عندهم مطابقة هذا المشهور المتداول للحق والواقع، لأنها المطابقة التى تلزم للمؤرخ والفيلسوف دون الشاعر أو القصاص، فهذان الأخيران قد يعتمدان على الواقع النفسى والمشهور والمتداول، ولا يعتمدان على الواقع التاريخى أو الصور الحقيقية لأحداث التاريخ.

وواضح كل الوضوح أن الدكتور خلف الله يقصد من وراء كل هذا الكلام أن يسوى بين القرآن والفنان فى الإبداع القصصى، وأن يقايس بين القصص القرآنى، والقصص الفنى الحر، فما القصص القرآنى -فى حسابه- إلا ضرب من الفن القصصى الذى تمزج فيه الحقيقة بالخيال، والواقع بالوهم والمحال !

والقرآن الكريم عنده كان يجرى فى بعض ألوان قصصه على الخيال والعرف والعادة، لا على ما هو الحقيقة العقلية أو الحق والواقع من التاريخ، ومن ذلك تلك القصص التى سبق ذكرها.

لقد أوضحت آنفًا أنه حاول بشتى الطرق والوسائل إثبات وجود القصص الخيالى المخترع، والقياس الشعرى المبتدع فى القرآن الكريم، ولذلك نراه يتحدث مرة أخرى عن اعتماده فى تقرير ما ادعاه على ما قاله البلاغيون القدامى، فيذكر

أنهم لمسوا الحقيقة الفنيـة أو الأدبيـة، حـين عرفـوا الصـدق فـى كتبهـم؛ بـل وحـين اختلفوا فى هذا التعريف، وأنهم -أيضًا- أضروا بالدراسة الأدبيـة حـين وقفـوا عنـد الصدق المنطقى، ورجحوا التعريف الذى يذكر أن الصدق : مطابقة القـول للواقـع، فإنهم بذلك التعريف حملوا غيرهم من المفسرين ورجال الدين علـى عـدم الاعـتراف باحتواء القرآن الكريم وكـلام الأنبيـاء علـى القيـاس الشعرى والقصـص الخيـالى أو الحقيقة الفنية !

وأضاف أن سر اختلافهم فى تحديد معنى "الصدق" إنما يعود إلى انقسامهم إلى فريقين : فريق لم يؤمن إلا بالصدق العقلى وهو مطابقة القول للواقع، ومـن هنـا أنكر هذا الفريق أو نسى ألوان الصـدق الأخـرى، ورأوا فـى المعـانى التـى تـرد فـى صورة التمثيل أو التخييل ضربًا من الكـذب لا يليـق بـالقرآن الكريـم. أمـا الفريـق الآخر فيصفه الدكتور خلف الله بالفريق الذى وفق وفطن إلى الحقيقة الأدبية، ودنـا من مذهب النقاد المحدثين فى معنى الصدق الفنى، وبالتـالى لم ينظر هـذا الفريـق إلى مسألة اعتماد القرآن الكريم على عنصر الخيال القصصى تلك النظـرة القـاصرة التـى تعد هذا الأمر كذبًا لا يليق بالقرآن، ولا بملائكته وأنبيائه أجمعين.. وإنما مضـى هـذا الفريق الثانى على عكس ما ذهب إليه الأولون، ففـى القـرآن الكريـم مواضـع منهـا قصة الخصم مع داود عليه السلام جاءت على سبيل الخيال والفرض والتصويـر، ولا تعد -بالمقياس الفنى للصدق - كذبًا.. ففيها صدق فنى، لكنها كلها وليدة الخيـال، وليس من قبيل القصص التاريخى الواقعى. فالحقيقـة لهـا صورتـان : أدبيـة وعقليـة، والصدق كذلك : فنى وعقلى. وإذا كـان الثـانى هـو مطابقـة القـول للواقـع، فـإن الأول هو الصدق فى تصوير ما يخلقـه الوجـدان ويلفقـه الخيـال.. هـو الصـدق فـى التعبير عما هو فى النفس من آراء وأفكار، أو عواطف ومشاعر، وكل ذلك يؤمن به الدكتور خلف الله، ولأن القصص القرآنى فـى وهمـه قصـص فنـى هـو والقصـص البشرى سواء، فإن القرآن الكريم يحتوى على قصص الخيال، وعلى القياس الشعرى كذلك ! وإنه ليؤمن بذلك كما آمن بما سبق ذكره !

وهكذا نرى حرص هذا الرجل على تطبيق العديد من المقاييس النقدية المعروفة على القصص القرآنى المعجز، ليثبت -كاذبًا- أن القرآن الكريم يجرى فى المضمار الفنى بما تقر به معارفنا البلاغية والنقدية الذائعة.

وليس خافيًا أن هذا الأساس الذى اعتمد عليه يدل دلالة قاطعة على أنه تكلف مختلف ضروب المنطق فى إثبات تلك الأبطولة، وحبك خيوطها. فإن كنت لا ترى فى ذلك دليلاً على ما قلنا، فارجع إلى كتابه "الفن القصصى فى القرآن الكريم" لترى أنه لم يقف عند حد الاستدلال بما حكاه عن البلاغيين القدماء، بل حاول الاستدلال على وجود القصص الخيالى فى القرآن الكريم بأمور يمكن حصرها فيما يلى :

١-ادعى أن اشتمال القرآن الكريم على ذلك أمر يشهد به الواقع القرآنى، كتلك النماذج والشواهد التى ساقها والتى سبق ذكرها.

٢-ذكر أن الإمام الزمخشرى من المفسرين القدماء يعترف باحتواء القرآن الكريم على التمثيل الذى يكون بالصور المفروضة المتخيلة فى الذهن أو التى يخترعها الخيال، وأن لهذه الصور قوتها التى قد تكون أوقع فى الذهن، وآكد فى النفس من الصور التى تمثل الحقيقة!

وساق الدكتور خلف الله فى هذا الصدد كلام الزمشخرى الدال على ما سبق، عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1] ، وتفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2]، حيث يذهب الزمخشرى -فعلاً- إلى

---

[1] الأحزاب، الآية ٧٢.

[2] الزمر، الآية ٦٧.

أن هاتين الآيتين تخييل، فالآية الأولى عنده تمثل «حال التكليف فى صعوبة وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها»[1]، والآية الثانية -فى جملتها ومجموعها- تصوير تخييلى لعظمة البارى، وتوقيف تمثيلى على كنه جلاله ليس غير، دون ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقية أو جهة مجاز... إلخ ما قال الزمخشرى[2].

٣- استدل أيضًا بقول النيسابورى: «ونحن نرى أن الإنسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبغى، فإذا ذكر المثال اتضح وانكشف، وذلك أن من طبع الخيال حب المحاكاة، فإذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل، ولكن مع منازعة الخيال، ولاشك أن الثانى يكون أكمل، وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح وجب ذكره فى الكتاب الذى أنزل تبيانًا لكل شىء»[3].

٤- واستدل بقول ابن قتيبة: «قال لنا إسحاق: عيب وكيع بقوله: "هو أحل من الماء"، لأنه إن كان حلالاً وهو بمنزلة الماء فكيف جعله أحل منه، ونحن نقول: إنه ليس يلحق وكيعًا فى هذا الموضوع عيب، ولا يرجع عليه منه عتب، لأن كلمته خرجت مخرج كلام العرب فى مبالغتهم فى الوصف واستقصائهم بالمدح والذم. يقولون: "هو أشهر من الصبح وأسرع من البرق وأبعد من النجم"، وليس ذلك بكذب، لأن السامع له يعرف مذهب القائل فيه: وكلهم متواطئون عليه، كذلك قوله: «هو أحل من الماء: يريد المبالغة فى وصفه بالتحليل»[4].

وواضح أن كلام ابن قتيبة لا يتضمن اعترافًا منه بوجود القصص الخيالى والقياس الشعرى فى القرآن الكريم، مما يؤكد ما سبق ذكره من تكلف الدكتور خلف الله شتى ضروب المنطق فى نسج أبطولته وحبك خيوطها.

---

[1] الكشاف، ج٣، ص٢٢٧.

[2] راجع، السابق، ص٤٠٨.

[3] غرائب القرآن، ج١، ص ١٩٥.

[4] كتاب الأشربة، ص٥٤.

٥- استدل على أن قصة الخصم الذين تسوروا المحراب قصة خيالية بنصوص نقلها عن الزمخشرى، والرازى وأبى السعود، والبغوى، وأبى حيان، وأدعى أنها تمثل اعترافهم بما ذهب إليه!

٦- استدل على أن قصة العزيز مع حماره خيالية بقول صاحب المنار: «ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل وا لله أعلم»[1].

٧- استدل على أن قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف خيالية بأن بعض القدماء من المفسرين قد ذهب فيما روى عنهم ابن كثير إلى أن هذه ليست قصة واقعية، وإنما هي مثل، وبأن ناشر تفسير ابن كثير قد كتب على الهامش هذه العبارة: «يعنى أنها ضرب مثل لا قصة واقعية»!

٨- استدل على أن قصة إبراهيم مع الطيور الأربعة قصة خيالية برأى أورده الإمام الرازى لأبى مسلم، وفيه ينكر ما أجمع عليه المفسرون من أن الخليل عليه السلام قطع أعضاءها ولحومها وريشها ودماءها وخلط بعضها على بعض. ويزعم أن «إبراهيم عليه السلام لما طلب إحياء الموتى من الله تعالى أراه الله تعالى مثالاً قرب به الأمر عليه، والمراد بصرهن إليك: الإمالة والتمرين على الإجابة. أى فعود الطير الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأتتك، فإذا صارت كذلك فاجعل على كل جبل واحدًا حال حياته ثم ادعهن يأتينك سعيًا. والغرض منه: ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة»[2].

كذلك استدل الدكتور خلف الله على خيالية هذه القصة بتعليق لصاحب المنار على رأى أبى مسلم يقول فيه: «وجملة القول: أن تفسير أبى مسلم للآية هو المتبادر الذى يدل عليه النظم، وهو الذى يجلى الحقيقة فى المسألة. وما صرف

---

[1] تفسير المنار ج٣، ص٤٤.

[2] تفسير الرازى، ج٧، ص٤٥.

جمهور المتقدمين عن هذا المعنى على وضوحه إلا الرواية بأنه جاء بأربعة طيور من جنس كذا وكذا، وقطعها وفرقها على جبال الدنيا، ثم دعاها فطار كل جزء إلى مناسبه حتى كانت طيورًا تسرع إليه، فأرادوا تطبيق الكلام على هذا ولو بالتكلف. وأما المتأخرون فهمّهم أن يكون فى الكلام خصائص للأنبياء من الخوارق الكونية، وإن كان المقام مقام العلم والبيان والإخراج من الظلمات إلى النور وهو أكبر الآيات. ولكن أهل زمان غرام فى شيء من الأشياء يتحكم فى عقولهم وأفهامهم. والواجب على من يريد فهم كتاب الله أن يتجرد من التأثر بكل ما هو خارج عنه، فإنه الحاكم على كل شيء ولا يحكم عليه شيء.. و لله دار أبى مسلم ما أدق فهمه وأشد استقلاله فيه»[1] .

٩- استدل على أن قصة قابيل وهابيل خيالية فنية بنصين أولهما لأبى حيان، والآخر لصاحب المنار، وأدعى الدكتور خلف الله أنهما يصوران اعترافهما بما ذهب إليه وادعاه. ولن أورد النصين هنا لأنهما لا يمثلان من قريب أو بعيد ما ادعاه. وفى وسع القارىء أن يطلع عليهما فى كتاب الدكتور خلف الله ومصدريهما اللذين أشار هو إليهما، للتأكد من حقيقة ما قلناه.

١٠- واستدل الدكتور خلف الله على أن قصة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا..﴾ قصة خيالية بنص نقله عن الإمام الرازى، وفيه يقول: «قصة هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها. التأويل الأول: ما ذكره القفال فقال: إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثال، وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين فى جهلهم وقولهم بالشرك. وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول: هو الذى خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجًا إنسانيًا يساويه فى الإنسانية، فلما تغشى

---

[1] تفسير المنار، المجلد الثانى، الجزء الثالث، ص٤٩.

الزوج زوجته وظهر الحمل دعا الزوج والزوجة ربهما: لئن آتيتنا ولـدًا صالحًا سويًا لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك. فلما آتاهمـا الله ولـدًا صالحًا سويًا جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما، لأنهم تـارة ينسبون ذلـك الولد إلى الطبائع كما فى قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكـب كمـا هـو قـول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هـو قـول عبـدة الأصنـام. ثـم قـال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى تنزه الله عن ذلك الشرك. وهذا جـواب فى غاية الصحة والسداد»[1].

١١- وأخيرًا فإن الدكتور خلف الله قد استدل على أن قصة آدم من ذلك الضـرب القصصى الذى أدعى وجوده فى القرآن الكريم -بكلام نقله عن تفسير الإمـام الطبرى لهذه القصة فى سورتى البقرة و"ص"، وادعـى الدكتـور خلـف الله أن الواضح من كلام الطبرى هذا أنه يجعل قصة آدم تمثيلية، وأن إبليـس فـى هـذه القصة إنما يمثل يهود المدينة المنورة الذين كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم، وأبوا الانقياد له، والتصديق بما جـاء بـه استكبارًا عـن أن يكونـوا تبعًـا لرجـل منهم!

ولن أورد -هنا- ما نقله الدكتور خلف الله عن الإمام الطبرى، وادعى أنه يمثل اعتراف هذا المفسر الكبير بوجود القصة الخيالية الفنية فى القرآن الكريم، وذلك من باب الإيجاز والاختصار فى عرض هذه الأبطولة فضلاً عـن أن كـلام الطـبرى لا يشير إلى اعترافه بما ذهب إليه الدكتور خلف الله وادعاه. وفـى إمكـان القـارىء -أيضًا- أن يتأكد من ذلك بالرجوع إلى كتاب الدكتور خلـف الله، فـالنص منقـول هناك!

كذلك استدل الدكتور خلف الله فى هـذا الصـدد بنـص نقلـه مـن تفسـير "المنار" وزعم أنه نص واضح جلى يصور رأى الإمام الشيخ محمد عبـده فـى القصـة

---

[1] تفسير الرازى ج١٥، ص٩١.

التمثيلية، ولن أنقل -هنا- هذا النص، وحسبى أن أشير إلى أنه النص الذى أورد فيه صاحب المنار تفسير هذه القصة على طريقة الخلف فى التمثيل، بعد أن أورد تفسيرها على طريقة السلف وهو التفسير الصحيح.

هذه هى الأدلة الى استند إليها الدكتور محمد أحمد خلف الله حين بات يدعى اشتمال القرآن الكريم على قصص متولد من الخيال، وعلى قياس شعرى ما أزال حتى الآن أجهل ما يعنيه منه، فشكل هذا القياس فى كتاب الله لم تبصره عيناى، ولا سمعته أذناى، حتى لأمشى وقلبى على كفى أقول: ألا من عالم يدلنى على هذا القياس الذى يدعى الدكتور خلف الله وجوده فىالقرآن الكريم، فلا وربك هذا القلب ما التفتت عين إليه، فمن أين جاء به صاحب "الفن القصصى فى القرآن الكريم"؟! وهل نسى قول الله تعالى فى وصف قرآنه المجيد: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟![1]

أكاد أجزم بأنه لم ينس هذا القول الكريم، ولكنه أهمله فى سبيل تقرير أن القرآن الكريم يحتوى على قياس شعرى، وعلى قصص خيالى لم يقف الدكتور خلف الله عند مجرد نسبة ادعائهما إلى نفسه، وأنه -وحده- صاحب هذه النظرة الخاطئة، بل بات يدعى أن الاعتماد على الخيال القصصى أسلوب من أساليب القرآن الكريم، وأن القصة الخيالية موجودة فى القرآن الكريم، وأنها قصة تمثيلية فنية، باعتراف أئمة التفسير قديمًا وحديثًا، بل راح يعلن أنها عند هؤلاء الأئمة الأعلام أدخل فى باب الفن والأدب من القصة التاريخية، وأنهم ربطوا بينها وبين الفن القصصى بأكثر من رباط، وأنهم نصوا نصًا على وجود هذا الضرب فى القرآن الكريم، وعلى أنه الضرب القصصى القرآنى الذى لا يلزم فى أحداثه أن تكون قد وقعت، ولا فى أشخاصه أن يكونوا قد وجدوا، ولا فى حواره أن يكون قد صدر،

---

[1] راجع: الفن القصصى فى القرآن الكريم، ص١٥١، ١٦٧.

بل يكتفى فى جميع ذلك أو بعضه بالفرض والخيال والاختراع الذى تستدعيه حاجة البشر إليه، وجريهم فى بلاغتهم عليه!

هكذا كان الدكتور خلف الله خاطب ليل، يتكلف شتى ضروب المنطق، ويورد الدليل تلو الدليل فى سبيل النتيجة الخاطئة التى وصل إليها، والتى دفعته إلى ضرب من الزهو والغرور نستشعره من قوله فى نهاية المطاف ملخصًا جميع ما سبق ذكره: «وهكذا نستطيع أن ننتهى من الحديث عن هذا اللون القصصى إلى القول بأن القصة التمثيلية أو الخيالية موجودة فى القرآن الكريم، باعتراف أئمة التفسير من القدماء والمحدثين، وبأن القصة التمثيلية قصة أدبية، وأنها تدخل تحت صوره من صور التعريف الأدبى للقصة وهى: (القصة هى العمل الأدبى الذى يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له، أو من بطل له وجود، ولكن الأحداث التى ألمت به لم تقع به أصلاً)، كما نستطيع أن نقول: بأنا بعد كل ما تقدم لن نجد من يعارض فى وجود القصة التمثيلية فى القرآن الكريم، وأنها وليدة الخيال، وأن الخيال إنما يسود هذا النوع من القصص لحاجة البشر إليه، وجريهم فى بلاغتهم عليه، والله سبحانه وتعالى إنما يحدثهم من هذا بما يعتادون»!![1].

أما أنا فأقول له: إننى أعارضك؛ بل من أشد المعارضين لك فيما أدعيت، وفيما نسجت من أباطيل تمثل طعنًا خطيرًا على القرآن الكريم، إذ لا يوجد فى القرآن الكريم قياس شعرى، ولا قصص خيالى، فلقد التزم هذا الكتاب طريقة واحدة فى قصصه المعجز.. طريقة تقوم على الصدق التاريخى والبيانى معًا فى سائر ما عرضه من قصص.. طريقة تقوم على التحرى الصادق عن الحقيقة والالتزام التام بها فى الأحداث التى يصورها القصص، وفى الحوار الذى يتضمنه، وفى الأشخاص الدين يدور بينهم هذا الحوار، وتستند إليه تلك الأحداث... وفى ما عدا ذلك من سائر جوانب القصص القرآنى المعجز.

---

[1] السابق ص١٦٨

وليس فى القصص القرآنى صورة من تلك الصور التى اخترعها ولفقها الدكتور خلف الله، وزعم أنها موجودة فى كتاب الله الحق الصادق، وراح يحتطب دليلاً من هنا، ودليلاً من هناك، فى محاولة منه لتقرير هذه الأباطيل، وتلك الدعاوى والتخرصات، متجاهلاً أن القرآن الكريم سواء فى القصص أو غيره من فنون القول وضروب الكلام إنما ينفرد بطابعه الخاص المعجز، وأن كل محاولة لتطبيق التعريف الأدبى للقصة الفنية عليه ضرب من العبث النقدى، والهراء الأدبى، وأن كل جهد يبذل فى تطبيق المقاييس أو المعايير النقدية الذائعة على القرآن الكريم وقصصه إنما هو جهد لا يرقى بتلك المعايير إلى تجلية حقائق الإعجاز فيه.. فإن القرآن الكريم- ومنه القصص- أعلى وأسمى من أن يحد بمقياس نقدى بشرى إن أصاب مُرَيْرة، فإنه ليخطىء مرات ومرات.

إننى مع الدكتور خلف الله فى أن البلاغيين القدامى قد تحدثوا عن التشبيهات والاستعارات التمثيلية ومسائل التوسع واللزوم والتمثيل والتخييل، وأنهم فطنوا أو لمسوا ما يسميه النقاد المحدثون بالصدق الفنى فى الأدب شعرًا ونثرًا وقصة ورسالة ومقالة ومسرحية، وما إلى ذلك مما تبدعه أخيله الشعراء والكتاب والأدباء، لكن هل معنى ذلك أن ننفى الصدق الحقيقى عن بعض القصص القرآنى، وندعى أن القصص القرآنى يشبه القصص الفنى الحر، ولذلك يشتمل على تلك الصور الخيالية التى لا يلتزم أن تكون أحداثها قد وقعت، ولا يلزم أن يكون الحوار فيها قد صدر، ولا فى الأشخاص الذين ترسمهم القصة أن يكونوا قد وجدوا؟!

على أن جميع ما ذكره من حديث البلاغيين القدامى يخلو من مجرد الإشارة إلى أن هذه القصص القرآنية التى أوردها خيالية.. لقد حكى لنا الدكتور خلف الله كيفية فطنة هؤلاء البلاغيين للحقيقة الفنية، واختلافهم حول تعريف الصدق، واللون الذى يؤمن به كل فريق من ألوان هذا الصدق. ولم يدلنا حتى على نص واحد - كتلك النصوص العديدة التى نقلها عن المفسرين- يدل من قريب أو بعيد

على أن قصة آدم وغيرها من القصص التى ذكرها جاءت فى القرآن الكريم وليدة الخيال!

إن الواقع الذى نلمسه فى القصص القرآنى ليحملنى على رفض منهج القول بوجود القصص الخيالى والقياس الشعرى فيه، لأن الخيال القصصى إنما يلجأ إليه أولئك القصاصون الذين يزخرفون الفن القصصى بما تمليه عليه أخيلتهم وتصوراتهم الذهنية. أما الحق سبحانه فقد أغنى قصصه بدقة النظم والأداء، وروعة السرد والبيان، وليس معنى ذلك أن القرآن الكريم ينأى بشىء مما فيه عن الأدب الرفيع، ولكن الأدب الرفيع فى هذا الكتاب الخالد لا يتجاوز "الصدق التاريخى" فيما يقصه علينا من قصص. ومن هنا نرحب كل الترحيب بمن ينفى وجود القصص الخيالى فى القرآن الكريم على اعتبار أنه لون من التخيل والافتراض، لأن ذلك التخيل والافتراض يختلفان كل الاختلاف عن الحقيقة، إذ يفسح فيها المجال لانتحال أمور غريبة عنها، وإذا جوزنا وجود القصص التمثيلى -بهذا المعنى- فى القرآن الكريم، فإن ذلك سيجرنا إلى إنكار كثير من الحقائق التى تضمنتها الآيات الدالة على القدرة الإلهية والإعجاز الربانى فى هذا القصص العظيم.

وإذا كان الدكتور خلف الله يعتمد على أن الإمام الزمخشرى قد صرح واعترف بوجود التمثيل والتخييل فى القرآن الكريم، فقد نسى الدكتور خلف الله أو تناسى أن الإمام الزمخشرى كان معتزلى الاعتقاد، متظاهرًا باعتزاله، حتى نقل عنه: «أنه كان إذا قصد صاحبًا له، واستأذن عليه فى الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له: أبو القاسم المعتزلى بالباب»[1].

ومعلوم أن المعتزلة هم أول من قال بهذا التمثييل والتخييل، وفسروا آيات من القرآن الكريم على هدى منه، ومن ثم جاء تفسيرالكشاف للزمخشرى مليئًا بهذا اللون من التفسير التخييلى المتأثر بعقيدة صاحبه الاعتزالية.. تلك العقيدة التى جعلته

[1] وفيات الأعيان (ترجمة الزمخشرى).

يميل بالألفاظ القرآنية إلى المعاني التي تشهد لمذهبه أو يؤولها بحيث لا تتناقض معه على الأقل، فرأيناه في تفسيره للقرآن الكريم يعتمد على الفروض المجازية في كل كلام يبدو -في حقيقته- بعيدًا وغريبًا، ويتذرع بالتمثيل والتخييل فيما يستبعد ظاهره.

وقد أثارت هذه الطريقة التي اعتمد عليها حفيظة خصمه السني ابن المنير الإسكندري عليه، فاتهمه بأشنع التهم في كثير من المواضع التي جاءت تحمل هذه السمة، بل نسبه فيها إلى قلة الأدب وعدم الذوق.

فعلى سبيل المثال عندما يقول الزمخشري في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ..﴾[1] : «هذا تمثيل وتخييل، كما مر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾.. وقد دل عليه قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ والغرض توبيخ الإنسان على قسوه قلبه، وقلة تخشعه، عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره»[2]

عندما قال الزمخشري هذا الكلام غضب ابن المنير، فقال معقبًا عليه: «وهذا مما تقدم إنكاري عليه فيه، أفلا كان يتأدب بأدب الآية حين سمى الله هذا مثلاً، ولم يقل: تلك الخيالات نضربها للناس؟ ألهمنا الله حسن الأدب معه. والله الموفق»[3] .

وكذلك عندما قال الزمخشري عن قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[4] .

«إن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط، ولا كرسي ثمة، ولا قعود، ولا قاعد، كقوله:

---

[1] الحشر، الآية ٢١.

[2] الكشاف، ج٤، ص٨٧.

[3] حاشية ابن المنير على هامش الكشاف، ج٤، ص٨٨.

[4] البقرة: ٢٥٥.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ من غير تصور قبضة وطى يمين، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه وتمثيل حسى»[1].

لم يرتض ابن المنير هذا الكلام، فتعقبه بقوله: «قوله: إن ذلك تخييل للعظمة، سواء أدب فى الإطلاق، وبعد فى الإصرار، فإن التخييل إنما يستعمل فى الأباطيل وما ليست له حقيقةصدق، فإن يكن معنى ما قاله صحيحًا، فقد أخطأ فى التعبير عنه بعبارة موهمة، لا مدخل لها فى الأدب الشرعى، وسيأتى لها أمثالها مما يوجب الأدب أن يجتنب»[2].

كذلك حينما ذهب الزمخشرى إلى أن قصة العهد فى عالم الذر الواردة فى سورة الأعراف[3] والمشار إليها فى سورة الحديد[4] -إنما هى قصة جاءت على التمثيل والتخييل، ومعناها عند الزمخشرى «أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها فيهم، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك.. وباب التمثيل واسع فى كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفى كلام العرب»[5]

حينما قال الزمشخرى هذا الكلام لم يرضَه ابن المنير منه أيضًا، ولذلك تعقبه بقوله: «قال أحمد: إطلاق التمثيل أحسن، وقد رد الشرع به، وإماإطلاقه التخييل على كلام الله تعالى فمردود، و لم يرد به سمع، وقد كثر إنكارنا عليه لهذه

---

[1] الكشاف: ج١، ص٣٨٥.

[2] حاشية ابن المنير، ج١، ص٣٨٥.

[3] راجع: الآيتين ١٧١، ١٧٢.

[4] راجع: الآية ٨.

[5] الكشاف، ج٢ ص١٢٩.

اللفظة، ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف المعقول يجب إقراره على ما هو عليه، فكذلك أقره الأكثرون على ظاهره وحقيقته، ولم يجعلوه مثالاً. وأما كيفية الإخراج والمخاطبة فالله أعلم بذلك»[1] .

وهكذا حينما حمل الزمخشرى لفظ "الميثاق" فى آية الحديد، على نفس المعنى الذى حمل عليه أخذ العهد فى آية الأعراف.. وهو التمثيل والتخييل.. رد عليه ابن المنير، وشدد عليه النكير فقال: «وما عليه أن يحمل أخذ الميثاق على ما بين الله فى آية غير هذه.. ولقد يريبنى منه إنكار لكثير من مثل هذه الظواهر، والعدول بها عن حقائقها مع إمكانها عقلاً، ووقوعها بالسمع قطعًا، إلى ما يتوهمه من تمثيل يسميه تخييلاً. فالقاعدة التى تعتمد عليها كى لا يضرك ما يومىء إليه: أن كل ما جوزه العقل، وورد بوقوعه السمع، وجب حمله على ظاهره والله الموفق»[2] .

فات على الدكتور خلف الله ما سبق ذكره، ونسى أو تناسى أن ابن المنير قد ناقش وعقب على كل ما سماه الزمخشرى تمثيلاً وتخييلاً، ليتناسب مع مذهبه الاعتزالى، ويتفق مع هواه.. أبطل القاضى المالكى كل هذا، فكيف يعتد الدكتور خلف الله بكلام الزمخشرى، ويستنتج منه تلك النتائج التى سردها؟! والتى انتهى منها هى وغيرها إلى ادعاء اشتمال القرآن الكريم على القصص التمثيلى المبنى على الفرضيات والمتخيلات؟!!

أما بالنسبة للنص الذى نقله عن "النيسابورى" والذى يقول فى آخره: «وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح وجب ذكره فى الكتاب الذى أنزل تبيانًا لكل شىء»، فإن النص -كما نرى- لا ينص على أن القصص التى أوردها الدكتور خلف الله من القرآن إنما هى قصص خيالية لا واقعية.. فالنيسابورى -بهذا النص- يشير إلى تشبيه التمثيل والاستعارة التمثيلية ونحوهما من ألوان الخيال

---

[1] الحاشية ج٢، ١٢٩، ١٣٠.

[2] الحاشية، ج٤، ص٦٢.

التعبيرى الذى لا أنكر وجوده فى القرآن الكريم من نحو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً..﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ...﴾[2] وغير ذلك من الشواهد المماثلة التى تحدث عنها البلاغيون القدامى على أنها تمثيلات من ميدان الخيال التعبيرى الذى يقرب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، وما شابه ذلك من فوائد التشبيه التمثيلى والاستعارة التمثيلية.

إن الدكتور خلف الله قد التبس عليه أمر الخيال، وحديث البلاغيين القدامى عنه، ونسى أو تجاهل أن الخيال ضربان: خيال قصصى، وخيال تعبيرى.. وهى مسألة مهمة لابد من الفطنة إليها حين نحاول درس القصص القرآنى على منهاج أدبى مستقيم، ففى القرآن الكريم ألوان من الخيال التعبيرى، وليس فيه مثقال ذرة من الخيال القصصى.

وإذا كان الدكتور خلف الله قد تطاول وأساء الأدب، حيث بات يرمى رجال الأزهر الشريف بعقم الثقافة القصصية الفنية الحديثة، فإننى أذكر- هنا- علمًا من أعلام الأزهر، هو الأستاذ الدكتور "إبراهيم عوضين" كان سباقًا إلى فهم هذه التفرقة التى أوضحتها سابقًا بين الخيال القصصى والخيال التعبيرى، وذلك حين قرر أن «الخيال القصصى إضافات من صنع الخيال تربط بين الأحداث الواقعية، حتى يتم النسج القصصى، ويلتحم على الوجه الذى يعتقد الكاتب أنه المناسب، ويرى أن أحداث القصة لا تكون مقنعة للقارىء إلا بذلك. أما الخيال التعبيرى فهو ذلك التصوير لأثر الحقائق الواقعة حتى يحس القارىء بما يحس به الكاتب، أو بما يحس به من يقع فى دائرة الحس. فالخيال التعبيرى لا يضيف شيئًا إلى الحقائق، ولا يغير من طبيعتها، وإنما يقدمها بحالها مكسوة بلباس يكشف عما قد يخفى من مكنونها»[3].

---

[1] سورة النور، الآية ٣٩.

[2] سوورة يونس، الآية ٢٤.

[3] البيان القصصى، ص١٠٧.

وانطلاقًا مما قرره الأستاذ الدكتور إبراهيم عوضين يمكننا أن نقول في الرد على الدكتور خلف الله : إن مخاطبة القرآن الكريم للعرب ببعض ما كان يجرى على سننهم لا يلزم منهم مخالفة الحقيقة والواقع، لأن ذلك لون من التمثيل البيانى التعبيرى الذى يضفى لونًا من الجمال التصويرى على الحقائق فيجليها ويزينها، وليس من التمثيل الخيالى القصصى الذى ينتحل للحقائق والوقائع أسماء لا تنطبق عليها بحال، فكان واجبًا على الدكتور خلف الله الذي يتهم الأزهريين بعقم الثقافة القصصية أن ينتبه إلى التمثيل البيانى يقرب الحقائق، وأنه يختلف عن التمثيل الخيالى الذى يختلف مع الحقائق كل الاختلاف، فهو فى وادٍ، وهى فى وادٍ آخر، وليس ثمة ما يبرر ادعاءه بأن القرآن الكريم قد جرى على ما كانت تعتقده العرب وتتخيله، ولم يجرِ على الحقيقة العقلية والواقع العملى.

لقد ضاق الأفق الفكرى، والتذوق الوجدانى عند الدكتور خلف الله، فلم يستطع التمييز بين الخيال القصصى والخيال التعبيرى، فأساء إلى نفسه، وأساء إلى عمله، وخبط فيما قال خبط عشواء، وسقط سقوط من يتناول موضوعًا فوق طاقته، وكان مما زاد الطين بلة أنه فى جميع ما نقله عن أئمة التفسير قديمًا وحديثًا مدلس فى النقل، لأنه بتر ما نقله ولم يتمه، وأخفى منه ما يبين المراد منه تمويهًا للحقيقة وإلباسًا على الناس. ومن أمثلة ذلك قوله -مستدلاً على أن قصة سيدنا داود مع الخصم الذين تسوروا المحراب خيالية :

«جاء فى الرازى ما يلى : المسألة الثانية : ها هنا قولان : الأول : أنهما كانا ملكين نزلا من السماء و أرادا تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذى أقدم عليه. والثانى : أنهما كانا إنسانين، ودخلا عليه للشر والقتل، فظنا أنهما يجدانه خاليًا، فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر. أما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليهم بأنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى : ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ ولقوله : ﴿وَيَفْعَلُونَ

﴿مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أجاب الذاهبون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا : إن الملكين إنما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل، لا على سبيل التحقيق، فلم يلزم الكذب».

هذا هو ما نقله الدكتور خلف الله عن الإمام الرازى مستدلاً به على أن قصة سيدنا داود مع الخصم الذين تسوروا المحراب خيالية، ومدعيًا أنه يمثل اعتراف الرازى بوجود القصص الخيالى فى القرآن الكريم، على الرغم من أن الإمام الرازى قد قال بعد ذلك مباشرة كلامًا لم ينقله الدكتور خلف الله، وإنما بتر النص بترًا، و لم يتمه، فقد قال الرازى ما يلى : «وأجيب عن هذا الجواب : بأن ما ذكرتم يقتضى العدول عن ظاهر اللفظ، ومعلوم أنه على خلاف الأصل، أما إذا حملنا الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر، ثم وضعا هذا الحديث الباطل، فحينئذ لزم إسناد الكذب إلى شخصين فاسقين، فكان هذا أولى من القول الأول والله أعلم. وأما القائلون بكونهما ملكين فقد احتجوا بوجوه : الأول : اتفاق أكثر المفسرين عليه، والثانى : أنه أرفع منزلة من أن يتسور عليه آحاد الرعية فى حال تعبده، فيجب أن يكون ذلك من الملائكة، الثالث : أن قوله تعالى : ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ كالدلالة على كونهما ملكين، لأن من هو من رعيته لا يكاد يقول له مثل ذلك، مع رفعة منزلته. الرابع : أن قولهما : ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ كالدلة على كونهما ملكين، لأن أحدًا من رعيته لا يتجاسر أن يقول له : لا تظلم ولا تتجاوز عن الحق. واعلم أن ضعف هذه الدلائل ظاهر، ولا حاجة إلى الجواب والله أعلم»[1].

إن هذا النص الذى لم ينقله الدكتور خلف الله عن الإمام الرازى يدل دلالة واضحة على أن الإمام الرازى يروى لنا أقوال الناس حول حقيقة الشخصين

---

[1] تفسير الرازى، ج٢٦، ص١٩٥.

اللذين دخلا على سيدنا داود عليه السلام، وانقسام الناس فى هذه المسألة إلى فريقين : فريق يرى أنهما كانا ملكين من السماء، وفريق يرى أنهما كانا رجلين فاسقين دخلا عليه لغرض الشر، وقد احتج كل فريق بأدلة رد عليها الفريق الآخر. فالإمام الرازى -إذن- كان مجرد راوية لهذا الخلاف، و لم يرد له رأى فى المسألة إلا حين قال فى ختام النص الذى لم ينقله الدكتور خلف الله : «واعلم أن ضعف هذه الدلائل ظاهر، ولا حاجة إلى الجواب والله أعلم». ولاشك أن هذه العبارة تفيد أن الإمام الرازى لا يؤيد من قالوا : إن الشخصين اللذين دخلا على داود كانا ملكين، وأن ما قالوه لداود كان على سبيل ضرب المثل، لا على سبيل التحقيق، فكيف يدعى الدكتور خلف الله زورًا وكذبًا أن الإمام الرازى يعترف بوجود القصة الخيالية فى القرآن الكريم، وأين اعترافه بذلك فى النص المبتور الذى نقله عن هذا المفسر ؟!

لقد فات على الدكتور خلف الله أن أغلب المفسرين إن لم أقل كلهم، يذكرون الآراء التى يعلمونها، والأقوال التى يسمعونها، وأنهم -فى هذا الصدد- يرجحون أحيانًا رواية ويبطلون رواية، وأحيانًا أخرى يوردون كل ما قيل دون ترجيح، تاركين لأهل النظر والبحث والدرس أن يقيموا ميزان الترجيح والتعديل، مثلهم فى ذلك مثل وكلاء النيابة حين يسجلون سائر أقوال الأطراف المتصلين بقضية من القضايا، وفيهم من يتضح كذبه، ولكن وكلاء النيابة بصدد الجمع والإحصاء، وأمامهم مرحلة ثانية هى مرحلة الموازنة والإسقاط، فليس للدكتور خلف الله ومَن نحا نحوه أن يدعى باطلاً من الأباطيل، ثم يستند فى محاولة تقريرها إلى رأى ضعيف ساقه واحد أو أكثر من أئمة التفسير، ثم يدعى صاحب الأبطولة أن أئمة التفسير يعترفون بها، لأننا سنقول له ببساطة : إن هؤلاء الأئمة الأعلام ينقلون الروايات بشتى ضروبها، فالاستناد إليهم فى إثبات ما تدعيه لا يفيد شيئًا فى هذا المجال، وعليك قبل كل شىء : أن تفهم مناهج المفسرين[1].

---

[1] راجع : قضايا إسلامية، د. محمد رجب البيومى، ص١٢٩، ١٣٠.

على أن هناك أمرًا آخر قد تعامى عنه الدكتور خلف الله هو «أن قصص أهل الكتاب قد تراكمت فى أقوال المفسرين لكتاب الله تراكمًا يدعو إلى الدهشة ! إذ كان من بين من أعلنوا إسلامهم فريق من الأحبار درسوا ما جاء بالتوراة والإنجيل من قصص الأنبياء، ثم أخذوا يحدثون به المسلمين تكملة لما فى القرآن من أقاصيص ! وكلنا نعرف ما نسب إلى كعب الأحبار وعبد الله بن سلام ووهب بن منبه من إسرائيليات ظاهرة البطلان صادفت هوى العامة، فتحدث بها القصاص فى المساجد، ثم تناقلها المفسرون كتكملة مثيرة لبعض ما يروون من الأنباء ! وتوالت الأيام فرسخت فى الأذهان وكأنها حقائق قرآنية لا أساطير رهبان ! والحق أن قارئ التوراة والإنجيل بعد ما أصابهما من التحريف لا يلمس فى سير الأنبياء ما يليق بمكانتهم من الرسالة والقدوة، فأكثرهم -كما تصوره- هذه المفتريات خطّاء آثم يرتكب الموبقات وينتهك المحارم ! ومعاذ الله أن يتخذ من العصاة الآثمين رسلاً مبشرين ومنذرين» ![1]

وكان من الآثار الخطيرة الناجمة عن هذه الإسرائيليات أن تورط بعض المفسرين كالزمخشرى، وأبى السعود، والبغوى، وأبى حيان، حيث قرروا أن قصة داود مع الخصم الذين تسوروا المحراب قد جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح لكونها أبلغ فى التوبيخ. فإن المفسرين -بهذا التقرير المتأثر بالإسرائيليات- قد صدقوا الفرية التى تدعى أن سيدنا داود عليه السلام قد أحب زوجة قائده "أوريا" فبعث به إلى المهالك ليتزوجها من بعده، وهو تخرص إسرائيلى كاذب ما أنزل الله به من سلطان، وقد دحضه الإمام الرازى بعدة وجوه، انتهى منها إلى تقرير أن القصة القرآنية قد جاءت على سبيل التحقيق لا على سبيل التمثيل، فلا حاجة إلى حمل الخصمين على الملكين، ولا إلى حمل لفظ "النعجة" الواردة فى القصة على "المرأة"[2]. ومن هنا يسقط استدلال الدكتور خلف الله بهذه القصة على اشتمال القرآن الكريم على القصص التمثيلى الخيالى.

---

[1] السابق، ص١٣١.

[2] راجع كتابه : عصمة الأنبياء، ص٧٦ - ٨٤.

كذلك لا قيمة لاستدلاله على أن قصة العزيز خيالية بقول صاحب المنار : «ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل والله أعلم» لأن صاحب المنار قد جعل الأمر من باب الاحتمال، ومعلوم لنا جميعًا أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال، ويعجبني في هذا الصدد ما قاله الشيخ محمد أبو زهرة عن هذه القصة، فقد قال رحمة الله عليه ما نصه :

«إن هذه القصة واقعية، وليس فى سياق القول ما يدل على أنها تصويرية، والأصل أن تكون حقيقية، فلابد أن أجزاءها قصة واقعة، وليست مجرد مثل تصويرى، وهذه القصة معها دليل واقعى على البعث والنشور، وأنه فى قدرة الله تعالى إعادة الموتى، فمن أنشأ الكون يحيى الموتى،وأننا سنموت كما ننام، ونبعث كما نستيقظ، فهو مثل واقعى لبيان كيف يحيى الله الموتى، فقد مات الرجل مائة عام ثم أحياه الله، ورأى طعامه لم يتغير، ورأى حماره حتى حسب أنه نام يومًا أو بعض يوم، والله على كل شى قدير»[1].

ولا قيمة أيضًا لاستدلال الدكتو خلف الله على دعوى وجود القصة الخيالية فى القرآن الكريم بأن ابن كثير قد روى عن بعض المفسرين القدماءأن قصة الذين خرجوا من ديارهم.. إلخ قصة غير واقعية لأن هذا الرأى يخالف ما عليه أكثر السلف، وقد نقله ابن جريج عن عطاء، ثم أورده ابن كثير فى ثنايا الأقوال المأثورة عن العلماء بصدد هذه القصة. فهو لا يمثل مطلقًا اعتراف ابن كثير بوجود القصص التمثيلى الخيالى فى القرآن الكريم. ولو كان الدكتور خلف الله أمينًا فيما ينقله عن أئمة التفسير من نصوص لأورد لنا قول ابن كثير الدال على واقعية القصة، والداحض لما قاله عطاء : «وذكر غير واحد من السلف : أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة فى زمان بنى إسرائيل استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فرارًا من الموت هاربين إلى البرية، فنزلوا واديًا أفيح، فملأوا ما بين عدوتيه، فأرسل

---

[1] المعجزة الكبرى : القرآن، ص٣٦٣.

الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادى، والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد، فحيزوا إلى حظائر،وبنى عليهم جدران وفنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر مر بهم نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له "حزقيل" فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك... فقاموا أحياء ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة وهم يقولون : "سبحانك لا إله إلا أنت"، وكان فى إحيائهم عبرة، ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسمانى يوم القيامة..»[1] .

لكن الدكتور خلف الله أعرض عما قرره أكثر السلف، واعتمد ما قاله عطاء، وناشر تفسير ابن كثير، مما يؤكد أن الدكتور خلف الله قد اعتمد على الآراء الضعيفة، ودلس فى النقل من أجل أن يروج دعواه الكاذبة التى نحن بصدد التعقيب عليها.

فليست هذه القصة -كما زعم الدكتور خلف الله- خيالية، وإنما هى قصة واقعية عرضها القرآن الكريم فى اختصار كامل، ولكنه وافٍ، وأراد منها العظة والعبرة دون تحديد مكانها وزمانها وأسماء شخوصها... يقول فضيلة الشيخ الشعروای فى بيان الغاية من هذه القصة :

«يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين للأمة الإسلامية كل ما لاقته مواكب الرسل فى الأمم السابقة عليهم ليأخذوا العبرة من الواقع، ويتمثلوا المنهج الإيمانى لا عن نظريات تتلى، ولكن عن واقع تمت دراسته فى المجتمع البشرى.. لأن الحق سبحانه وتعالى قد أمَّن الأمة الإسلامية على حمل رسالة منهج السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة.. ولابد لمثل هذه الأمة المسلمة أن يربيها الحق سبحانه تربية تناسب مهمتها التى حَمَّلها الله إياها، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يكون ضمن مجال الإعداد لهذه الأمة المسلمة : المعرفة اليقينية بأن أمر الحياة وأمر الموت هما بيده وحده سبحانه وتعالى... ولم يعالج الله هذا الأمر بكلام نظرى، وإنما بواقع عملى

[1] تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص٢٩٨.

اختير به أمة من الأمم السابقة على أمة الإسلام.. إنها أمة بنى إسرائيل التى أرسل الله إليها سيدنا موسى عليه السلام.. و لم يعطِ القرآن الكريم فى أى زمان كان هذا الخروج، و على يد مَن كان هذا الخروج، و لم يحدد الأشخاص الذين قاموا بهذا الخروج. وعدم تحديد الحق للزمان أو المكان إنما هو لهدف قرآنى كريم؛ إن هذا التجاهل من الكتاب الكريم للزمان أو المكان إنما المقصود به أن تظل العبرة والعظة واضحة بينة ومحددة فى أنهم خرجوا من الديار ألوفًا حذر الموت، فأماتهم الله، ثم أحياهم... فالإبهام -هنا- هو إثراء للقصة يبين أن الخروج حذر الموت لا يمنع الموت فى أى زمان أو مكان»[1].

وما قاله فضيلة الشيخ الشعراوى آنفًا يؤكد من ناحية أن إبهام بعض العناصر القصصية فى القرآن الكريم إنما يكون لغاية قرآنية سامية، كما أنه من ناحية أخرى يدحضها دعوى الدكتور خلف الله بأن هذه القصة مثل خيالى يدل على وجود القصص التمثيلى الخيالى فى القرآن الكريم، وبذلك يسقط استدلال الدكتور خلف الله بالقصة السابقة على هذه الدعوى الباطلة.

كذلك لا قيمة لاستدلاله برأى أبى مسلم الذى ارتاح له صاحب المنار على أن قصة سيدنا إبراهيم مع الطيور الأربعة قصة خيالية، لأن جميع المفسرين الذين كانوا قبل أبى مسلم وبعده قد أجمعوا على أن هذه القصة حقيقية، وأن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد طلب من ربه فعلاً- أن يريه كيفية إحياء الموتى، فأمره ربه جل شأنه أن يأخذ أربعة من الطير، فيقطعهن أجزاء يفرقها على عدة جبال هناك، ثم يدعوها إليه، فتجيئه، ففعل الخليل عليه السلام ذلك، بأن ذبح الطيور الأربعة ونتفها وقطعها أجزاء، وخلط بعضها ببعض، ثم جعل على كل جبل جزءًا، ثم دعا الطيور الأربعة فأتته مسرعات طيرانًا ومشيًا على أرجلهم.

---

[1] خواطر الشيخ الشعراوى حول سورة البقرة، اللواء الإسلامى، عدد الخميس ٢٦ / ٦ / ١٤٠٤هـ، ص١١، ١٢.

وقد كشفت القصة، والحوار الذى جاء فيها، عن تشوف سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى ملابسة السر الإلهى، ففى أثناء وقوعه العملى «لقد كان ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل، واطمئنان التذوق للسر المحجب وهو يتجلى ويتكشف. ولقد كان الله يعلم إيمان عبده وخليله، ولكنه سؤال الكشف والبيان، والتعريف بهذا الشوق وإعلانه، والتلطف من السيد الكريم الودود الرحيم، مع عبده الأواه الحليم المنيب، ولقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع فى قلب إبراهيم، ومنحه التجربة الذاتية المباشرة.. ورأى إبراهيم السر الإلهى يقع بين يديه، وهو السر الذى يقع فى كل لحظة، ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه. إنه سر هبة الحياة... الحياة التى جاءت أول مرة بعد أن لم تكن، والتى تنشأ مرات لا حصر لها فى كل حى جديد. رأى إبراهيم هذا السر يقع بين يديه.. طيور فارقتها الحياة، وتفرقت مُزقها فى أماكن متباعدة، تدب فيها الحياة مرة أخرى، وتعود إليه سعيًا»[1].

ومما يؤكد واقعية هذه القصة: أن المفسرين ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام ربه كيفية إحياء الموتى أسبابًا من أبرزها أنه لما قال لنمرود: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة، فطلب من ربه سبحانه هذا الطلب[2].

إن فيما ذهب إليه الدكتور خلف الله بصدد هذه القصة دليلاً واضحًا على أنه يجهل أو ينكر معنى المعجزات والخوارق الكونية التى يؤيد الله بها المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وفيه مما يؤكد ما ذكرنا آنفًا من أنه يتخلى عن الآراء الصحيحة المعتمدة لجمهور المفسرين، ويلهث وراء الأقوال الضعيفة الشاذة المجتلبة من هنا وهناك.

---

[1] فى ظلال القرآن، المجلد الأول، ص٣٠٢.

[2] راجع: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣١٥.

أما ادعاؤه بأن قصة قابيل وهابيل خيالية، فمن أقوى الدلائل على أنه كان في كتابه "الفن القصصي في القرآن الكريم" يخبط خبط عشواء دون وعي بما يزعمه، ودون إدراك لما ينسجه من أباطيل، إذ تناقض من حيث لا يشعر مع نفسه، حيث أدعى مرة أنها قصة تمثيلية خيالية تصويرية[1] ، كما سبق البيان، ووصفها في موضع آخر من كتابه بأنها قصة أدبية تاريخية[2] ، ونحن نتساءل في عجب: كيف يتأتى الحدث التاريخي وهو في الوقت ذاته تمثيل وتصوير لم يحدث تاريخيًا؟ كذلك نتساءل في دهشة عن معنى ادعائه الكاذب: إن القرآن الكريم قد جمع في هذه القصة بين عناصر قصصية باعد بينها الزمن ؟

إن الرجل -كما قلت- كان يخبط خبط عشواء في ادعائه وأباطيله، حتى إنه أورد فقرة من تفسير البحر المحيط لأبي حيان بصدد الحديث عن قصة قابيل وهابيل ولدي آدم عليه السلام، وذهب إلى أنهما أخوان من بني إسرائيل، محتجًا بأن القربان إنما كان مشروعًا من بني إسرائيل و لم يكن قبل ذلك. ثم قال أبو حيان: «ووهم الحسن في ذلك. وقيل عليه: كيف يجهل الدفن في بني إسرائيل حتى يقتدي فيه بالغراب».

ثم علق الدكتور خلف الله على هذه الفقرة بكلام أنكر فيه ترجيح أبي حيان بأنهما ولدا آدم عليه السلام، ليتدرج خلف الله من ذلك إلى ادعائه بأن القصة تمثيل خيالي وتصوير بياني بلاغي، وكل ذلك من أجل الوصول إلى ادعاء أنها لم تقع و لم تحدث. وهذا هو ما جعله يتجاهل عن عمد قول الحق سبحانه وتعالى في صدر هذه القصة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ. . .﴾، ولا ريب أن لفظة الحق الواردة في صدر هذه القصة تصفع وجه كل من يزعم عدم واقعيتها، ولو أن الدكتور خلف الله قرأ ما قاله أئمة التفسير عن هذه القصة، لعرف معنى "الحق"،

[1] راجع: ص١٦٤.

[2] راجع: ص١٤٦.

وبُعْد هذه القصة عن التمثيل والخيال، فقد أجمعوا على أن المراد من هـذه الآيـة هـو: التلاوة المتلبسة بالحق والصحة والصدق، الموافقة لما فـى كتـب الأولـين، وللغـرض الصحيح منها وهو تقبيح الحسد. أو أن المراد منها: اتلُ عليهم يـا محمـد نبـأ ولـدى آدم وأنت محق صادق فيما تتلوه عليهم[1].

لقد احتوت هذه القصـة علـى العديـد مـن العنـاصر القصصيـة التـى تثبـت صدقها وواقعيتها وبُعدها عن الخيال، ففيها -مثلاً- ذلك الحوار الصـادق الـذى دار بين قابيل وهابيل :

قال : لأقتلنك

قال : إنما يتقبل الله من المتقين... إلخ

وكذلـك "إذ" الظرفيـة فـى قولـه تعـالى : ﴿إذ قربا قربانًا﴾، فهـى -بـدون شك- تلفت الأنظار إلى تذكر الزمن الذى دارت فيه أحداث القصة. ثم قوله تعالى عقب هذه القصة : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

فهذه الآية الكريمة حكم تشريعى سماوى مترتب على ما كان مـن أحـداث فى هذه القصة، وفيـه دلالـة علـى صدقهـا وحدوثهـا، وابتعادهـا عـن مجـال التمثيـل والخيال.

على أن السنة النبوية الشريفة قـد تضمنـت مـا يؤكـد صـدق هـذه القصـة وواقعيتها، فقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبـد الله بـن مسعود قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : «لا تُقتل نفـس ظلمًـا، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنـه كـان أول مـن سَنَّ القتـل» أخرجـه الجماعة سوى أبى داود[2] .

---

[1] راجع -مثلاً- تفسير الكشاف، ج١، ص ٦٠٦.

[2] تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٢، ص٤٥.

وإذا كان الدكتور خلف الله قد استدل على أن هذه القصة تمثيل بقول صاحب المنار بصدد حديثه عن حب الإخوة : «والحق فيما قصه علينا الوحى من قتل قابيل : أنه بيان لما فى استعداد البشر من التنازع بين غرائز الفطرة.. إلخ ما قال»، فإن هذا النص نفسه يرد على الدكتور خلف الله بأن القصة حق لاشك فيه.

وفضلاً عن ذلك، فإن صاحب المنار قال فى موضع آخر : «والجمهور على أن هذين الابنين هما ابنا آدم من صلبه... وفى سفر التكوين : أنهما أول أولاد آدم»[1]. وذكر فى موضع ثالث : أنها موجودة فى الفصل الرابع من سفر التكوين، ثم أورد ملخصه الدال على وقوعها وحدوثها[2]. وقال فى موضع رابع : «إن قصة ابنى آدم أقدم قصة تدلنا على أن الحسد كان مثار أول جناية فى البشر..»[3] فكيف -إذن- يدعى الدكتور خلف الله أن هذه القصة تمثيل وخيال ؟! وكيف يدعى ذلك وهو الذى وصفها فى موضع آخر من كتابه بأنها قصة أدبية تاريخية ؟! ألا ما أقبح هذا التناقض !!

إن ما صنعه الدكتور خلف الله فى كتابه "الفن القصصى فى القرآن الكريم" يدل دلالة قوية على أنه قد صنع ذلك اعتمادًا على أفكار مسبقة، جعلته يأتى بالتعبيرات الملتوية المتناقضة، التى تشوه الحقائق القرآنية، وتنفى عنها الحق والصدق والواقعية، من أجل الوصول إلى النتائج السيئة التى أراد إثباتها بالأدلة المحتطبة، والدعاوى الكاذبة، والتجاهل المتعمد لنصوص القرآن الكريم التى تثبت صدق القصص القرآنى، وتدل صراحة على عكس ما زعمه وادعاه هذا الكاتب الذى حاول تطبيق المناهج النقدية البشرية على المنهج الإلهى السماوى.

لقد استدل الكاتب على أن قصة مائدة عيسى عليه السلام خيالية تمثيلية

---

[1] تفسير المنار، المجلد ٣، الجزء ٦، ص٢٨٢.

[2] راجع السابق، ص٢٨٩.

[3] السابق، ص٢٩٠.

بأن الإمام الطبرى قد ذكر أن البعض يرى أن الله لم ينزل مائدة من السماء على عيسى عليه السلام، وإنما هو مَثَل ضربه الله تعالى لخلقه نهاهم به عن مساءلة نبى الله الآيات.

ولاشك أن استدلاله بذلك يؤكد ما أوضحناه آنفًا من أنه يجرى وراء الآراء الضعيفة، ولا يعتمد ما ذهب إليه جمهور العلماء والمفسرين.. كل هذا من أجل أن يثبت -كاذبًا- عدم لزوم الصدق فى القصص القرآنى، وأنه سيق على سبيل التمثيل والتخييل.. لقد اتجه الكاتب إلى الآراء الجانبية التى لا يمثلها إلا فرد أو أفراد قلائل لا يعتد برأيهم، وترك الآراء الأخرى التى اتفق عليها جمهور العلماء، والتى تتفق فى الوقت ذاته مع سياق الآيات القرآنية. ولو كان منصفًا حقًا، ودارسًا ينشد الحقيقة، لبسط أمامنا آراء العلماء كلها فى هذه القصص التى جعلها -كاذبًا- من قبيل التمثيل والخيال.

لقد قال ابن كثير معلقًا على قصة المائدة مثلاً ما نصه : «هذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة، فيقال : "سورة المائدة"، وهى مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى، لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزل الله آية باهرة وحجة قاطعة، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة فى الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم»[1]. وقال الإمام الزمخشرى بعد أن روى آراء العلماء : «والصحيح أنها نزلت»[2].

وفضلاً عن ذلك، فإن فى القصة ذاتها ما يؤكد أنها نزلت، فقد جاء التعبير فيها أولاً بصيغة الماضى : ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ...﴾ وهى صيغة إخبار تفيد أن القصة قد وقعت و لم تكن تمثيلاً، كذلك جاء فى القصة قوله تعالى :

---

[1] تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١١٦.

[2] الكشاف، ج١، ص٦٥٥.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ولاشك أن الله سبحانه وتعالى إذا وعد بشى، فإن وعده لا يتخلف. وحين ننظر إلى الحوار الذى تضمنته هذه القصة، نجده يكشف لنا عن طبيعة قوم سيدنا عيسى عليهم السلام المستخلصين منهم، وهم الحواريون «الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى، فآمنوا، وأشهدوا عيسى على إسلامهم، ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا، يطلبون خارقة جديدة تطمئن بها نفوسهم، ويعلمون منها أنه صدقهم، ويشهدون بها له لمن وراءهم»[1]، فدعا سيدنا عيسى عليه السلام ربه، ونزلت المائدة، فكان نزولها من المعجزات التى أيده الله بها وشهدها، وشهد بها الحواريون، وبذلك يتضح أنها قصة حقيقية، وليست -كما زعم الدكتور خلف الله- من باب التمثيل.

أما قول الله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الآيتان ١٨٩، ١٩٠). فالواقع أن المراد من هاتين الآيتين الكريمتين إبطال الشرك وتقرير أمر التوحيد، والرد على أولئك المشركين الذين جعلوا الأصنام شركاء لله تعالى، ويدل على ذلك قوله تعالى بعد الآيتين مباشرة : ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. ولكن على الرغم من وضوح هذا الغرض فإن «بعض الروايات فى التفسير تذكر هذه القصة على أنها قصة حقيقية وقعت لآدم وحواء، إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين، فجاء إليهما الشيطان فأغرى حواء أن تسمى ما فى بطنها "عبد الحارث".. والحارث : اسم لإبليس،

[1] فى ظلال القرآن، المجلد الثانى، ص٩٩٨.

ليولد صحيحًا ويعيش، ففعلت وأغرت آدم معها، وظاهر ما في هذه الرواية من طابع إسرائيلي، ذلك أن التصور الإسرائيلي المسيحي -كما حرفوا ديانتهم- هو الذي يلقي عبء الغواية على حواء، وهو مخالف تمامًا للتصور الإسلامي الصحيح»[1].

ومن هنا اجتهد العلماء في تفسير هاتين الآيتين تفسيرًا يبتعد بهما عن هذه الإسرائيليات الكاذبة، فتعددت الوجوه والتأويلات التي حملت عليها الآيتان، وكان من هذه التأويلات ما ذكره القفال من أنهما وردتا على تمثيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم وقولهم بالشرك.

ومع أن جواب القفال قد جاء في غاية الصحة و السداد على حد تعبير الفخر الرازي، فإنني أرفض القول بالتمثيل في هذا النص القرآني للأسباب التالية :

١- أننا لو جرينا وراء القول بالتمثيل في هذه القصة وغيرها من قصص القرآن الكريم، لأدى ذلك إلى ضياع كثير من حقائق القرآن الكريم.

٢- أن القول بالتمثيل في القصص القرآني يترتب عليه صرف الكلام عن ظاهره، مع أن الأصل : حمل الكلام على الظاهر.

٣- أن هناك تأويلات أخرى للآيتين وصفها الفخر الرازي نفسه بأنها صحيحة سليمة تخلو خلوًا تامًا من المفاسد التي جلبها الطابع الإسرائيلي في تفسيرهما.
وقد اتفقت هذه التأويلات على أن الآيتين لا تمثيل فيهما، حيث ذهب البعض إلى أن الخطاب فيهما لقريش الذين كانوا على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهم آل قصي الذي أنجب هو وزوجته العربية القرشية أولادًا أربعة، ولم ينسبا في تسميتهما لأولادهما عبوديتهم لله، وإنما أسمياهم : عبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد اللات[2]. وقد وصف الإمام الزمخشري هذا التأويل بأنه «تفسير حسن لا إشكال فيه»[3]، وأوضح الزمخشري أن الضمير في

---

[1] السابق، المجلد الثالث، ص١٤١٢.

[2] راجع : تفسير الرازي، ج١٥، ص٩١.

[3] راجع : الكشاف، ج٢، ص١٣٧.

"يشركون" على هذا التأويل : لقصى وزوجته ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما فى ذلك، حيث كانوا يسمون : عبد الدار، وعبد مناة، وعبد شمس، وما أشبه ذلك، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم ونحو ذلك[1]. وذهب ابن كثير إلى أن المراد فى الآيتين المشركون من ذرية آدم، وإنما ذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين (جمع والد)، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى ذكر الجنس. ولهذا نظائر فى القرآن الكريم، منها قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ. . .﴾ فمعلوم أن المصابيح وهى النجوم التى زينت بها السماء ليست هى التى يرجم بها، وإنما الذى يرجم به هو الشهب الثاقبة، ففى الآية استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها[2]. وأوضح ابن كثير أيضًا أن الحسن البصرى قد فسر الآيتين بأن المراد فيهما اليهود والنصارى الذين رزقهم الله أولادًا فهوَّدُهم ونصَّرُوهم، ثم قال ابن كثير : «وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية»[3]. هذا وهناك تأويلات أخرى صحيحة ذكرها الفخر الرازى، ولا أريد أن أمضى فى سردها[4]. وحسبنا -هنا- أن نقول : إنها جميعًا لم تجعل الآيتين من باب التمثيل. ومن هنا يسقط استدلال الدكتور خلف الله بهما على وجود القصة التمثيلية الخيالية فى القرآن الكريم، لأن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال كما نص على ذلك العلماء قديمًا وحديثًا.

أما ادعاء الدكتور خلف الله بأن إبليس فى قصة آدم وإبليس الواردة فى القرآن يمثل يهود المدينة المنورة، فكلام بعيد عن الحقيقة، إذ المراد بإبليس فى القصة شخصيته لا شخصية أحد سواه، وإن كل ما يجمع بين إبليس واليهود هو الشبه

---

[1] راجع : الكشاف، ج٢، ص١٣٧.

[2] راجع : تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٢٧٥، ٢٧٦.

[3] السابق، ص٢٧٥.

[4] راجع : تفسير الرازى، ج١٥، ص٩١ - ٩٣.

الذى تلاقيا فيه، فإبليس استكبر عن السجود لآدم عليه السلام وكفر، واليهود استكبروا عن الإيمان بالرسول والقرآن وكفروا با لله، وهذا هو ما عناه الإمام الطبرى فى تفسيره للقصة.

أما ما أورده صاحب المنار من أن الخلف يفسرون قصة آدم عليه السلام بأنها تمثيل وتخييل، فهذا رأى نرفضه، لأننا لو قلنا بأن هذه القصة وتعليم آدم الأسماء والمحاورة التى دارت بينه وبين ا لله، وبين ا لله وملائكته، وبين ا لله وإبليس، والشجرة التى أكل منها آدم، والجنة، والنار... لو قلنا بأن ذلك كله وغيره مما ورد فى القصة إنما هو تمثيل وتخييل لضاعت كثير من حقائق القرآن الكريم، التى أجمع المسلمون عليها، ولم يشذ عنها إلا الدكتور خلف ا لله وأمثاله : فقصة آدم عليه السلام قصة حقيقية شأنها فى ذلك شأن بقية قصص القرآن الكريم.

وأخيرًا فنحن نستنكر ونرفض بشدة أن يدعى الدكتور خلف ا لله اشتمال القرآن الكريم على ما أسماه بالقياس الشعرى، لأن العلماء قد نصوا على أن الأقيسة المستعملة فى الاستدلال ثلاثة أنواع : قياس علة، وقياس دلالة، وقياس شبه[1]. وهذه هى التى وردت فى القرآن الكريم. فمثال قياس العلة قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران : آية ٥٩). «فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم فى التكوين بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذى تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعًا لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يقر بوجود آدم من غير أب ولا أم، ووجود حواء من غير أم ؟! فآدم وعيسى نظيران يجمعهما المعنى الذى يصح تعليق الإيجاد والخلق به»[2]. ومثال هذا النوع أيضًا : قول ا لله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن

---

[1] راجع : أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، ج١، ص١٣٣.

[2] السابق، ص١٣٤.

﴿قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

«فذكر سبحانه إهلاك مَن قبلنا من القرون، وبين أن ذلك كان لمعنى القياس، وهو ذنوبهم، فهم الأصل، ونحن الفرع، والذنوب : العلة الجامعة، والحكم الهلاك، فهذا محض قياس العلة، وقد أكده سبحانه بضرب من الأولى، وهو أن مَن قبلنا كانوا أقوى منا، فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حل بهم»[1].

ومن أمثلة قياس الدلالة -وهو الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلة وملزومها- قول الله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

«فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذى تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذى استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء، واعتبار الشىء بنظيره، والعلة الموجبة هى عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلة»[2].

ومن شواهد قياس الشبه -وهو ما قصه الله تعالى عن المبطلين- قول الله تعالى إخبارًا عن إخوة يوسف عليه السلام أنهم قالوا لما وجدوا الصواع فى رحل أخيهم : ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ (سورة يوسف : ٧٧).

«فلم يجمعوا بين الأصل والفرع بعلة ولا دليلها، وإنما ألحقوا أحدهما بالآخر من غير دليل جامع سوى مجرد الشبه الجامع بينه وبين يوسف، فقالوا : هذا مقيس على أخيه، بينهما شبه من وجوه عديدة، وذاك قد سرق فكذلك هذا. وهذا

---

[1] السابق، ص١٣٤.

[2] السابق، ص١٣٩.

هو الجمع بالشبه الفارغ، والقياس بالصورة المجردة عن العلة المقتضية للتساوى، وهو قياس فاسد، والتساوى فى قرابة الأخوة ليس بعلة للتساوى فى السرقة لو كانت حقًا، ولا دليل على التساوى فيها، فيكون الجمع لنوع شبه خالٍ عن العلة ودليلها»[1].

هذه هى أنواع القياس وأمثلتها التى يمكن القول بوجودها فى القرآن الكريم، فمن أين أتى الدكتور خلف الله بالقياس الشعرى الذى يدعى وجوده فى الكتاب المبين ؟!

[1] السابق، ص١٤٨.

الفصل الخامس

شبهات إبليس السبع
فى مجال الأدب القصصى

ومحاولة النقاد الملحدين تطبيقها على قصص القرآن الكريم

كلنا نعلم أن مسألة "الجبر والاختيار" أو قضية "القضاء والقدر" من المسائل الدينية البارزة التى واجهت الفكر البشرى على مدار تاريخه الطويل، فمنذ أدرك الناس الخير والشر، باتوا يبحثون عن أعذار لأخطائهم، فالتمسوا تلك الأعذار فى نسبة الأفعال والأمور إلى القضاء والقدر، سواء منهم أصحاب الأديان أم عباد الأصنام والأوثان.

ولعل أقدم وأشمل صياغة تضنت عناصر هذه المسألة جاءت متفرقة فى التوراة المحرفة على صورة مناظرات بين إبليس والملائكة، كما جاءت هذه الصياغة -أيضًا- مسطورة فى شرح الأناجيل الأربعة التى اخترعها النصارى وهو إنجيل لوقا، ومارقوس، ويوحنا، ومتى. وليس خافيًا على أحد أن ورود هذه الصياغة فى التوراة المحرفة، والأناجيل الأربعة المخترعة يدل دلالة واضحة على أن تلك المناظرات التى دارت بين إبليس والملائكة لم تحدث و لم تقع بالفعل، وإنما هى من صنع الفكر البشرى وحده.

ونحن إذ نقرأ حوار إبليس للملائكة فى هذه المناظرات نجد الحوار يتضمن أسئلة سبعة، يشكل كل منها شبهة أو أبطولة من شبهات أو أباطيل إبليس السبع، وكلها تدور -كما سبقت الإشارة- حول مسألة الجبر والاختيار، أو قضية القضاء والقدر، ثم تنتهى إلى محاولة التشكيك فى ثبوت العدالة الإلهية نحو مصير الكافرين، وعلى رأس قائمتهم إبليس عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

ويتضح للقارئ أن إبليس في مناظرته للملائكة قد اتخذ من معصيته للأمر الإلهى بالسجود لآدم عليه السلام أساسًا ومحورًا لهذه الأسئلة وتلك الشبهات، فقد حاول جاهدًا أن يثبت لهم أن عصيانه لم يكن بحريته واختياره، وإنما كان بتقدير الله عز وجل السابق لهذا العصيان، وكان هدفه من ذلك، أن يوهم بأن عقاب الله له بطرده من رحمته إلى يوم الدين، ثم تخليده فى النار بعد ذلك -أمر يتعارض مع العدالة الإلهية المطلقة.

ولقد أورد الشهرستاني شبهات إبليس السبع على النحو التالي :

قال إبليس -لعنه الله : إني سلّمت أن البارى تعالى إلهى وإلـه الخلـق، عـالم قادر ولا يسأل عن قدرته ومشيئته، وأنه مهما أراد شيئًا قال له : كن فيكـون، وهـو حكيم، إلا أنه يتوجه على مساق حكمته أسئلة.

قالت الملائكة : ما هى، وكم هى ؟

قال إبليس -لعنه الله : سبعة :

الأول منها : أنه قد علم قبل خلقى أى شيء يصدر عنى ويحصل منـى، فلـم خلقنـى أولاً ؟ وما الحكمة فى خلقه إياى ؟

والثانى : إذ خلقنى على مقتضى إرادته ومشيئته، فلم كلفنى بمعرفته وطاعتـه ؟ ومـا الحكمة فى هذا التكليف بعد أن لا ينتفع بطاعة ولا يتضرر بمعصية ؟

والثالث : إذ خلقنى وكلفنى فالتزمت تكليفه بالمعرفة والطاعة، فعرفت وأطعت، فلم كلفنـى بطاعـة آدم والسـجود لـه ؟ ومـا الحمـة فـى هـذا التكليـف علـى الخصوص، بعد أن لا يزيد ذلك فى معرفتى وطاعتى إياه ؟

والرابع : إذ خلقنى وكلفنى على الإطلاق، وكلفنى بهذا التكليف علـى الخصـوص، فإذا لم أسجد لآدم، فلم لعننى وأخرجنى من الجنة ؟ وما الحكمة فى ذلـك بعد أن لم أرتكب قبيحًا إلا قولى : لا أسجد إلا لك ؟

والخامس : إذ خلقنى وكلفنى مطلقًا وخصوصًا، فلـم أطـع، فلعننـى وطردنـى، فلـم طرقنى إلى آدم حتى دخلت الجنـة ثانيـة، وغررتـه بوسوسـتى، فـأكل مـن الشجرة المنهى عنها، وأخرجه من الجنة معى ؟ وما الحكمة فـى ذلـك بعـد أن لو منعنى من دخول الجنة لاستراح منى آدم، وبقى خالدًا فيها ؟

والسادس : إذ خلقنى وكلفنى عمومًا وخصوصًا، ولعننـى، ثـم طردنـى مـن الجنـة، وكانت الخصومة بينى وبين آدم فلم سلطنى على أولاده ؟ حتى أراهم مـن حيث لا يروننى، وتؤثر فيهـم وسوستى، ولا يؤثـر فـى حولهـم وقدرتهـم واستطاعتهم ؟ وما الحكمة فى ذلك ؟ بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون

من يجتالهم عنها، فيعيشون طاهرين سامعين مطيعين، كان أحرى بهم وأليق، ما الحكمة ؟

والسابع : سلمت بهذا كله : خلقني وكلفني مطلقًا ومقيدًا، وإذا لم أطع لعنني وطردني، وإذا أردت دخول الجنة مكنني وطرقني، وإذا عملت عملي أخرجني، ثم سلطني على بني آدم، فلم إذ استمهلته أمهلني ؟ فقلت : ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ وما الحكمة في ذلك ؟ بعد أن لو أهلكني في الحال استراح آدم والخلق مني، وما بقي شر في العالم ؟ أليس بقاء العالم على نظام الخير خيرًا من امتزاجه بالشر ؟

قال : فهذه حجتي على ما ادعيته في كل مسألة.

قال شارح الإنجيل: فأوحى الله تعالى إلى الملائكة عليهم السلام : قولوا له: إنك في تسليمك الأول : أني إلهك وإله الخلق غير صادق ولا مخلص، إذ لو صدقت أني إله العالمين، ما احتكمت عليّ بلم ؟ فأنا الله الذي لا إله إلا أنا، لا أُسأل عما أفعله، والخلق مسئولون.

قال الشهرستاني : «هذا الذي ذكرته مذكور في التوراة، ومسطور في الإنجيل على الوجه الذي ذكرته»[1].

ومما لاشك فيه أن هذه الأسئلة السبعة من قوة التلبيس، إذ يصعب على الإنسان بعد سماعها أو قراءتها أن يتجنب ما تثيره في نفسه وذهنه من شكوك وشبهات حول أصول الإيمان من ناحية، وثبوت العدالة الإلهية من ناحية أخرى، بل يرى أحد الباحثين أن اختلاف الفرق الفكرية في الإسلام، وفي الأديان السماوية السابقة انطلق فكريًا ونظريًا من محور هذه الأسئلة جميعًا.. تلك التي تمثل أقدم صياغة لموضوع القضاء والقدر[2].

---

[1] الملل والنحل، ص١٤ - ١٦.

[2] راجع : الإنسان والشيطان، د. فاروق أحمد دسوقي، ص٥٢.

وبما لا شك فيه أيضًا أن تعقيب شارح الإنجيل على هذه الأسئلة وتلك الشبهات لم يكن -مع صحته- بالتعقيب الذى يناظرها فى القوة. ونحن نعلم أن ورود الشبهة ملفوفة فى صيغة منطقية وحجة قوية، ثم ورود التعقيب عليها بحجة ضعيفة، وبرهان مهزوز خافت، ينتهى بالقارئ أو السامع إلى تثبيت وجه الشبه أو الأبطولة فى نفسه، وتعميق الشك حول الموضوع قيد البحث.

وهذا التعقيب الذى جاء على لسان شارح الإنجيل -وفق ما ذكر الشهرستاني- من أوضح الأمثلة على ذلك فهو كلمة حق أريد بها باطل، إذ لا يشك مؤمن فى أن الله تبارك وتعالى لا يُسأل عما يفعل، وأنه الفعال لما يريد، غير أن هذا التعقيب -فى تقديرنا- لا يمثل الرد المفحم على تلك الشبهات السبع التى اخترعها محرفو التوراة والإنجيل، ثم نسبوها إلى إبليس زعيم الكفرة والملحدين، فى كل عصر وحين، لأن الشبهات السبع تدور جميعها حول معرفة الحكمة من إرادة الخالق سبحانه لما أراد. وحينما يتساءل المرء عن الحكمة من خلق أى شيء فى هذا الكون، فإنه -بدون شك- لا يكون فى موضع المحاسب لله سبحانه وتعالى، بل يكون فى موضع الباحث عن الحكمة من هذا الخلق، فهو سؤال استفسارى، وليس سؤالاً للمحاسبة والمحاكمة. ومن هنا يبدو تعقيب شارح الإنجيل -على الشبهات السبع- متجاهلاً لصفة الحكمة التى وصف الحق سبحانه بها ذاته العلية، لأن شارح الإنجيل قد أرجع الأمر كله -كما رأينا- إلى قدرة الله الذى لا يسأل عما يفعل. ويبدو الأمر -نتيجة لهذا التعقيب- كما لو أن الحق سبحانه بما فعل مع إبليس وآدم وأبناء آدم، قد فعل ذلك كله بلا حكمة يقبلها العقل، وترتاح لها النفس، ومن ثم ينتهى التعقيب من شارح الإنجيل إلى وصول الملاحدة و المشككين وعلى رأسهم إبليس نفسه إلى غايتهم من هذه المناظرة المختلقة، وهى غرس بذور الشك نحو حقائق الدين فى نفس السامع أو القارئ من ناحية[1]، والحقائق التى أبرزتها وصورتها قصة إبليس مع آدم فى القرآن الكريم من ناحية أخرى.

---

[1] راجع : السابق، ص٥٣، ٥٤.

والحق الذى لا شك فيه : أننا حين نقرأ المعارض السبعة[1] التى صورت هذه القصة فى كتاب الله الحق، نجدها تتضمن الجواب الحق الكامل على سائر ما سأل عنه إبليس، وعلى سائر ما اخترعه تلاميذه من أبالسة البشر الذين آثروا السير فى طريق الإلحاد والتشكيك على السير فى طريق الإيمان واليقين.

لقد قدم لنا القرآن الكريم فى أول معرض من المعارض السبعة التى صورت هذه القصة الحكمة السامية التى من أجلها كان خلق آدم عليه السلام، وذلك حين يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً. . . ﴾[2]، فهذه الآية الكريمة توضح لنا أن آدم عليه السلام قد خلق من أجل مهمة جليلة هى الخلافة فى الأرض، والحياة فيها مدة معينة من الزمن تنتهى بموته، ثم دفنه فيها، بعد تعميرها وإنجاب الذرية التى تكمل المسيرة من بعده إلى يوم الدين.

كذلك تضمن هذا المعرض قول الحق سبحانه : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[3]، ولاريب فى أن الحق سبحانه قد أراد أن يكرم الإنسان ويفضله على جميع خلقه، فأمر الملائكة الذين كان معهم إبليس بالسجود لآدم، إقرارًا له بالخلافة والأفضلية وسمو المنزلة، فكان هذا الأمر الإلهى تجربة ابتلائية لهم جميعًا، نجح فيها الملائكة حين نفذوا أمر ربهم وقبلوه، وسقط إبليس حين أبى واستكبر وكان من الكافرين -وأعطى لنفسه حق القبول والرفض للأمر الإلهى الموجه إليه، وقال ما صورته قصته مع آدم فى معرض آخر من معارضها القرآنية السبعة : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[4]، ولذلك لم

---

[1] سيرد بيانها فيما بعد.

[2] سورة البقرة، الآية ٣٠.

[3] الآية ٣٤.

[4] سورة ص، الآية ٧٦.

يكن موقفه مجرد استكبار عن السجود لآدم، بل كان فوق هذا رافضًا وجحودًا لأمر الله الذى خلقه وخلق كل شيء، وبالتالى كان رفضًا لربوبية الله عليه، ومنسلخًا من العبودية له، و لم يكن محبًا صادقًا له، لأن المحب الصادق ينفذ أمر من يحبه، على حد قوله الشاعر الذى نحفظه :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى الفعال بديع

لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لِمَن يحب مطيع

وتعد الآية التى سبق ذكرها قبل هذين البيتين أبلغ رد على تلك الفرية التى أوردها صانعو شبهات إبليس السبع... أعنى زعمهم أن إبليس قال : «لم أرتكب قبيحًا إلا قولى : لا أسجد إلا لك» فقد جاء قول إبليس : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ ردًا على ذلك السؤال الذى وجهه إليه ربه حين قال سبحانه : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ؟![1] وهذا يفيد أن امتناع إبليس عن السجود لآدم لم يكن -كما يدعى هؤلاء الأفاكون- من أجل عدم السجود إلا لله سبحانه وتعالى، بل كان استعلاءً من إبليس وكبرًا من أن يسجد -وهو المخلوق من النار- لآدم الذى خلقه الله بيديه من الطين. ومن هنا كان لابد من طرده من رحمة الله عز وجل، واستحقاقه اللعنة إلى يوم الدين، و لم يعد له مكان وسط ملائكة الله الذين نفذوا ما أمرهم به ربهم وسجدوا لآدم وهم المخلوقون من النور الذى هو أفضل من العنصر الذى خلق منه آدم، وكذلك العنصر الذى خلق منه إبليس عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وإذا كان الحق سبحانه قد أجّل عقابه إلى يوم الدين، فإنما كان ذلك لأن هذا اليوم هو يوم الجزاء والحساب، أما الدنيا فهى دار ابتلاء فحسب له ولغيره، ولذلك ابتلى الله آدم بإبليس، كما سبق أن ابتلى إبليس بآدم، فكان تمكين إبليس من الدخول إلى الجنة، وكان طرقه إلى آدم لتغريره

---

[1] سورة ص، الآية ٧٥.

بوسوسته بعد أن قال الحق سبحانه لآدم محذرًا ومنبهًا : ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[1]. ولكن موقف آدم بعد أن غرر به إبليس فأكل من الشجرة المنهى عنها كان أحسن من موقف إبليس حين رفض السجود لآدم، حيث تاب آدم واستغفر ربه، أما إبليس فقد بالغ فى عناده وكفره وإصراره على المعصية وقال ما صورته لنا إحدى المعارض السبعة للقصة فى القرآن الكريم : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[2]، وقال أيضًا ما صوره لنا معرض قرآنى آخر: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[3]، ثم كان ما كان بعد هذا الحوار من هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض لتبدأ سلسلة جديدة من التجارب الابتلائية لذرية آدم بهذا الشيطان الماكر الخادع، وحتى لا يظلم ربنا أحدًا من البشر، فقد نبههم إلى دور إبليس فى محاولة التغرير بهم، وعهد إليهم جميعًا أن لا يعبدوا أو يستجيبوا لهذا العدو المضل المبين، فمن استجاب لنصيحة الرب فاز ونجا، ومن عمل بغواية الشيطان هلك وخسر.

وكل ما سبق بيانه يؤدى بنا إلى نتيجة حاسمة يفهمها من يتتبع بالنظر والفهم المعارض القرآنية السبعة التى صورت لنا قصة آدم وإبليس... هذه النتيجة الحاسمة هى أن وقوع الإنسان فى الخطيئة إنما يكون بحريته واختياره حين ينساق وراء وساوس الشيطان وتزييناته، كما فعل إبليس ذاته حين آثر بحريته واختياره مخالفة أمر

---

[1] سورة طه : ١١٧ - ١١٩.

[2] سورة ص، الآية ٨٢.

[3] سورة الأعراف : ١٦، ١٧.

ربه على طاعته والاستجابة له، بمعنى أن الكائن حينما يندفع لفعل الخطيئة فإنما يندفع لها اندفاعًا نابعًا من ذاته ونفسه، وليس هناك شيء خارج عن ذاته يجبره على فعلها، وهذا ما نفهمه من القصة على سبيل العموم، وما نفهمه على سبيل الخصوص من قول الحق سبحانه : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فهذا القول الكريم يدل من ناحية على أن الحق سبحانه وتعالى لم يطرد إبليس من رحمته فور امتناعه عن السجود لآدم، مع أن هذا الامتناع كان تصرفًا اختياريًا حرًا وقع بفاعلية إبليس، ويستحق عليه الطرد والعقاب، وإنما سأله الحق سبحانه هذا السؤال، لا ليعلم سبب الرفض فهو الذى يعلم السر وأخفى، ولكن لكى يعطيه فرصة مراجعة نفسه، والإقلاع عما كان منه تجاه الأمر الإلهى الموجه إليه. كذلك يدل هذا السؤال الإلهى الكريم من ناحية أخرى على أنه لم يكن هناك جبر من الله لإبليس على عدم السجود، وإلا كان هذا السؤال عبثًا، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. ومما يؤكد أن إجابة إبليس على هذا السؤال تفيد بكل وضوح أنه اختار الانسلاخ من عبوديته لربه وتنفيذ أوامره بمحض حريته واختياره، فكان السؤال من الله عن الموانع الجبرية التى أجبرت إبليس على تصرفه إن كانت هناك موانع جبرية خارجة عن ذاته، ولاسيما فى تلك اللحظة الزمنية التى صدر فيها أمر الله بالسجود لآدم، والمفهومة من قوله تعالى : ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ وكانت إجابة إبليس بيانًا شافيًا منه بأن المانع ذاتى وليس خارجًا عن ذاته، فقوله : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ ؟ وقوله : ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ وقوله : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾... وغير ذلك من أقواله وردوده المناظرة التى تضمنتها قصة إبليس فى مواضعها القرآنية السبعة.. يدل دلالة قوية على أن إبليس نفسه قد نفى أى إكراه أو مانع خارجى شكّل جبرًا أو ضغطًا على إرادته وحريته واختياره، فكيف يسوغ لأحد -بعد ذلك كله- أن يدعى أنه كان مجبورًا بقضاء الله وقدره- على عدم السجود لآدم وغير ذلك مما أوردوه فى تلك المناظرة

التى اخترعوها بين إبليس، وملائكة الله عز وجل ؟! وإذا كان محرفوا التوراة والإنجيل قد ضمنوا هذه المناظرة السؤال عن الحكمة الإلهية من عدم خلود آدم فى الجنة، فإن أول آية فى أول سورة قرآنية صورت قصة آدم عليه السلام قد أوضحت هذه الحكمة، حين قررت أن آدم قد خلقه الله عز وجل من أجل الخلافة فى الأرض، لا من أجل السكنى فى الجنة، ولكن الحق سبحانه وتعالى قد أراد أن يدرب آدم قبل أن يباشر مسئولية الاستخلاف فى الأرض تدريبًا يؤهله لتلك المسئولية، فكان هذا التدريب فى مكان يكفل له الحياة والراحة والأمن، وما كان الحق عز وجل يزج بآدم فى هذا الكون الفسيح الممتد قبل أن يدربه أولاً على مهمته فيه، ومهمة ذريته من بعده... وفى هذه الجنة كان تعرضه للابتلاء وتعلمه كيف يثوب إلى رشده حين ينسى أمر ربه، قبل أن يتعرض هو وبنوه من بعده للابتلاءات فى الأرض... وفى هذا المعنى قال أستاذ الجيل وإمام العصر المرحوم فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى.. ما نصه :

«بعد أن خلق الله آدم وعلمه الأسماء، أراد الله برحمته أن يجعل مهمة آدم فى الأرض سهلة ميسورة، لذلك لم يكتفِ الله بالعلم النظرى لآدم، إنما من رحمة الله بأدم أن جعل له تدريبًا تطبيقيًا لمهمته فى الكون. وقد يسر الله لآدم مهمة التعليم التطبيقى فى جنة للتدريب على مهمته فى الأرض. ولهذا فلقد قلت من قبل وأكرر القول : إن الجنة التى أوجد الله فيها آدم للتدريب على أمور الحياة، ليست هى جنة الجزاء، إنما هى جنة التدريب.. التى عاش فيها آدم قبل أن ينزل إلى الأرض. ولقد أراد الله له فى هذه الجنة الكفاية من الطعام الرغد والشراب الهنىء، ليتفرغ للتدريب التطبيقى على مهمته فى الأرض»[1].

[1] اللواء الإسلامى، عدد الخميس ٢٥ / ١ / ١٤٩٣هـ خواطر فضيلته حول سورة البقرة، ص١٢.

أثر شبهات إبليس السبع في مجال الأدب القصصي

حينما نمعن النظر فى هذه الشبهات السبع، نجد أن أساس التضليل فيها يكمن فى ذلك الزعم الكاذب الوارد فى الشبهة الرابعة؛ أى فى قول إبليس للملائكة: «...فإذا لم أسجد لآدم فَلِمَ لعننى وأخرجنى من الجنة ؟ وما الحكمة فى ذلك بعد أن لم أرتكب قبيحًا إلا قولى : لا أسجد إلا لك ؟» !

لقد أضحت هذه الأبطولة فى مجال الأدب القصصى والنقد الفكرى حجر الزاوية فى تلك الضلالات والشبهات والتخرصات التى ينسجها بعض الأدباء والنقاد والمفكرين حول مسألة الجبر والاختيار أو قضية القضاء والقدر، وذلك لأنها تحتوى على زعم خطير كان له أثره المشين فى التفكير البشرى والخيال القصصى نحو هذه القضية، وهو أن إبليس حينما أمره الحق سبحانه بالسجود لآدم عليه السلام قد وجد نفسه أمام أمرين متناقضين متعارضين، إن أطاع الله فى أحدهما كان عاصيًا له فى الأمر الآخر، ومن هنا فضّل عدم السجود لآدم على السجود له، حتى يظل محافظًا على توحيده وسجوده لله وحده دون غيره، ولو كان مصيره -بمخالفة أمر ربه- الخلود فى نار جهنم ! ولذلك فإن إبليس -وفق هذا الزعم الكاذب- كان فى موقفه البطل المأساوى أو شهيد التوحيد الذى جار عليه القضاء وظلمه القدر ! وعلى هذا النحو يحاول الكفرة والملحدون تصوير أنفسهم فى مثل هذا الموقف الإبليسى المختَرَع، فيزعمون أنهم فى عصيانهم أوامر ربهم ونواهيه شهداء القدر السماوى الذى لا يحدث أى أمر فى الكون إلا بموجبه ومقتضاه !

لقد كان لهذا الزعم الكاذب -كما سبق البيان- تأثير جد خطير فى مجال الفكر والأدب القصصى عند طائفة من الكتاب والنقاد والمفكرين. فمن بعد ما اخترعه أحبار اليهود وقساوسة النصارى، تسربت هذه الصورة الملفقة التى تبرز إبليس أو الكافر من تلامذته بطلاً لمأساة قدرية إلى ثنايا الفكر والأدب، فرأيناها تعرض بصيغ مختلفة، وصور متباينة، تختلف باختلاف البيئة والثقافة والحضارة، لكنها

فى إطارها العام لا تتجاوز ولا تتعدى هذه الشبهات السبع، ولاسيما الشبهة الرابعة التى وصفناها بأنها حجر الزاوية فى الضلالات المنسوجة حول مسألة القضاء والقدر عمومًا، ومسألة امتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام خصوصًا !

فنحن إذ نقرأ النتاج الأدبى القصصى المعاصر للروائيين العرب نجد من بينه بعض قصص تسيطر عليها عقيدة الجبر، وتعليل الشرور بالقدر، وإرجاع ما يصدر عن الإنسان من خطايا إلى ما كتب عليه أزلاً وهو مازال جنينًا فى بطن أمه !

ومن أبرز الأمثلة على ذلك : تلك الرواية التى كتبها الروائى المصرى المعروف الدكتور نجيب محفوظ تحت عنوان "بداية ونهاية"، حيث ترى البطلة فى هذه الرواية تنتهى إلى احتراف "البغاء" كنتيجة حتمية لمقدمات جبرية، وحينما يتضح أمرها لأخيها الضابط لا تجد مفرًا من الانتحار بإلقاء نفسها فى مياه النيل، على مرأى من عينى شقيقها، الذى تبعها هو الآخر بالانتحار وهو يردد قائلاً : «فليرحمنا الله» مشيرًا بهذه العبارة إلى أن كل ما جرى وكان من بغاء وانتحار ومقدمات لهما إنما كان قضاءً مكتوبًا، وقدرًا محتمًا خطه الأزل عليهما، ذلك لأن أحداث الرواية تسير منذ بدياتها إلى نهايتها، وليس لأبطالها وشخوصها أدنى تأثير يذكر فيها، وإنما يدورون كلهم فى مدارات لا يملكون تجاهها دفعًا ولا تغييرًا ولا تبديلاً، حتى فيما يقترفونه من أفعال خلقية مشينة !

ومن أبرز الأمثلة على ذلك أيضًا : قصة كتبها الأستاذ توفيق الحكيم بعنوان "الشهيد"، وهى قصة صغيرة من مجموعة قصصية صدرت عام ١٩٥٣م، وتعد على صغرها -فى نظر الأستاذ العقاد- «من أجود ما كتب فى هذا الغرض فى جميع اللغات» ![1] وقال عنها المرحوم محمد عبد الغنى حسن[2] : «لقد أسهمت القصة العربية المعاصرة فى بيان دور الشيطان على مسرح الكون بما صنعه الأستاذ توفيق

---

[1] إبليس، ص٢١٨.

[2] فى مقال له بعنوان : "الشيطان فى الأدب العربى الحديث"، بمجلة الهلال، عدد مايو ١٩٧٤، ص٥٦.

الحكيم فى قصة الشهيد، ويقصد به قصاصنا الكبير : الشيطان الذى لا يجد مفرًّا من القيام بدوره المفروض عليه. وقد جعله توفيق الحكيم ضحية من ضحايا القضاء والقدر اللذين لا يملك أحد أن يردهما أو يدفعهما» !

وهذا صحيح، فإن الأستاذ توفيق الحكيم فى هذه القصة حاول أن يقول لنا: إن الدنيا لا يمكن أن تقوم إلا بإبليس وأفعاله الشريرة ووسوسته وغوايته للناس، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقه، وقدر عليه هذه الحياة الآثمة الشريرة، ودفعه إليها دفعًا، وألزمه بها إلزامًا، من أجل استقامة أمر الدنيا على ما هى عليه الآن، لأن الدنيا لا يمكن إلا أن تكون مزيجًا من الخير والشر معًا. ومن هنا ينتهى الكاتب الكبير إلى تصوير إبليس فى صورة البطل الشهيد الذى ظلمه القضاء المحتوم والقدر المكتوب فى دنياه وآخرته معًا، وليس من شك فى أن نفى العدالة الإلهية المطلقة عن الله الذى تعالى عن الظلم علوًا كبيرًا هو النتيجة الحتمية لتصوير إبليس بهذه الصورة، ثم الحكم عليه بالعذاب الأبدى، لا لشيء إلا لأن القدر قد كتب عليه ذلك !!

ولا يتسع المقام -هنا- لإيراد القصة بأكملها شاهدًا على ما نقول، ولذلك نكتفى منها بهذا النص الذى يقول فيه[1] :

«إن إبليس أراد ذات يوم أن يتوب إلى ربه، وأن يقلع عن فعل الشرور، وأن يتفرغ لفعل الخير والعبادة، فذهب إلى شيخ الأزهر ليتوب على يديه، فدار بينهما الحوار التالى :

– شيخ الأزهر : إيمان الشيطان عمل طيب ولكن...

– إبليس : ماذا ؟ أليس من حق الناس أن يدخلوا فى دين الله أفواجًا ؟

أليس من آيات الله فى كتابه الكريم: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ؟ ها أنذا أسبح بحمده وأستغفره، وأريد أن أدخل فى دينه، خالصًا مخلصًا، وأن أسلم ويحسن إسلامى، وأكون نعم القدوة للمهتدين.

---

[1] اخترت هذا النص بالذات، لأنه يتضمن أبطولة يجب دحضها دفاعًا عن شيخ الأزهر.

وتأمل شيخ الأزهر العواقب لو أسلم الشيطان، فكيف يُتلَى القرآن ؟ هل يمضى الناس فى قولهم : "أعوذ با لله من الشيطان الرجيم" ؟ ولو تقرر إلغاء ذلك لاستتبع الأمر إلغاء أكثر آيات القرآن، فإن لعن الشيطان والتحذير من عمله ورجسه ووسوسته لما يشغل من كتاب ا لله قدرًا عظيمًا... كيف يستطيع شيخ الأزهر أن يقبل إسلام الشيطان دون أن يمس بذلك كيان الإسلام كله ؟

رفع شيخ الأزهر رأسه ونظر إلى إبليس قائلاً : إنك جئتنى فى أمر لا قبل لى به.. هذا شيء فوق سلطتي.. وأعلى من قدرتى، ليس فى يدى ما تطلب... ولست الجهة التى تتجه إليها فى هذا الشأن.

– إبليس : إلى من أتجه إذن ؟ ألستم رؤساء الدين ؟ كيف أصل إلى ا لله إذن ؟ أليس يفعل ذلك كل من أراد الدنو من ا لله ؟

– أطرق شيخ الأزهر لحظة.. وهرش لحيته، ثم قال : نية طيبة ولا ريب.. ولكن.. على الرغم من ذلك أصارحك أن اختصاصى هو إعلاء كلمة الإسلام، والمحافظة على مجد الأزهر، وأنه ليس من اختصاصى أن أضع يدى فى يديك».

قال الأستاذ توفيق الحكيم : «ولكن إبليس لم يستسلم لرفض شيخ الأزهر توبته، فصعد إلى السماء، وطلب من جبريل (عليه السلام) التوسط عند ربه لقبول توبته، فيقول له جبريل :

– نعم، ولكن زوالك من الأرض يزيل الأركان، ويزلزل الجدران، ويضيع الملامح، ويخلط القسمات، ويمحو الألوان، ويهدم السمات. فلا معنى للفضيلة بغير وجود الرذيلة، ولا للحق بغير الباطل، ولا للطيب بغير الخبيث، ولا للأبيض بغير الأسود، ولا للنور بغير الظلام، بل ولا للخير بغير الشر، بل إن الناس لا يرون نور ا لله إلا من خلال ظلامك. وجودك ضرورى فى الأرض ما بقيت الأرض مهبطًا لتلك الصفات العليا التى أسبغها ا لله على بنى الإنسان.

– وجودى ضروى لوجود الخير ذاته ؟! نفسى المعتمة يجب أن تظل كذلك

لتعكس نور الله ؟! سأرضى بنصيبى الممقوت من أجل بقاء الخير ومن أجل صفاء الله.. ولكن.. هل تظل النقمة لاحقة بى، واللعنة لاصقة باسمى على الرغم مما يسكن قلبى من حسن النية ونبيل الطوية ؟!

– نعم يجب أن تظل ملعونًا إلى آخر الزمان.. إذا زالت اللعنة عنك زال كل شيء.

وبكى إبليس، وترك السماء مزعونًا، وهبط الأرض مستسلمًا، ولكن زفرة مكتومة انطلقت من صدره وهو يخترق الفضاء، رددت صداها النجوم والأجرام في عين الوقت، كأنها اجتمعت كلها معه لتلفظ تلك الصرخة الدامية : إنى شهيد.. إنى شهيد» أ.هـ

هذا نص مقتبس مما قاله الأستاذ توفيق الحكيم فى هذه القصة التى تدل دلالة واضحة على تأثر كاتبها بعقيدة الجبر التى تدور حولها شبهات إبليس السبع التى سبق ذكرها ودحضها.

وليس خافيًا أن هذه القصة قد بنيت من أولها إلى آخرها على تصورات خيالية اخترعها خيال الكاتب، فجاءت كلها مخالفة لما ورد عن إبليس فى القرآن الكريم والسنة النبوية، وما يشهد به الواقع الملموس، ومن هنا، فإن التصورات الخيالية التى بنيت عليها القصة باطلة، وما بنى على الباطل فهو باطل، ولكن الأستاذ توفيق الحكيم قد استخدم الأدب والفن، وقدرته على الخيال القصصى، وحبك الحوار لتلبيس الحق بالباطل، والانتهاء –بهذه الطريقة– إلى نتيجة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، وهى أن إبليس مظلوم وشهيد، هادفًا من ذلك –فيما أعتقد– إلى محاولة تغيير مشاعر الكراهية والعداء التى عند الناس نحو إبليس، فإن وصفه إبليس بأنه شهيد معناه أنه يتحتم على الناس أن يغيروا من مواقفهم المعروفة نحوه، بحيث يتحولون من موقف العداء والحذر منه إلى موقف الرثاء له والتعاطف معه. ولاشك أن هذه الغاية وتلك النتيجة التى انتهت إليها القصة تمثل رفضًا غير مباشر لسائر

الآيات القرآنية الكريمة التى صورت لنا إبليس عدوًا ماكرًا يتبوأ للناس من كل مقعد، ويقعد لهم كل مرصد، ويزين لهم الوقوع فى المعاصى والخطايا... من مثل قوله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ ومثل قوله تعالى : ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر...﴾[2]، وقوله تعالى : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[3].

وتخيل الكاتب بأن إبليس قد ندم ورغب فى التوبة تخيل باطل تدحضه الآيات القرآنية التى صورت لنا قصة معصية إبليس، فقد سبق أن أوضحنا أن هذه الآيات قد قررت أن الله عز وجل لم يطرد إبليس من رحمته فور امتناعه عن السجود لآدم، وإنما سأله عن الذى منعه عن السجود، وهذا يعنى أن الله عز وجل قد منحه الفرصة للندم والتوبة والسجود، فكان موقف إبليس هو الإصرار على التكبر والاستعلاء على آدم عليه السلام. وهذا التكبر والاستعلاء هو الذى يدفع إبليس إلى يوم الدين لفعل الشر، وتزيينه للناس. لقد أعلن إبليس -كما تقول القصة فى القرآن الكريم- عزمه على المضى إلى النهاية فى طريق المعصية، على الرغم من علمه بعقابه المترتب على اختياره هذه الطريقة، ومن هنا قطع إبليس على نفسه خط الرجعة إلى طاعة الله والتوبة إليه. فكيف يخالف الأستاذ الحكيم الحقائق الثابتة فى القرآن

---

[1] سورة يس، الآية ٦٠.

[2] سورة النور : ٢١.

[3] سورة فاطر : ٦.

الكريم، ويزعم -بخياله القصصى الشارد- أن إبليس عزم على التوبة وألح عليها لـولا أن رده عنها شيخ الأزهر وأمين الوحى جبريل عليـه السـلام ؟! وهـل نسـى الأسـتاذ الحكيم أن الذى يطلب من الله أن يمهله إلى يوم البعث، هو -فى الحقيقة- مصر كل الإصرار على المعصية، وعلى السير فيها إلى ذلك اليوم الذى حـدده بحريتـه واختيـاره بعد أن اختار المعصية ومحاولة إضلال الناس اختيارًا نهائيًا لا رجعة فيه ؟! وهل نسـى الأستاذ الحكيم أن مصير إبليس قد تحدد نهائيًـا برغبتـه الذاتيـة وقبولـه الصريـح لهـذا المصير، وموافقته على أن تظل اللعنة الأبدية لاحقة بـه، و لم يبـدِ لله عـز وجـل أدنـى رغبة فى التخلص من تلك اللعنة، و لم يطلـب منـه رحمتـه أو مغفرتـه..؟! لقـد وافـق إبليس على أن يكون رجيمًا ملعونًا إلى يوم الدين مرتين : الأولى عندما اختار المعصية وهو يعلم عقاب ربه له عليها، والثانية : حينما سأله ربه عن المانع له من السـجود، فاعترف بصريح العبارة بأنه من نار وآدم من طين، فـأرجع المـانع إلى اختيـاره وذاتـه حقـدًا علـى آدم وتكـبرًا عليـه... وأبـدى إصـراره علـى الإفسـاد والفسـق والكفـر والمعصية، بل أقسم على ذلك كله بعزة الله سبحانه، وطلب من ربه الإمهال إلى يوم الدين، فمنحه الله ما طلب بناءً على اختياره، لا ظلمًا لـه، ولا فرضًـا عليـه، فكيـف يكون هذا اللعين بطل مأساة قدرية وشهيد قضاء مكتوب ؟!

وتخيل الأستاذ الحكيم بأن زوال إبليس من الوجود يدمر نظام الكون تخيـل باطل؛ لأن الإنسان وحده قابل للشر حتى بدون وسوسـة إبليـس لـه، فهنـاك النفـس الأمّـارة بالسـوء، وهنـاك الدنيـا التـى تخـدع بزينتهـا، وهنـاك الشـهوات والأطمـاع والأهـواء.. ومـا إلى ذلـك مـن صنـوف المغريـات التـى توقـع الإنسـان فـى الخطيئـة والمعصية.. فحرية المخلوق البشرى فى الدنيا هى علة الشر فى العـالم، وليـس إبليـس -وحده- هو علة الشر ووجود الأشرار، إلا بما يخص ذاته ومعصيتـه وأفعالـه الخاصـة ووسوسته الخبيثة.. فما كان ينبغـى لكـاتب مسـلم مثـل توفيـق الحكيـم أن يستسـلم لخياله القصصى الجامح الذى زين له أن إبليس ضرورة من ضرورات الكون يقوم بها

وعليها يعتمد، فإذا مازالت ضاعت الملامح، واختلطت القسمات، وتزلزلت الأركان، وزالت الجدران... إلى آخر ما زعمه فى تلك النظرة القصصية التى نظر بها إلى إبليس، وحاول -بأسلوبه القصصى وقدرته على حبك الحوار- أن يدعو الناس إليها، غير مكترث بتصوير القرآن الكريم لشخصية إبليس، وغير مكترث بالمعايير الدينية والأخلاقية التى ينبغى على الأدباء أن يلتزموها حينما يحاولون معالجة موضوع من الموضوعات التى سبق للقرآن الكريم معالجتها وتصويرها.. ذلك أن ما يسميه النقاد بالمعيار الفنى إنما يكون فى تلك الجوانب المتعلقة بعواطف الناس وتجاربهم الخاصة وشئونهم الحياتية وموضوعاتهم الشخصية... أما القرآن الكريم فكتاب له قداسته وتقديره وضرورة الالتزام بالحقائق الثابتة فيه.

وإنى لأكاد أعتقد أن الأستاذ الحكيم قد أراد بهذه النظرة التى نظر بها إلى إبليس أن يقلد أدباء الغرب الأوربيين الذين ابتعدوا بشخصية إبليس أو الشيطان كثيرًا عن مصدرها الدينى، حين نقلوها إلى ميدان الأدب، ولاسيما على يد الرومانتيكيين ورائدهم الأول فى هذا الباب الشاعر الإنجليزى ملتون فى "الفردوس المفقود". ولذلك وقع الأستاذ الحكيم فى أخطاء وأباطيل لم يقع فى مثلها حين نشر فى عام ١٩٣٣ مسرحيته الشهيرة "أهل الكهف" التى استقى مادتها الأولية من مصادر متباينة أهمها ما جاء عن هذه القصة فى القرآن الكريم، حتى إنه قد اعتمد على القصة القرآنية فى رسم هيكل أحداث المسرحية وشخوصها، بل وفى إنهائها، وبالتالى لم يبتعد كثيرًا عن المصدر الدينى للقصة، أما فى قصته "الشهيد" فحاول -كما رأينا- أن يخترع لنا إبليسًا حسن النية، نبيل الطوية، يصعد إلى السماء فيلقى جبريل، ويقتحم على شيخ الأزهر مكتبه، مبديًا الرغبة فى التوبة والرجوع إلى الله... فأدى به ابتعاده عن المصدر القرآنى للقصة إلى الوقوع فى العديد من الأخطاء، حتى إنه ادعى ما يجافيه الواقع، وحمله خياله القصصى الشارد على أن يصور شيخ الجامع الأزهر على غرار أصحاب صكوك الغفران من البابوات الكنسيين

الذين يزينون لأتباعهم أنهم يغفرون لهم الزلات ويمحون عنهم السيئات ويتوبون على من يريدون من الناس. والأستاذ الحكيم بذلك يجهل أو يتجاهل أن الدين الإسلامى يخلو من مثل هذا العبث... فليس فى الإسلام وساطة بين العبد المبتلى وبين ربه سبحانه، وأن من أراد أن يتوب فعليه التوجه مباشرة إلى ربه الذى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل.

ثم من الذى قال : إن اختصاص شيخ الأزهر مستمد من وجود إبليس فى هذا الكون ؟ ولو زال إبليس من الكون لانتهى مبرر استمرار شيخ الأزهر وعلماء الدين ؟ وهل يلبث بذلك الكاتب الكبير الذى كتب عن أهل الكهف وعن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يحيد عن هذا الخط العظيم فى نتاجه القصصى والمسرحى، فيكتب قصة يختمها بعبارة يحاول بها أن يشعر قارئيه بأن الكون ونجومه وأجرامه يشهدون مع إبليس بأنه شهيد القضاء و القدر ؟! وهل نسى الأستاذ الحكيم أن اعتبار سيدنا جبريل متحدثًا فى حوار قصصى خيالى نوع من الكذب على الله سبحانه وتعالى، لأن جبريل أمين الوحى ورسول الله إلى الأنبياء والمرسلين ؟!

وعلى كل حال، فإن الأستاذ توفيق الحكيم فى هذه القصة كان عابثًا إلى أقصى حد، هادفًا من وراء كل ما سطره خياله القصصى إلى الوصول إلى نتيجة مؤداها أن إبليس من ضحايا القدر، وأنه يستحق منا العطف والشفقة... وقد عمل الكاتب على ترك هذه النتيجة -كأثر- فى نفس القارئ دون التصريح بها، والإعلان عنها.

وإذا كان الأستاذ الحكيم قد رمى إلى ذلك بالأسلوب القصصى غير المباشر الصريح، فإن كاتبًا ثانيًا من تلاميذ إبليس فى شبهاته السبع، قد دعا إلى هذه النتيجة صراحة. وقد ظهر هذا الكاتب -ويدعى الدكتور صادق جلال العظم[1]- فى عصرنا الحديث ضمن طائفة من الملاحدة الجدليين الذين ينكرون الله، ولا يؤمنون

---

[1] يعمل أستاذًا للفلسفة فى الجامعة الأمريكية ببيروت.

بالبعث ولا بالرسل والأنبياء، والكتب السماوية والمعجزات، وقد ارتدى هؤلاء الملاحدة أقنعة العلمانية والبحث العلمي المتقدم، واستغلوا بالباطل كل ثقل التقدم العلمي المادي في الصناعة والتكنولوجيا، زاعمين للناشئين من جيلنا أن التقدم العلمي الحديث يدعم مذهب الإلحاد والكفر بالله، على الرغم من أن العلم الحق إنما يدعو إلى الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر، أما العلم الباطل الذي يرتدي أقنعة العلمانية فقد يدعم قضية الإلحاد والتشكيك في آيات الله سبحانه، لأنه علم باطل يلبس ثياب الزور والإفك والبهتان، فهو يؤيد باطلاً مثله، والباطل -كما نعلم- إنما يؤازر بعضه بعضًا!

فمن غريب ما فعله هذا الدكتور الملحد أنه ألقى محاضرة[1] بعنوان "مأساة إبليس : نظرة جديدة إلى موضوع قديم"، ثم نشرها في مجلة لبنانية[2] صدرت بقرار الحكومة الممنوح للدكتور جميل جبر بوصفه ممثل المنظمة العالمية لحرية الثقافة، ثم أودعها في كتاب له أسماه "نقد الفكر الديني"[3].

وحينما يقرأ الإنسان ما كتبه هذا الدكتور الملحد في هذا الموضوع، يجد فيه ألوانًا عديدة من التمحل والتعسف والسفسطة، دون اعتبار بما هو ظاهر وواضح من أهداف العظة والعبرة، وبما في القرآن الكريم من نصوص صريحة جامعة تفيض بالعديد من حقائق الإعجاز، كما استخدم الكاتب مختلف أساليب الغش والخبث والخداع والتزوير التي يمكن أن يزاولها كاتب بالقلم، وجاء كلامه متسمًا بالمغالطات والأباطيل ومحاولة طي الحقائق القرآنية وكتمانها، والاقتصار على الأمور التي تفيده في حديثه عما أسماه "مأساة إبليس"، تلك التي حملت الكاتب على أن يدافع عن إبليس بما لم يدافع به إبليس عن نفسه حينما صدر عليه قرار الطرد من رحمة ربه ومولاه.

---

[1] في النادي الثقافي في بيروت.

[2] مجلة "حوار"، العدد الثاني من السنة الرابعة يناير / فبراير ١٩٦٦م.

[3] في فصل خاص يحمل العنوان الذي جاء في المحاضرة والمجلة.

ويتضح للقارئ أن الدكتور العظم فى دفاعه عن إبليس لم يخرج عن تلك الشبهات الإبليسية السبع التى نشرتها التوراة المحرفة، وروجتها الأناجيل المخترعة، فليس فى كلام الدكتور الملحد من إضافة تذكر إلا صياغة هذه الشبهات السبع فى أسلوب أدبى عصرى، ومن هنا فكلامه فى الحقيقة (نظرة إبليسية قديمة إلى موضوع قديم)، وليس -كما زعم الكاتب- (نظرة جديدة إلى موضوع قديم)، ذلك أن العظم -مع استخدامه لكل هذه الشبهات بتعابير مختلفة- قد دار حول تلك الأبطولة التى وردت فى الشبهة الرابعة فى قول إبليس لعنه الله «لم أرتكب قبيحًا إلا قولى : لا أسجد إلا لك» !

لقد صاغ الدكتور الملحد هذه الأبطولة صياغة جديدة فى عنوان فرعى يقول : "إصرار على التوحيد فى أصفى معانيه" ! ومن هنا بات الدكتور العظم يبنى أبطولته على أساس أن ما أسماه "مأساة إبليس" يتضمن نوعى المأساة التى تعرفها الإنسانية فى الفكر والأدب، وهما :

١- مأساة الغربة.

٢- ومأساة المصير.

وأساس المأساة المزعومة عنده هو تعارض الأمرين الصادرين إلى إبليس من ربه، ذلك أن إبليس الذى كان كبير الملائكة قد وجد نفسه أمام واجب يأمره به ربه وهو السجود لآدم، مع أن الله قد أوجب على خلقه -وإبليس منهم- أن لا يسجدوا لغير الله، فآثر إبليس التمرد على أمر السجود لآدم، حتى يظل ملتزمًا بواجب عدم السجود لغير الله، فكانت مأساته بنوعيها السابقين.

ويدعى الدكتور العظم : أن إبليس قد تخطى النوع الأول من مأساته حينما انفرد وحده دون سائر الملائكة بإصراره على التوحيد فى أصفى معانيه، فصار غريبًا -بهذا الموقف- بين الملائكة، كما أنه تخطى النوع الثانى بطرده من السماء وقضاء حياته ملعونًا فى الأرض إلى يوم الدين !

ويدعى الكاتب أن ظلمًا فادحًا وقع على إبليس، جعله ضحية تعارض الأمرين الصادرين إليه من ربه. وقد جعل الكاتب هذا الزعم هو اللولب أو المحور الذى يدور عليه كلامه، فأكثر من الإبداء والإعادة فيه إلى درجة الإملال، واقتبس أقوالاً لبعض المفسرين والمؤلفين المسلمين عن تمرد إبليس، وأتى بمحاورات مفروضة متخيلة بين إبليس وبين الله، وبين إبليس وموسى عليه السلام، وبين قصة إبليس وقصة ابتلاء سيدنا إبراهيم عليه السلام برؤيا ذبح إسماعيل عليه السلام، وكان مما قاله فى موازنته بين موقف إبليس وموقف آدم عليه السلام :

«يتكون جوهر الكبرياء المأساوية من رفض البطل لأن يبقى سلبيًا فى وجه ما يعتبره تحديًا لواجبه ومنزلته وكرامته، حتى لو كان يعلم أن هذا التحدى هو جزء من مصيره، وأن كبرياءه تنتهى به إلى الدماء واليأس والموت، وهكذا انتهى أوديب بطل قصة شكسبير، وهكذا انتهت أنتيجون بطلة قصة أخرى، وهكذا انتهى إبليس. أما آدم فلم يعرف هذا النوع من الكبرياء على الإطلاق، ولو كان مقدرًا له أن يكون شخصية مأساوية لما قال : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، حيث نستنتج إذن أن كبرياء إبليس لم تكن ناتجة عن عجرفة فارغة، ولا عن تطاول على معبوده، بل كانت كبرياء مأساوية دفعته لأن يلجأ إلى الله من قضاء الله عليه، ولم يغير إبليس موقفه من ربه حتى بعد أن أصبح طريدًا ولعينًا» !

ويمضى العظم فى مثل هذا الهراء والكلام الفارغ -يبدأ ويعيد فى مسألة ما أسماه بمأساة إبليس، ومسألة المشيئة الإلهية والإرادة الربانية، وكون إبليس لا يستطيع الخروج منهما، فكان من هراء العظم -أيضًا- ادعاؤه : أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لإبليس أن يسجد لآدم لسجد، ولو شاء للملائكة أن لا يسجدوا لآدم لما سجدوا، ولو شاء لآدم أن لا يستجيب لوسوسة إبليس لما استجاب، ولكن الله شاء لآدم أن يقع فى الإغراء فوقع، ولم يشأ أن يسجد إبليس لآدم فلم يسجد، فى حين

أنه لم يشأ أن يعصى الملائكة فلم يعصوا، وهكذا ذهب إبليس -فى نظر هذا الدكتور الملحد- ضحية مشيئة الله الذى طلب منه شيئًا، و لم يشأ أن يفعله؛ فلم يقدر على فعله بطبيعة الحال !

ثم أعاد العظم هذا الهراء بصورة تعبيرية أخرى، فقال فى الصفحة التاسعة والثمانين من كتابه ما نصه : «لقد شاء الله وجود أشياء كثيرة غير أنه أمر عباده بالابتعاد عنها، كما أنه أمرهم بأشياء ولكنه أرادهم أن يحققوا أشياء أخرى، لذلك باستطاعتنا القول : بأن الله أمر إبليس بالسجود لآدم، ولكنه شاء له أن يعصى الأمر، ولو شاء الله لإبليس أن يقع ساجدًا لوقع ساجدًا لتوه، إذ لا حول ولا قوة للعبد على رد المشيئة الإلهية» !

ثم قال الدكتور الملحد فى الصفحة التى بعدها مباشرة : «لاشك أن إبليس خالف الأمر الإلهى عندما رفض السجود لآدم، غير أنه كان منسجمًا كل الانسجام مع المشيئة الإلهية، ومع واجبه المطلق مع ربه... ولو وقع إبليس ساجدًا لآدم لخرج عن حقيقة التوحيد، وعصى واجبه المطلق نحو معبوده» !

وراح يتابع بسفسطته الزائدة عن الحد شرح أباطيله فقال كاذبًا : «أراد الله للملائكة أن يقدسوه، وأن يسبحوه باسمه، لذلك كان السجود لآدم وقوعًا فيما يضيفه أهل الشرك إلى الذات الصمدية مما هى منزهة عنه، إذ أن السجود لغير الله لا يجوز على الإطلاق لأنه شرك به. فى الواقع يثير اختيار إبليس سؤالاً هامًا جدًا هو : هل تكمن الطاعة الحقيقية فى الإذعان للأمر أم في الخضوع للمشيئة ؟ هل يكمن الصلاح فى الانصياع للواجب المطلق أم الواجب الطاعة الجزئية ؟ لو كان الجواب على هذا السؤال بسيطًا وواضحًا لما وجدت المأساة فى حياة الإنسان، ولما وجد إبليس نفسه فى هذه المحنة، ولما وقع بين براثن الأمر والمشيئة. نستنتج إذن أن موقف إبليس يمثل الإصرار المطلق على التوحيد فى أصفى معانيه وأنقى تجلياته» !

ومع أن هذا الدكتور الملحد لا يؤمن أصلاً بقصة إبليس مع آدم الواردة فى

القرآن الكريم، ومع أنه يعدها أسطورة خيالية من الأساطير الدينية المجافية للواقع، فإنه تناقض مع نفسه، وراح يناقش هذه القصة، ويشرحها بطريقته الإلحادية حتى لكأنه يؤمن بها، فأقام من نفسه عارضًا لها كما يهوى، ومدعيًا عليها ما يتفق مع الصورة التى رسمها له فكره العقيم، وأخذ يغالط فى حقائقها ويتلاعب بنصوصها كما راق له، ليبنى بناءاته الفاسدة على الخيوط التزييفية التى صنعها، وبات يلح على التلاعب بمضمون القصص القرآنى، ليشوش على المؤمنين مفاهيمهم وعقائدهم. فشبه -كما سبقت الإشارة- كلام الله الحق عن إبليس فى هذه القصة بمسرحية أوديب ومسرحية أنتيجونا، إذ تنتهى مأساة إبليس -عنده- فى القصة القرآنية، كما انتهت مأساة أوديب وأنتيجونا فى الأدب التراجيدى الغربى الذى سيطرت عليه مسألة الجبر، وتعارض الأمرين الصادرين من الإله إلى المعبود، تعارضًا يجعله هالكًا أيًا ما اختار أحد الأمرين الصادرين إليه !

وادعى الدكتور العظم أن نصوص القصة القرآنية تفيد أن إبليس ملك من الملائكة، وقد عصى لأن الملائكة عرضة لفعل الخير والشر والهداية والغواية كالإنسان تمامًا. إلا أن عصيانه لم يكن استكبارًا وفخارًا بقدر ما كان استذكارًا لحقيقة أساسية شاءها الله وأوجدها على ما هى عليه !

واتخذ الدكتور العظم من نفسه عالمًا ضليعًا من علماء اللغة العربية -وهو أجهل من دابة- فراح يحلل نصوص القصة القرآنية تحليلاً لغويًا، فزعم أن السجود الذى أمر الله به الملائكة لم يكن سجود تكريم لآدم -كما قال جميع المفسرين والعلماء- بل كان سجود عبادة ! وفى سبيل تأكيد هذه الأبطولة أخذ يناقش آراء المفسرين والباحثين الذين يقولون : إن السجود لآدم كان سجود تكريم. وأبى الدكتور الملحد أن يأخذ بهذا الرأى الصحيح، وأصر على القول بأنه كان سجود عبادة؛ بل زعم أن السجود ليس له فى القرآن الكريم كله إلا معنى واحد هو العبادة!

وعلق الدكتور العظم -فى الصفحة الواحدة والتسعين من كتابه- على قول الحق سبحانه فى هذه القصة على لسان إبليس : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ بأن إبليس فى هذه العبارة التى قصها علينا القرآن الكريم قد برر رفضه السجود لآدم تبريرًا منطقيًا واضحًا، فكانت حجته على الله حجة منطقية دافع بها عن نفسه.. و لم يقف الدكتور العظم فى تعليقه على هذا القول عند هذا الحد؛ بل أخذ يسهب ويطنب فى الشرح والتفسير، فكان مما قال : «... عند إمعان النظر بحجة إبليس الأولى التى تتألف من مفاضلته بين جوهره (النار) وبين جوهر آدم (الصلصال) نجد أنها لم تكن استكبارًا وفخارًا بقدر ما كانت استذكارًا لحقيقة أساسية شاءها الله وأوجدها على ما هى عليه. وهذه الحقيقة هى أن الله لم يخلق الطبائع على درجة واحدة من السمو والكمال، وإنما ميز بينها، ليس من حيث خصائصها الطبيعية والمادية فحسب؛ بل من حيث درجات كمالها ورفعتها أيضًا. وبناء عليه ففى إمكاننا أن نصنف الكائنات والأنواع فى نظام تقديرى معين يبدأ بالكمال المطلق ذاته، ثم يتدرج بالأنواع هبوطًا كل حسب درجة كماله التى أسبغها الله عليه، إلى أن نقترب من العدم، باعتباره الحد الذى نقف عنده، ولاريب أن النار بطبيعتها وجوهرها تحتل مرتبة أسمى وأرفع فى هذا الترتيب من المرتبة التى يحتلها الصلصال. بعبارة أخرى : تنطوى مفاضلة إبليس بين جوهره وبين جوهر آدم على نظرة فلسفية معينة لنظام الكون وترتيب الطبائع وفقًا لدرجات الكمال التى تتصف بها. لذلك كان إبليس على حق فى جوابه، لأن الخالق جعل الأشياء على ما هى عليه من درجات الكمال و السمو، وأمر السجود لآدم يشكل مخالفة صريحة لهذا النظام وخروجًا على الترتيب الذى شاءه الله وأوجده. فإذا كان جوهر إبليس أرفع فى سلم الكمالات من جوهر آدم فلن تستطيع النار -عندئذ- أن تذل للصلصال إلا بالسير فى اتجاه مضاد لطبيعتها ومنافٍ لدرجة الكمال التى أسبغها الله عليها، وهذا

أمر محال ما لم يطرأ تحول جذرى على المشيئة الإلهية فتغير ترتيب الطبائع عما كانت عليه منذ أن أوجدها الله» !

كذلك حاول هذا الدكتور الملحد فى تحليله لنصوص القصة القرآنية أن يستدل على تسويغ كون ما وقع من إبليس كان من إغواء الله -تنزه الله عن ذلك- بما جاء فى سورة الأعراف من حكاية لقول إبليس : ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الآيتان ١٦، ١٧).

ويستطرد الدكتور الملحد إلى ما فى القرآن الكريم من إشارات إلى إغراءات إبليس ومرادفه الشيطان، وتزيينهما للبشرية بإذن الله، وما ينجم عن ذلك، فيجعل العظم ذلك من القضايا القرآنية الكبرى، ويصوره على أنه قد شغل الحيز الأكبر فى عقائد المسلمين وأعمالهم ونشاطهم، ويحاول أن يبرز ما فى ذلك -حسب ادعاءاته الكاذبة- من ثغرات وتناقض وتعارض، ولا يتورع عن إساءة الأدب نحو ربه الذى خلقه وأسبغ عليه من نعمه وآلائه، فيقول فى مواضع متفرقة من كتابه : «إن الله قد سلط إبليس والشيطان على الإنسان، وأمره بالإيمان به، وعدم إطاعتهما فى حين قدر عليه الوقوع فى شبكتهما، فلم يكن له مناص فى ذلك، فذهب بدوره ضحية تناقض الله ومكره» ! تنزه الله عن ذلك وتعالى علوًا كبيرًا.

وهكذا يتضح لنا أن الدكتور العظم لم يقف عند حد التلاعب بمضامين ومفاهيم النصوص القرآنية لقصة آدم وإبليس، بل تجاوز ذلك إلى إساءة الأدب فى حق الخالق جل وعلا، وإلى وصفه ربه بالمكر وفق المفهوم القبيح الذى لا يليق بالمخلوق فضلاً عن الخالق جل وعلا... ثم تجاوز ذلك أيضًا إلى إيراد قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسـراء، الآيـة ١٦)، ثـم راح فـى الصفحـة (١٢٢) مـن كتابـه يشرح هذه الآية الكريمة شرحًا يحرف معناها تحريفًا يناقض تمامًا معناها الصحيـح، إذ قال فى معناها ما نصه : «كان قد شاء تدمير القرية، ولكن لئلا يكـون للعبـاد عليـه حجة فيما شاء لجأ إلى المكر، فـأمر مترفيهـا أن يفسـقوا حتـى يبـدو للجميـع وكـأن القرية استحقت ذلك التدمير، بينما الحقيقة غير ذلك» !

ويصر الدكتور الملحد علـى تفسـير المكـر الـذى وصـف الله بـه نفسـه فـى القرآن الكريـم تفسـيرًا لا يليـق بمقـام الله عـز وجـل، حيـث يفسـره -كمـا سـبقت الإشارة- بمعنى الخداع والمخاتلة والاستهزاء والغش والكذب. وأخذ يـورد نصوصًـا قرآنية متعددة حورها تحويرًا شائنًا، وفسرها بمـا يخـالف دلالاتهـا الحقيقيـة مـن أجـل الوصول إلى غايتين ذميمتين : إحداهما : أن ينسب إلى الله تعالى صفة ذميمة قبيحـة أراد أن يفهمها هو من لفظة المكر، والغاية الثانية هى : محاولـة إثبـات أن مـا حـدث لإبليس إنما كان نتيجة لإيقاع الله له بذلك الفخ الذى نصبه بمكره لإبليس.. كـبرت كلمة تخرج من فم العظم إن يقول إلا كذبا !

واستنتج الدكتـور العظـم مـن مغالطاتـه السـابقة : «أن اللعنـة التـى نزلـت بإبليس لم تكن تعبيرًا عن نهايته الحقيقية التى شاءها الله له، وإنما كـانت مكـرًا إلهيًـا غايته تنفيذ أحام المشيئة فيه»، ومن هنا راح الدكتور العظم فى تحليله لنصوص قصـة إبليس فى القرآن الكريم يفسر ما جاء فيها عن وعيد الله عز وجـل لإبليـس بـالخلود فى النار، بأنه من قبيل المكر الإلهى الذى يفهمه الدكتور الملحد على أنه غش وخداع وكذب، ولذلك فهو يتوقع لإبليس أن يدخل الجنة «إذ أن مكر الله يتطلب أن يعتقد إبليس اعتقادًا جازمًا بأن خاتمته لن تكون إلا خاتمة تعيسة ويائسة» ! على أن إبليـس -فى مزاعم الدكتور العظم- يمثل الآن أحد الأركان الأساسية فى الكون، ولا يمكـن -بحال- أن يسـتمر الكـون بمـا هـو عليـه مـن نظـام إلا إذا اسـتمر إبليـس فـى دوره كمصدر للشر، ومن هنا فهو بذلك منفـذ لإرادة الله ومشـيئته، فلابـد إذن أن يثيبـه

الله فى نهاية المطاف ثوابًا حسنًا على قام به فى الدنيا، باعتبار أن ما قام به كان ضروريًا لبقاء الدنيا على ما هى عليه حتى يوم الجزاء !

بقى أن نقول فى عرضنا لتخرصات وأباطيل الدكتور العظم حول قصة آدم وإبليس فى القرآن الكريم : إن هذا الدكتور الملحد قد استخدم فى عرض أباطيله شتى وسائل التزييف والمغالطات، وكان كحاطب ليل يحاول جمع الدليل من هنا، والحجة من هناك، ولذلك لم يقتصر على ما سبق عرضه من أباطيل وتخرصات؛ بل إنه استند إلى المفاهيم الجبرية والباطنية الباطلة الفاسدة، ونقل شطحات "الحلاج" القائمة على العقيدة الجبرية، والتفسيرات الباطنية، والصور والتعبيرات الرمزية، واعتبرها هى الممثلة للفكرة الإسلامية فى موضوع إبليس وقصته، كذلك اعتمد آراء عز الدين المقدسى فى كتابه المعروف "تفليس إبليس"، لأنها فى مضمونها تتوافق مع الشطحات الحلاجية الباطنية.

ويلحظ القارئ -أيضًا- أن الدكتور العظم حينما راح يستشهد بأقوال بعض المسلمين فإنه لم يستشهد إلا بالأقوال الشاذة، والمذاهب الضعيفة، والآراء المنحرفة، التى تصيدها من بين الآراء والمذاهب والأقوال الصحيحة السليمة، ثم قدمها على أنها -مع شطحات الحلاج- الممثل الوحيد للفكرة الإسلامية فى قصة إبليس، ثم طوى ما عداها من الأقوال والآراء والمفاهيم، أو كان يشير إليها إشارة سريعة دون إيضاح، بالإضافة إلى كذبه فى نسبة الآراء إلى أصحابها، وتخصيص العام، وتعميم الخاص، ونقل مصطلحات حديثة إلى زمن لم يكن فيه للشرك وجود مطلقًا.. أعنى ذلك الزمن الذى حدث فيه موقف إبليس من السجود لآدم عليه السلام. ثم زاد العظم الطين بلة باقتطاعه النصوص القرآنية عن سياقها، وطى الكلام الذى قبلها ليضلل قارئيه، بعد أن يشوه المعنى المراد مثل استشهاده بآية قرآنية أوردها على النحو التالى : ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة : ١٥)،

ومثل إيراده آية قرآنية أخرى هكذا : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء : ١٤٢).

صنع الدكتور العظم كل هذا من أجل شيء واحد، هو ما أسماه : "مأساة إبليس : نظرة جديدة إلى موضوع قديم"... وبعد أن قدم حيثيات دفاعه عن أستاذه "إبليس" الذى علمه كيف يدافع عنه، وكيف يطلب البراءة لموكله... بعد أن قدم الدكتور الملحد حيثيات دفاعه القائم على الكذب والمغالطات، انتهى صراحة إلى النتيجة التى انتهى إليها من قبله الأستاذ توفيق الحكيم ضمنًا، وهى أن إبليس كان ضحية الموقف الذى وقفه من آدم عليه السلام.. فتوافق الاثنان فى أصول نظرتهما لإبليس.. تلك النظرة القائمة على التعاطف معه، والشفقة به، والمستمدة -كما سبق البيان- من شبهات إبليس السبع التى صنعها أحبار اليهود فى التوراة المحرفة، وقساوسة النصارى فى الأناجيل المغايرة لإنجيل المسيح عليه السلام.

وإذا كان الأستاذ الحكيم قد ختم قصته بتقرير أن إبليس شهيد شهيد، فإن الدكتور الملحد قد صرح بضرورة أن يدخل الناس تعديلاً جذريًا على نظرتهم التقليدية لإبليس، وأن يحدثوا على الفور تغييرًا جوهريًا لتصورهم لشخصيته ومكانته، وأن يردوا له اعتباره بصفته ملاكًا يقوم الآن بخدمة ربه بكل حب وتفان وإخلاص، وينفذ المشيئة الإلهية بكل دقة وعناية والتزام، وأخيرًا يتحتم على البشرية كلها -عند تلميذ إبليس الوفى- أن تكف عن كيل السباب والشتائم له، وأن تطلب له من الله العفو والصفح عنه، وذلك لأن الله سبحانه -فى نظر الدكتور الملحد- هو المسئول عن القبائح والنقائص التى يفعلها إبليس، وليس إبليس هو المسئول عنها باعتبار أن الله هو الذى كلفه بذلك وأراده له.

تعالى الله عن سائر ما زعمه الدكتور الملحد علوًا كبيرًا !

تعقيب ومناقشة

هذا تلخيص يكاد يكون شاملاً لسائر ما زعمه وافتراه الدكتور صادق جلال العظم أستاذ الفلسفة فى الجامعة الأمريكية ببيروت.. حول قصة آدم وإبليس فى القرآن الكريم.

والواقع أن ادعاءه بأن إبليس قد انفرد دون سائر الملائكة بالإصرار على التوحيد فى أصفى معانيه -ادعاء باطل ووصف من الكاتب للملائكة بالشرك حاشا لله، وهو فى ذلك ليس مجازفًا متهافتًا فحسب، بل كفر وأشرك، لأنه وصف الملائكة المعصومين من الخطأ والزلل بما ليس فيهم.

وادعاء الكاتب أن إبليس كان مصرًا على التوحيد فى أصفى معانيه ادعاء يقوم على مغالطات اعتمدت على التلاعب بالمفاهيم الإسلامية الصحيحة لتشويه معالمها، ومن هنا حرص الكاتب على ترتيب نقده السخيف ترتيبًا يناسب هذه المعالم المشوهة. ولنا فى كشف هذه المغالطات وجهان :

أولهما : أن أوامر الحق سبحانه وتعالى لا تتناقض، إذ لا يعقل أبدًا أن ينهى الله عز وجل عن عبادة غيره فى الوقت الذى يأمر فيه بعبادة غيره، ولا يعقل أبدًا أن يأمر بعبادة غيره فى الوقت الذى ينهى فيه عن عبادة غيره، لأن النقيضين -كما يقول المناطقة- لا يجتمعان أبدًا. ومن هنا نعلم أن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم لم يكن أمرًا بعبادته مطلقًا، لأن الله نهى عن الشرك به.

والوجه الثانى : أن أصل الشرك بالله -كما نعلم جميعًا- هو أن يعتقد الإنسان بوجود إله غير الله يستحق العبادة مثله، كذلك نعلم أن للشرك بالله تعبيرات لفظية، ومظاهر فعلية. فالتعبيرات اللفظية تدل بوضعها اللغوى الاصطلاحى على مدلولاتها، فإن قالها قائل قاصدًا لمعانيها وفق مصطلحاتها اللغوية دل على أنه قد أشرك بالله فى عقيدته. والمظاهر الفعلية تدل

-كذلك- بوضعها الاصطلاحي المتعارف عليه على مدلولاتها الاصطلاحية، فإنْ فعلها فاعل قاصدًا لمدلولاتها الاصطلاحية المتضمنة معنى الشرك با لله في العبادة دل على أنه قد أشرك با لله وكفر به. وكل ما سبق لم يكن في سجود الملائكة لآدم، فكيف يدعي الدكتور الملحد أن إبليس بعدم مشاركته الملائكة في هذا السجود قد وقف موقف الإصرار المطلق على التوحيد في أصفى معانيه وأنقى تجلياته ؟!

وادعاء الدكتور الملحد بأن ثمة ظلمًا فادحًا وقع على إبليس ادعاء كاذب وكفر من الكاتب با لله جل جلاله، فقد تعالى ا لله عن الظلم علوًا كبيرًا، و لم يجعله بين عباده محرمًا فحسب، بل حرمه أيضًا على نفسه، فعن سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي ا لله عنه عن النبي -صلى ا لله عليه وسلم- فيما يرويه عن ا لله تبارك وتعالى أنه قال : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا...» رواه مسلم[1].

وفي القرآن الكريم أكثر من آية تقرر أن الحق جل جلاله لا يظلم أحدًا من عبيده، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[2]، وفي معنى هذه الآية الكريمة قال أستاذ الجيل وإمام العصر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي : «قد يتبادر إلى بعض الأذهان مثل المستشرقين أن يقول : إن ا لله سبحانه وتعالى قد نفى عن نفسه المبالغة في الظلم، ولكنه لم ينفِ عن نفسه صفة الظلم. فنقول له : إنك لم تفهم معنى الآية الكريمة، فإن ا لله تعالى لا يظلم أحدًا من عبيده، ولذلك استخدم كلمة العبيد دون العبد، وهي تفيد أن الحدث

---

[1] رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، يحيى بن شرف النووي، ص٧٠.

[2] سورة فصلت، الآية ٤٦.

هنا متكرر، فالمبالغة لا تأتى من الحدث نفسه، ولكنها تأتى من التكرار، فالله تعالى يريد أن ينفى أنه يظلم أحدًا من عبيده ولو مقدار ذرة، ولذلك استخدم صفة المبالغة، لأن متعلقات الصفة مجموع هائل من البشر، ومن هنا قال فى آية أخرى : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾»[1].

لكن الدكتور العظم قد تعامى عن ذلك كله، وراح يدعى أن ظلمًا فادحًا وقع على إبليس ! تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

أما موازنة العظم بين موقف إبليس وآدم، وغيرها من الموازنات التى سبق ذكرها، فهى جميعًا موازنات باطلة تقوم على تلاعب الكاتب ومغالطاته، وأقل ما توصف به تلك الموازنات أنها ضرب من العبث والهراء والكلام الفارغ، مادام فى القرآن الكريم الذى حاول العظم أن ينطلق من نصوصه -وهو غير المؤمن به أصلاً- ذلك الحسم الصريح الذى يخرج إبليس به من نطاق ادعاء المأساة والتضحية بالنفس وبطولة العقيدة وكرامة الواجب.

ولقد أساء الكاتب الأدب مع جلال القصص القرآنى حين راح يشبه ما انتهى إليه إبليس بما انتهى إليه أوديب، وانتهت إليه أنتيجونا، إذ لا يصح لأحد أن يوازن بين قصص القرآن الكريم الذى هو من كلام الخالق جل وعلا، وقصص الأدباء والكتاب.

فإذا كانت مسألة تعارض الأمرين الصادرين إلى الإنسان قد سيطرت على الأدب التراجيدى الغربى -فليس معنى ذلك أن يتجرأ كاتب ملحد مثل الدكتور العظم على تشبيه قصة من قصص القرآن الكريم بقصة أو أكثر من قصص هذا الأدب، فإن مكمن المغالطة والانحراف فى هذا الأدب أنه يقرر أن الإنسان هالك أيًا ما اختار أحد الأمرين الصادرين إليه، فهو أدب يختلف عنه أدب القصص القرآنى

---

[1] اللواء الإسلامى، الحلقة الرابعة من خواطره.

تمام الاختلاف، لأن الأدب التراجيدى الغربى تغلب عليه النظرة الجبرية بالنسبة لما يتعرض له الإنسان من أحداث فى حياته. أما قصص القرآن الكريم فبعيد كل البعد عن ذلك كله، ومنزه عنه كل التنزيه. ولا يحسبن أحد أننى -هنا- أوازن بين القصص القرآنى والأدب التراجيدى الغربى، فإننى أريد أن أوضح خطأ الكاتب وتهافته فى هذا التشبيه الذى عقده بين ما انتهى إليه إبليس، وما انتهى إليه أوديب، وانتهت إليه أنتيجونا.

ومما يؤكد خطأ الكاتب وتهافته فى هذا التشبيه أنه شبه قصص القرآن الكريم القائم على الحق والصدق بقصص بشرى يقوم على الكذب والافتراء والأساطير، إذ نعلم جميعًا أن مسرحية "أوديب" إنما هى مسرحية مستمدة من أسطورة يونانية قديمة[1] تحدثت بها الأوديسا، وشغلت كثيرًا من الشعراء فى الأمم المختلفة على اختلاف العصور، فقد تعرض لها من شعراء اليونان كل من : "إيسخيلوس"، و"يوريبيديس"، و"سوفوكليس"، وتعرض لها "سينكا" من شعراء الرومان، ومن شعراء وأدباء فرنسا تعرض لها كل من "كورنى" و"فولتير" و"أندريه جيد" و"جان كوكتو"، وتعرض لها من أدباء مصر كل من توفيق الحكيم وعلى أحمد باكثير.

وقد حاول هؤلاء الأدباء جميعًا أن يستعرضوا من خلال تصوير هذه الأسطورة فى قالب فنى عقيدتهم فى القضاء والقدر، وذلك بإدخال التغييرات والتحويرات فى الحوار والأحداث بما يؤدى إلى إظهار رأى كل منهم وعقيدته فى هذه المسألة. وحين نقرأ على سبيل المثال ما كتبه سوفوكليس عن أوديب نجده يتصور القدر سيفًا صارمًا لا يمكن للإنسان أن تفلت رقبته من حده القاطع. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن أحداث القدر الجبرية، وهى بمثابة الأمر الكونى

---

[1] للوقوف على تفصيلات هذه الأسطورة راجع على سبيل المثال : الكاتب العربى والأسطورة، محمد عصمت حمدى، ص٦٢ - ٦٦.

تجىء متعارضة ومخالفة لأمر الخير والواجب وما تقتضيه الفطرة الإنسانية السليمة، وهى بمثابة الأمر الشرعى.

فالملك "لايوس" ملك طيبة يتزوج الأميرة "جوكاستا"، ثم يحذره "أبوللو" من أن اللعنة ستحل به، وأن ابنه من هذه الأميرة سوف يقتله، ويتزوج أمه. وحينما يرزق "لايوس" بابنه "أوديب" يشعر بالخطر المحدق به، فيصمم على التخلص منه، ويسلمه لراعٍ مسن، ويأمره أن يقتله، ليتاح له بذلك التغلب على الخطر المحدق به، لكن الآلهة تتدخل للمحافظة على حياة الطفل، فيتركه الراعى على قمة جبل بعد أن قيده من رجليه وعلقه على شجرة، ويحدث لهذا السبب أن ينقذ الطفل راعٍ آخر من مدينة أخرى، حمله إلى الملك "بوليب" وزوجته فيتخذانه ولدًا لهما لعدم إنجابهما، ويكبر "أوديب" وهو لا يدرى عن أصله شيئًا، إلى أن عيره صديق له بأنه ليس ابنًا للملك "بوليب" ملك "كورنثه"، وإنما هو لقيط أحد الرعاة، فيذهب أوديب إلى معبد "أبولون"، فتخبره الآلهة بإنه إنسان منحوس كتب عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه، ويجلب البؤس لمدينته، فيظن أوديب أن المقصود بأبيه وأمه هما ملك كورنثه وزوجته، فيهرب من هذه المدينة حتى ينجو من هذا الذى كتب عليه، وبينما هو فى الطريق يشتبك مع ركب مسافر يتزعمه سيد كبير السن هو الملك "لايوس" والد أوديب الحقيقى، فيقضى على الركب وعلى الملك وهو لا يدرى أنه أبوه، ولا ينجو منه إلا رجل أسرع إلى مدينة طيبة حاملاً خبر مقتل الملك، ثم يصل "أوديب" إلى المدينة، فيجد الناس فى فزع وهلع من وحش يهددهم ويحاصرهم ويعترض كل من يمر عليه بلغز إذا عرفه تركه، وإذا لم يعرفه قتله، فيخرج إليه أوديب ويتصدى له ويحل هذا اللغز مما حدا بالوحش، الذى كان له رأس امرأة ضخمة وجسم أسد، أن يلقى بنفسه من أعلى الصخرة التى كان يجلس عليها فيموت بعد أن كان بلغ منه الغيظ ما بلغ، ويكتسب أوديب بسبب ذلك محبة وولاء أهل المدينة، وفى غمرة الفرح بزوال الخطر الذى كان يهددهم يعرض "كريون" أخو الملكة "جوكاستا" على

أوديب أن يلى عرش المدينة مكافأة له على عمله الجيد، فيصير ملكًا لها، ويتزوج "جوكاستا" وهو لا يعلم أنها أمه وينجب منها أطفالاً... وهكذا يتحقق كل ما سطره القضاء وكتبه القدر. وتمضى أحداث المسرحية بعد ذلك إلى أن تنتهى بانتحار جوكاستا، وفقأ أوديب عينه، وأخذ بناته من أمه يتجول بهن فى البلاد متسولاً[1].

هذا تلخيص لمسرحية أوديب التى كتبها سوفوكليس، والتى شبه بها الدكتور العظم قصة إبليس الواردة فى القرآن الكريم. ومن هذا التلخيص يتضح لدينا أنها مسرحية تقوم على أسطورة يونانية قديمة تبرز الإنسان مجبرًا فى شتى الأمور والأفعال التى يحاسب عليها الإنسان، ويترتب عليها مصيره فى الحياة بعد الموت. وهذا يعنى أن علة مأساة الإنسان المتمثلة فى أوديب هى مواجهته إرادته بأمرين متناقضين : أولهما : أمر الواجب والفطرة، المتمثل فى القيم الخلقية الواجب تحقيقها بالفضائل، والثانى : هو القضاء النافذ الذى أجبر أوديب وسائر أشخاص المسرحية عن طريق ما يسميه النقاد بالتسلسل الحتمى للأحداث على ارتكاب هذه الأفعال.

لقد تناولت المسرحية -كما رأينا- أبشع الجرائم التى يمكن أن ترتكب على ظهر الأرض، وهى : قتل الوالد، ونكاح الأم، والانتحار، وفقأ العينين، ونحو ذلك مما حاولت المسرحية أن تثبت وقوعه من الإنسان على الرغم منه، لتقول بعد ذلك : ما ذنب الإنسان فيما يفعل، وقد كتب عليه القضاء كل شىء ! ومن هنا تعطى لمن يرتكب أى ذنب المبرر الذى يتبرأ به من مسئوليته الخلقية.

وهكذا أراد الدكتور العظم من خلال تشبيه قصة إبليس الواردة فى القرآن الكريم بهذه المسرحية أن يبرز ما أسماه بمأساة إبليس، محاولاً أن يثبت أن كل ما كان من إبليس قد خطه القدر عليه، و لم يكن ليستطيع إبليس الإفلات منه !

وهو نفس ما رمى إليه العظم من تشبيه قصة إبليس بمسرحية "أنتيجونا"..

---

[1] راجع : الأدب المقارن بين النظرية والتطبيق، د. إبراهيم عبد الرحمن محمد، ص٢٤٦، ٢٤٧.

تلك التى تقوم على نفس الفكرة الخاطئة التى قامت عليها مأساة أوديب، حيث تجد "أنتجونا" نفسها بين أمرين كلاهما يتعارض مع الآخر، ويجعلها ضحية من ضحايا القدر، فقد قتل الملك "كريون" أخاها، ثم أمرها أن تتركه للوحوش والنسور، وفى الوقت ذاته كان لابد من إذعانها لأمر السماء القاضى بدفن أخيها. فلما خالفت أمر الملك كريون، واستجابت لأمر السماء، انتهى بها هذا الامر إلى مأساة الإنسان، ومن ناحية أخرى تبرز المسرحية الملك "كريون" نفسه على أنه كان بطلاً مأساويًا حينما قتل شقيق أنتيجونا، إذ وجد الملك نفسه بين أمرين : العمل بالقوة والقسوة على إعادة الأمن والنظام وقمع الفتنة فى المدينة حسمًا للشر، ولا وسيلة إلى تحقيق ذلك إلا القتل وإراقة الدماء.

ومن خلال وقوفنا على حقيقة مسرحية "أوديب" ومسرحية "أنتيجونا" يتضح لنا مدى تهافت الدكتور العظم فى تشبيه قصة إبليس الواردة فى القرآن الكريم بهاتين المسرحيتين، كما يتضح لنا مدى حرص العظم على استخدام شتى الوسائل فى إثبات دعواه أن إبليس كان ضحية تعارض أمرين قد صدرا إليه من الله تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

لقد هدف الدكتور الملحد من وراء هذا التشبيه غير السديد أن يثبت ادعاءه بأن امتناع إبليس عن السجود لآدم لم يكن ناتجًا عن عجرفة فارغة، ولا عن تطاول على معبوده؛ بل كان امتناعًا مأساويًا جعله طريدًا ولعينًا إلى يوم الدين !

وتعامى الدكتور العظم -وهو ينفث هذا الهراء وتلك البذاءات من الادعاءات- عن آيات كثيرة فى القرآن الكريم تقرر أن الحق جل وعلا قد أوجد فى العقلاء من خلقه القدرة على معرفة الخير من الشر، وتمييز الهدى من الضلال، ثم رتب عليهم سبحانه نتائج هذا التمييز، وتلك المعرفة... تعامى الدكتور العظم عن الآيات القرآنية العديدة التى قررت ذلك، والتى تفيد أن الجن -ومنهم إبليس- يشتركون مع الإنسان فى القدرة على التمييز، ومعرفة الحق من الباطل، والطاعة من

العصيان. فتكبُّر إبليس وعصيانه لم يكن جبرًا ولا قسرًا، بل كان بحريته واختياره، ومن ثم استحق لعنة الله ودخول ناره.

ولا يصح أبدًا أن يستنتج هذا الدكتور الملحد من كون الحق جل جلاله لو شاء أن يسجد إبليس لآدم لسجد، وما استطاع أن يمتنع أن الله لم يشأ ذلك ما دام قد أمر به، فإن التفسير الأصح أن يقال: إن الله لم يشأ أن يقر إبليس على السجود، ويفرض مشيته بذلك عليهم فرضًا، بل تركه هو والملائكة لاختيارهم، فاستجاب الملائكة باختيارهم طاعةً وإذعانًا، وأبى إبليس -باختياره أيضًا- أنفة وتكبرًا. وفي القرآن الكريم آيات تقر أن الحق سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فلا ينبغي أن يفرض أن الله أمر الملائكة وإبليس بالسجود لآدم إلا مع فرض أنهم جميعًا قادرون على هذا السجود باختيارهم، ولقد غفل العظم وتعامى عن آيات قرآنية عديدة تؤيد ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1]، وليس خافيًا على أحد أن هذه الآية تعني أن الله سبحانه وتعالى قد ترك الخلق لاختيارهم ولم يشأ أن يقسرهم. وفي القرآن الكريم آيات عديدة تقص لنا احتجاج الكفار المشركين بمثل تلك الحجج الواهية التي ساقها العظم الملحد. ولقد رد القرآن الكريم على احتجاج الكفار بما فيه حسم لهذه المسألة كذلك.. فمن هذه الآيات قوله تعالى -مثلاً-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[2].

لقد أتى الدكتور الملحد في كثير من النصوص التي سبق نقلها عنه بكلام

---

[1] سورة يونس: ٩٩.

[2] سورة النحل: ٣٥.

يخدع بظاهره ولكنه -فى الحقيقة- يحتوى على مفاهيم باطلة استمدها الكاتب من مفاهيم الجبريين، ليظهر للقراء أن الصفات الإلهية قد تتناقض، وأن المسلمين يقبلون فيها هذا التناقض، ثم ليتخذ كل ذلك وسيلة لهدم قضية الإيمان من أساسها، وهو فى ذلك كافر ملحد، لأن المشيئة الإلهية لا تتناقض مطلقًا مع نفسها، إذ لا يمكن -بحال- أن تتوجه مشيئتان متعارضتان لشيء واحد فى وقت واحد.

وفات على الدكتور العظم أن إبليس قد وضع موضع الامتحان، وأن من يوضع هذا الموضع لابد أن يكون حر الاختيار، وإلا كان الامتحان عبثًا من العبث، ولا يفعل هذا عالم حكيم، كذلك يستحيل عقلاً أن يتوجه أمر التكليف الإلهى لكائن لا يملك فى نفسه القدرة على اختيار الطاعة، وقد ثبت فى النصوص القاطعة أن الله سبحانه لا يؤاخذ مخلوقًا على عمل لم يكن من مظاهر اختيار المخلوق وإرادته، ومن هنا نلحظ فى النصوص الدينية أن الجزاء مقرون بالعمل الإرادى، ومتى سلبت الإرادة عن عمل من الأعمال ارتفع التكليف، وزالت المسئولية.. قال تعالى : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1] وقال تعالى : ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[2]. وقد أخبرنا الهادى البشير صلى الله عليه وسلم أن الله قد رفع عن أمته الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، وأن القلم قد رفع عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصبى حتى يبلغ الحلم.. وكل ذلك يؤكد ارتفاع المؤاخذة والجزاء عن الأمور الخارجة عن نطاق سلطة الإرادة، من كل ما لا يملك الكائن دفعه ورده، وأن الجزاء رهن بما تتوجه الإرادة الذاتية لفعله، فإذا أضفنا إلى ذلك قول الله تعالى الذى ذكر أكثر من مرة فى القرآن الكريم :

---

[1] سورة الأحزاب : ٥.

[2] سورة البقرة : ٢٢٥.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1]، اتضح لنا أن ورود التكليف يقتضى وجود الاستطاعة حتمًا، وأول عناصر الاستطاعة وجود الإرادة الحرة، واتضح لنا أيضًا أن الجزاء يرتفع متى سلبت هذه الإرادة، لأن التكليف يرتفع حكمًا عند سلبها، فيستحيل عقلاً ونقلاً أن يوجد فى الواقع تناقض بين مقتضيات المشيئة الإلهية ومقتضيات أمر التكليف الإلهى.

وإذا كان الجبريون يدعون سلب الإرادة مع أن التكليف متوجه، وأن المؤاخذة بعد ذلك متوجهة، فإن ادعاءهم هذا مرفوض شكلاً وموضوعًا، لأنه من ناحية يعارض منطق العقل وبديهته، ومن ناحية أخرى فإنه معارض للآيات القرآنية التى تنص على الإرادة الحرة للإنسان والجان، وبالتالى فإن كل ما بناه الدكتور العظم على ادعاءات الجبريين مرفوض وساقط، لا قيمة له، ولا يمثل الحقيقة الإسلامية فى هذا الموضوع.

وادعاء العظم أن إبليس قد انسجم مع المشيئة الإلهية، ومع واجبه المطلق مع ربه فهم جد غريب لم يفهمه إبليس ذاته، ولكن فهمه تلميذه العظم الذى حاول بهذا الهراء أن يشوه حقيقة قصة إبليس فى القرآن الكريم بتلك الأباطيل، وذلك الكلام الخرافى الذى لا ينطق به إلا كل مخبول فى عقله يحاول إفساد حقائق الإسلام الصافية، ونور الهدى المبين.

وادعاؤه الكاذب أن إبليس من جنس الملائكة من أقوى الدلائل على أنه كاتب يعتمد طريق المغالطات والتلاعب بنصوص القصة القرآنية، فإن قصة إبليس فى القرآن الكريم لم تذكر -كما ادعى- أن إبليس ملك من الملائكة، وإنما نصت على أنه واحد من الجن.. قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ

---

[1] الأنعام : ١٥٢، الأعراف : ٤٢، والمؤمنون : ٦٢.

﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[1]. فهذه الآية الكريمة توضح بما لا يدع مجالاً لشك أن إبليس كان من عنصر الجن، لا من عنصر الملائكة، يضاف إلى ذلك ما ثبت فى نصوص أخرى من أنه مخلوق من مارج من نار، أما الملائكة فهم مخلوقون من النور، ومعنى هذا أنه كان عنصرًا دخيلاً بين الملائكة، وقد كشفه الامتحان مؤكدًا هذه الحقيقة، لأن من الخصائص التكوينية للملائكة أنهم -كما أخبر القرآن الكريم- ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا﴾[2]، و﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[3]، و﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[4]، ومن هنا سجدوا جميعًا لآدم، أما إبليس فقد أبى واستكبر مؤكدًا بذلك أنه عنصر مغاير لعنصر الملائكة.. له إرادة حرة، ودوافع ذاتية دفعته إلى المعصية ومخالفة أمر ربه.

ولكن الدكتور العظم غالط -كما سبق البيان- فى كل هذه الحقائق، وتلاعب بمفاهيم النصوص القرآنية كما زين له هواه، ووسوست به نفسه الأمّارة بالسوء، ورسم له المنهج أستاذه الأكبر إبليس عليه لعائن الله مادامت هذه الحياة، وبعد هذه الحياة.

ولقد دل العظم على جهالته الجهلاء وضلالته العمياء فى تحليله اللغوى لنصوص قصة إبليس الواردة فى القرآن الكريم، فإن السجود الذى أمر الله به فى هذه القصة إنما كان تكريمًا لآدم، ولم يكن عبادة له، لأن الله تعالى قد نهى عن الشرك به.

ولقد تعامى الدكتور الملحد عما فى القرآن الكريم من آيات مؤيدة لذلك

---

[1] سورة الكهف : ٥٠.

[2] سورة التحريم : ٦.

[3] سورة الأنبياء : ١٩، ٢٠.

[4] سورة الأنبياء : ٢٧.

القول والتى تلزمه إلزامًا لا فكاك له منه، لأنه ينطلق من العبارات القرآنية للقصة، ولقد جاء فى صيغة القصة الواردة فى سورة الإسراء على لسان إبليس : ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، كذلك جاء فيما قصته آيات سورة الأعراف قول إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[2]، ولقد قص علينا القرآن الكريم سجود أبوى يوسف وإخوته ليوسف حين قال سبحانه : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[3]، ولا يمكن لعاقل أن يزعم أن سجودهم ليوسف كان سجود عبادة. على أن سجود الملائكة لآدم لم يقترن مطلقًا بنية عبادة له، وإنما كانوا يعبدون الله الذى أمرهم بالسجود، ولا يشركون بعبادته أحدًا، ولو سجد إبليس لآدم لكان شأنه شأنهم وسبيله سبيلهم.

تعامى الدكتور العظم عن ذلك كله، وفات عليه أن السجود كان عند كثير من الأمم والشعوب القديمة تعبيرًا عن الاحترام والتقدير، وليس تعبيرًا عن عبادتهم لمن يسجدون له.

ولكن الدين الإسلامى الحنيف أبطل هذه العادة، ومنع السجود لغير الله عز وجل ولو على سبيل الاحترام والتقدير لا على سبيل العبادة، لأن الشرك بالله كان قد دخل فى الواقع البشرى الجاهلى، وراح المشركون يتقربون إلى الأصنام بالسجود والدعاء والقرابين وما شابه ذلك، فمنع الإسلام السجود لغير الله سدًا للذرائع، ولاشك أن هذا الشرك لم يكن هو ولا تعبيراته ولا مظاهره ولا مصطلحاته معروفة

---

[1] الآيتان : ٦١، ٦٢.

[2] الآية ١٢.

[3] يوسف : ١٠٠.

لا عند الملائكة ولا عند إبليس حتى يجعله الدكتور الملحد واقعًا موجودًا فى تصور إبليس ثم يبنى عليه ادعاءه الكاذب بأن إبليس قد أراد الإصرار على التوحيد فى أصفى معانيه وأنقى تجلياته !

على أن القرآن الكريم لم يقص علينا أن إبليس قد اعتذر بأنه لا يجوز له أن يسجد لغير الله، وإنما قص علينا الجواب على السؤال الوارد فى مثل قوله تعالى ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ فما كان من إبليس إلا أن قال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وهو جواب يؤكد لنا أن إبليس قد ظن أن ذاتية الخلق هى مجال التكريم لآدم، وأن النار التى خلق منها هذا اللعين أرقى مكانة من الطين المخلوق منه آدم عليه السلام، فعصى أمر الله بالسجود لآدم، وكانت تلك أول تفرقة عنصرية فى الخلق، وقد محقها الله بإنزال الغضب على إبليس، ومن هنا اتخذ إبليس من آدم وذريته أعداء له، وفات على إبليس أمر هام فطن إليه الملائكة ألا وهو مسألة تعليم آدم الأسماء كلها، فنحن إذ نقرأ قصة إبليس مع آدم فى سورة البقرة نجد أن هذه المسألة كانت سابقة لأمر الله بالسجود لآدم، فقد أوجد الحق سبحانه المسميات، ثم علم آدم أسماءها حتى يزاول هو وبنوه من بعده مهمتهم فى الوجود بسهولة ويسر، ثم عرض هذا الأمر على الملائكة ليثبت لهم أنه لم يعلمهم كل شيء، وإنما علمهم أشياء، وحبس عنهم أشياء أخرى، أما هذا المخلوق الجديد (آدم) فقد أعطاه معرفة وعلمًا أعلى من إدراكهم ومعرفتهم، فلما عجزوا عن معرفة أسماء ما عرضه الحق عليهم، وأخبرهم آدم بما عجزوا عنه عرف الملائكة أنه يتميز عليهم بما علمه الله إياه من علم يفوق علمهم، ولذلك عندما أمرهم الله بالسجود لآدم سجدوا تكريمًا له وتقديرًا بعد أن عرفوا منزلته ودرجته، أما إبليس فقد أصر على هذه العملية القياسية العنصرية التى أجراها بين النار والطين، وكان فى عدم سجوده متكبرًا متعاليًا غير منفذ لما أمره به ربه

ومولاه، ومازال يتربص بآدم حتى أغواه بالأكل من الشجرة، ومازال حتى اليوم وإلى أن تقوم القيامة يتربص بأبناء آدم حتى لا يظل هو عاصيًا بمفرده، متمردًا على أوامر ربه ونواهيه.

وبذلك يتضح لدينا أن إبليس لم يبرر رفضه السجود لآدم تبريرًا منطقيًا و لم تكن حجته التي أوردها إلا حجة تقوم على أساس تلك المفاضلة التي أجراها بين عنصره الذي خلق منه والعنصر المخلوق منه آدم عليه السلام.

فمن العجيب حقًا أن يصف الدكتور الملحد ما قاله إبليس لربه بأنه تبرير منطقي واضح؛ بل من الأكثر عجبًا أن يؤمن سيادته.. وهو ماركسي المذهب والنحلة -بتلك التفرقة العنصرية، فيدعي أن من كان أصل تكوينه من النار هو أشرف وأكمل تكوينًا عنصريًا ممن كان أصل تكوينه من الطين، ولكن مادام هذا الكلام يخدم تخرصاته فلا بأس عنده من ترديده، حتى لو كان غير متلائم مع مذهبه ونحلته !

وكل ما قاله العظم عن "سلم الكمالات" منقوض، وليس له من سند إلا الكبر العنصري، فمن أين له بأن يحكم حكمًا قاطعًا للنار المتلفة المحرقة بأنها أرفع عنصرًا من التراب والماء المنبتين المخصبين اللذين فيهما الخير الكثير، وهما مادة الحياة فيها كمال عجيب؛ بل هما -وفق نظرية النشوء والارتقاء التي يؤمن بها سيادته- يقعان في درجة أرقى وأرفع من الدرجة التي تحتلها النار، فنحن نعلم جميعًا أن المذهب الدارويني يقرر أن الأرض كانت نارًا، فبردت، فصارت على ما هي عليه بعد أن مرت بدرجات ارتقائية متعددة، فكان منها الحيوان، ثم كان منها الإنسان. فأين منزلة النار من التراب على هذا وفق مذهب الدكتور العظم ؟! ثم هل العبرة بأصل العنصر، أم العبرة بما نتج عنه وخلق منه وظهر فيه ؟! أهان على الدكتور العظم أن يؤيد الطبقية العنصرية -وهو ماركسي المذهب- لأن ذلك يخدم -في تصوره الساذج- معارضة القرآن الكريم فيما أورده فيه من حقائق أوضح من

الشمس فى رابعة النهار ؟! وهل نسى الدكتور العظم أن أبانا آدم عليه السلام بعد خلقه من الطين أنه أسمى علمًا ومعرفة من الملائكة المخلوقين من النور بعد أن نفحه ربه عز وجل معرفة أسماء الأشياء ؟ وبالتالى فهو أكمل وأسمى مرتبة من الجن المخلوقين هم وإبليس من النار..

فنحن لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا -بعد ذلك- إن الدكتور الملحد قد ناقض نفسه بنفسه.. مرة فى نظرية النشوء والارتقاء التى يؤمن بها، ومرة أخرى فى المذهب الماركسى الذى يتبعه. على أن سجود إبليس لسيدنا آدم عليه السلام لو كان أمرًا ينافى طبيعة إبليس المخلوقة من النار لكانت الملائكة بذلك أحرى وأجدر، إذ هم مخلوقون من عنصر هو أرفع من الطين ومن النار، وعلى الرغم من هذا فقد سجدوا كلهم أجمعون لآدم عليه السلام، ومن ثم فليس لإبليس أدنى مبرر يقبل فى الامتناع عن السجود، لأن سجوده لآدم لا ينافى طبيعته التى خلق منها. فإبليس -مهما حاول العظم وأمثاله الدفاع عنه- قد رفض الأمر الموجه إليه من ربه، وأصر تحت تأثير الكبر والعناد على هذا الموقف، و لم يتراجع عنه. وهذا هو ما دمغه به الحق سبحانه وتعالى فى كثير من آيات قصته الواردة فى القرآن الكريم، والتى تنص جميعها على أن سبب امتناع إبليس عن السجود إنما كان عنصر الاستكبار فى نفسه. فمن أين للدكتور الملحد أن يدعى أن هذا الامتناع لم يكن استكبارًا وفخارًا بقدر ما كان استذكارًا لحقيقة أساسية شاءها الله وأوجدها على ما هى عليه ؟!

وعند الموازنة بين ما كان من إبليس لعنه الله وما كان من آدم عليه السلام، نجد أن إبليس «عصى الله سبحانه وتعالى، ورفض أمر السجود لآدم، وكانت هذه معصية، وآدم عصى الله وأكل من الشجرة.. وهذه معصية، إلا أن هناك فرقًا بين المعصيتين؛ فالشيطان حين عصى استكبر على الله سبحانه وتعالى، وأصر على المعصية، وقال : ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وتحدى، وأمعن فى التحدى، ورفض أن يعترف أنه على خطأ؛ بل رد الأمر على الآمر وهو الله سبحانه وتعالى. أما آدم عليه

السلام فإنه حينما عصى اعترف بذنبه وتاب إلى الله، ولم يصر على ما فعله.. كان هذا هو منهج آدم : اعترف بألوهية الله، واعترف بعظم الذنب، والتوبة عنه، والتعهد بعدم العودة إليه، أما إبليس فإنه على عكس ذلك : لم يعترف بذنبه، بل أصر على المعصية، وأصر على أن رأيه هو الحق، وأنه لم يخطئ، وأنه حين يرد أمر الله فإنه يفعل ذلك وهو يعتقد أنه على صواب، ولذلك أبعده الله، وطرده من رحمته»[1].

ولقد كان واجبًا على الدكتور العظم مادام قد تعرض لسلم الكمالات أن يمعن النظر فى العناصر الحقيقية التى تمتاز بها بعض المخلوقات على بعض، فكان واجبًا عليه أن لا ينسى أن الحق سبحانه وتعالى قد فضل الإنسان فقال سبحانه :

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (سورة الإسراء : ٧٠)، لكن الدكتور العظم قد تعامى عن ذلك كله وراح ينصب ذلك السلم الذى اخترعه، فكان أوهى من بيت العنكبوت !

وقد أخطأ العظم فى استدلاله بقول إبليس الذى قصته علينا سورة الأعراف: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾...إلخ، على تسويغ كون ما وقع من إبليس كان من إغواء الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، لأن هذا القول الكريم إنما هو قصص قرآنى لقول إبليس الذى صدر منه، وليس فيه مطلقًا إقرار لهذا القول، ولقد جاء بعده قوله الحق سبحانه وتعالى :﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] ، على أن كلام إبليس الذى قصته علينا سورة الأعراف ونحوها من نوع ما تحجج به المشركون حين قالوا : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ

---

[1] اللواء الإسلامى، الحلقة الثانية من خواطر الشيخ الشعراوى حول سورة البقرة، ص١٦.

[2] الأعراف : ١٨.

﴿شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا . ﴾، وقد رد عليهم القرآن الكريم ردًا مفحمًا، و لم يقرهم عليه.

وقد ترد فى القرآن الكريم آيات تفيد أن الناس لا يشاءون إلا ما يشاء الله، بيد أن هناك أيضًا آيات تنسب المشيئة إلى الناس مطلقًا، ولذلك يمكننا أن نقول : إن تنوع الأساليب القرآنية مما اقتضته حكمة التنزيل والسياق البيانى فى القرآن الكريم، ويستطيع الباحث الذى منحه الله سبحانه حسن النية، وسلامة الطوية، وعمق الفهم والإدراك أن يجد تخريجًا لكل ما قد يبدو مشكلاً فى آية لحدتها، وأن يجد فى القرآن الكريم نفسه ضوابط محكمة يمكن على ضوئها حل الإشكالات وتفسير المتشابهات، فالقرآن الكريم -كما نعلم- يكمل بعضه بعضًا، وليس فيه تناقض ولا تعارض بين الآيات والأحكام، بل إن الإعجاز التكاملى حقيقة من حقائق الإعجاز العديدة فى الكتاب المبين، على النحو الذى أوضحناه فى كتابنا "تأملات فى إعجاز القصص القرآنى".

وإذا كان فى القرآن الكريم آيات تنص على أن الله سبحانه يسلط الشيطان أو إبليس على بعض عباده بالإغراء والتزيين، فإن فى سياق هذه الآيات ما يفيد صراحة أن ذلك إنما يكون بالنسبة لمن يعشو عن ذكر الرحمن سبحانه وتعالى، وينحرف عن صراطه المستقيم، دون عباد الله المؤمنين الأتقياء المخلصين.. قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[2] ، ولاشك أن الدكتور العظم من أولئك الذين تخلوا عن ذكر الرحمن فقيض الله له شيطانًا زين له الدفاع عن إبليس بما لم يدافع به إبليس عن نفسه يوم طرده الله من رحمته. يضاف إلى ذلك أن فى القرآن الكريم آيات تحذر من اتباع خطوات الشيطان، وآيات تقص علينا تنصل

---

[1] الزخرف : ٣٦.

[2] الحجر : ٤٢.

الشيطان من الذين يطيعونه، ويقعون فى إغراءاتـه، مثـل قولـه تعـالى : ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1]

. فعلى الدكتور العظم الذى أساء الأدب نحو ربه أن ينتظر اليوم الـذى ينكص فيـه الشيطان على عقبيه، ويقول له : إنى أرى غير ما زعمـت وادعيـت وتخرصـت فيمـا أسميته : "مأساة إبليس" ! ويومئذ سيعض العظـم علـى يديـه ويقـول : «يـا ليتنـى لم أدافع عن إبليس الذى أضلنى عن الحق، ثم تركنى فى موقف الحساب ذليلاً» !

سيدرك العظم -يومئذ- أن هذا المكر المنسـوب إلى الله معنـاه : تدبـير أمـر فى خفاء عمن دبر له أو عليه. وأن هذا التدبير -فى حد ذاتـه- ليـس فيـه مـا يـذم، ولكنه لون من الحكمة الداعية إلى كتمان الأمور وإخفائها، فإن "المكـر" لا يكتسـب الذم أو المدح إلا من السبب الدافع إليـه، والغايـة المقصـودة مـن ورائـه، فـإذا كـانت الغاية منه شرًا كان مكرًا مذمومًا، وإذا كانت الغاية منـه خـيرًا كـان مكـرًا محمـودًا، وهو يدل على الحكمة فى التصرف.. وهكذا يكـون مكـر الله وهـو خـير المـاكرين، لأنه لا يمكر إلا بخير، وسبحان الله تعالى عما يصفون.

وحتى يجىء هذا اليوم العظيم.. يوم الحساب، فإننـا ندعـو الدكتـور الملحـد المغرم بتطبيق شبهات إبليس السبع على قصص القرآن الكريـم أن يقـرأ قصـة سـيدنا صالح مع ثمود فى القرآن الكريم، فقد جاء فى آخر هذه القصة قول الحـق سـبحانه : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. . .﴾

ثـم على الدكتور العظم بعد قراءة هذه الآيات أن يتوجـه إلى مـدرس من

---

[1] الأنفال : ٤٨.

أساتذة علوم البلاغة ليعلمه أسلوب (المشاكلة) فى اللغة العربية، وسيعلم حينئذ أنه كان أجهل من دابة حين فسر لفظ "المكر" المنسوب إلى الله جل جلاله، وسيعلم -كذلك- أن الاستهزاء والمخادعة المنسوبين إلى الله فى بعض الآيات قد جاءا على سبيل المشاكلة وأن الجزاء إنما يكون من جنس العمل، فمن استهزأ بالحق عوقب بالاستهزاء الأشد جزاء استهزائه، وتلك غاية فى العدل، ومن ظن أو اعتقد أنه يخدع الله فإنما يخدع نفسه، لأن الله لا تنطلى عليه حيل المخادعين، ولا تجوز عليه مخادعتهم، فهو يعلمهم تمامًا ظاهرًا وباطنًا، ولكنه بحكمته يستدرجهم من حيث لا يعلمون ويملى لهم فإن كيده متين.. وحين يأخذهم يكون الأخذ أخذ عزيز مقتدر، وفى هذا أيضًا قمة العدل فى الجزاء، وهو أن يكون عقاب الإنسان بيد نفسه، وأن يكون السلاح الذى قذفه على غيره ظالمًا له سلاحًا يرتد عليه فيصيبه بمثل القوة التى قذفه بها.

وعلى الدكتور العظم أن يعلم أن الله تعالى لا يأمر المترفين بأن يفسقوا، وإنما يأمرهم بأن يؤمنوا ويعملوا صالحًا، فإذا ما خالفوا هذا الأمر حق عليهم عقاب الله. وهذا هو المعنى الصحيح لقول الله تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ ففى الآية محذوف تقديره : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا فيها أى خرجوا عن الأمر، كقولك : أمرته فعصى. أو أن المراد بالأمر فى الآية : التكثير أى كثرنا متنعميها وجبابرتها كذلك ومنه الحديث : «خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة» أى كثيرة النسل[1] والنتاج. وما روى من أن رجلاً من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى أرى أمرك هذا حقيرًا، فقال -صلى الله عليه وسلم- : «إنه سيأمر» أى سيكثر وسيكبر[2]. على أن هذه الآية الكريمة قد جاءت عقب قول الحق سبحانه

---

[1] راجع تفسير النسفى، ج٢، ص٣٠٩، والكشاف، ج٢، ص٤٤٢.

[2] راجع : السابق والصفحة.

وتعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1] ، فأفادت أن الله لا يهلك القرى الظالمة التى استحقت الإهلاك بجرائمها إلا بعد أن يبعث إليها رسولاً، فيأمر أهلها بالطاعة ولكن يعصى مترفوهم هذا الأمر، ويقتدى بهم من هم دونهم فى الترف، فيحق على الجميع وعيد الله وعقابه، فمن أين جاء الدكتور العظم بهذا التفسير المحرف الذى يزعم أن الله لو شاء تدمير قرية أمر مترفيها أن يفسقوا فيها ؟! وهل نسى الدكتور الملحد أن الله سبحانه لا يأمر بالفسق، وإنما يأمر بالطاعة ؟!

لقد تلاعب العظم -كما سبق البيان- بمعانى النصوص القرآنية، وبالحقائق لها، ليؤيد أباطيله وتخرصاته حول قصة إبليس الواردة فى القرآن الكريم، وليدعم إلحاده وكفره بالله جل جلاله، وليصل إلى تلك النتيجة الخاطئة التى تدعى أن إبليس سيدخل الجنة، بعد أن تعامى العظم عن الآيات القرآنية العديدة التى نصت على أن إبليس مأواه النار خالدًا فيها هو ومن تبعه، ونسى الدكتور العظم أن الأستاذ العقاد أدخل -بخياله الشعرى- إبليس الجنة، لكن إبليس سئم عيشة النعيم، وتطلع إلى مقام الإلهية، فجهر بالعصيان فى الجنة ![2]

وصفوة القول إن الدكتور العظم رجل ملحد لا يؤمن بالله، ولا بالرسل، ولا بالقرآن الكريم؛ ومن هنا راح ينفث كل هذا الهراء الذى سبق دحضه وتفنيده، وتلك البذاءات التى تطاول فيها على الخالق جل شأنه، زاعمًا -وهو الكاذب فى سائر ما زعم- أن إبليس بطل مأساة خطها عليه القدر، فكان شأن العظم فيما ادعاه شأن أولئك المبشرين السخفاء الذين يتخذون من المماحكات الكلامية وسيلة لبث سمومهم وترويج الأباطيل والافتراءات، ولكن مهما حاول العظم وهؤلاء الأفاكون، فإنهم لن ينالوا شيئًا مما يرمون إليه، وستبقى كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا هى السفلى والله عزيز حكيم.

---

[1] سورة الإسراء : الآية ١٥.

[2] راجع : قصيدته "ترجمة شيطان" بالجزء الرابع من ديوانه، ص٢٣٨.

الفصل السادس

تفنيد أباطيل حول
بعض شخصيات القصص القرآني

ذكرت فى الكتاب الذى تحدثت فيه عن أنواع القصص القرآنى أن قصة ذى القرنين الواردة فى القرآن الكريم قد جاءت فى سورة الكهف وهى سورة مكية، وأن هذه القصة تمثل واحدة من ثلاث قصص نزلت على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- بطلب من معاصريه.

كذلك أوضحت -هناك- أن هذه القصة تتكون من ست عشرة آية جاءت قبيل ختام السورة محققة بتقابلها الموضوعى والمكانى مع قصة أصحاب الكهف التى جاءت فى بدايات السورة لونًا رفيعًا من التناسق الإعجازى فى القرآن الكريم.

وذكرت -هناك- أيضًا : أنها قصة تمثل نموذجًا رفيعًا لاشتمال القرآن الكريم على القصص القصير، وردًا بليغًا على أولئك الذين يزعمون أن "سرفانتس" هو أول من أنشأ القصص القصير فى التاريخ.

وأشرت إلى أنها قصة تتناول شخصية قديمة معرقة فى القدم، ما كان لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا لأحد من البشرية أن يهتدى إلى حقيقتها إلا بتوقيف من العليم الخبير.

ومضى بنا الحديث إلى أن أشرنا إلى أن القصة لم تذكر لبطلها اسمًا بعينه وإنما اكتفت بذكر صفته "ذى القرنين"، فزادته هذه الصفة غموضًا وسرًا، كان الهدف منه -فى وجهة نظرنا- ألا يشغل الناس بالهم بالبحث والتحرى عن حقيقة اسم هذا البطل، والسؤال عمن هو ذو القرنين ؟ لأن المراد هو استخلاص العبرة، والدلالة على أن فى التاريخ القديم مثالاً حيًا، وأنموذجًا رفيعًا، وقدوة حسنة لكل من يريد -فى العصور المتلاحقة- إصلاحًا فى الأرض، وحكمًا بين الناس بالعدل، وعملاً صالحًا لا يبغى به إلا مرضاة الله عز وجل، والفوز بجنته[1]. ونضيف إلى كل ذلك -هنا- أنه على الرغم من ذلك، فقد نسى كثير من الكتاب والدارسين أن الهدف من هذه القصة ليس هو حقيقة اسم البطل، وإنما العبرة والموعظة، ومن ثم

---

[1] راجع: الفصل الخاص بأنواع القصة القرآنية فى كتابنا "أدب القصة فى القرآن الكريم".

فإنهم راحوا -زرافات ووحدانًا- يحاول كل منهم الاستقرار بشأن "ذى القرنين" على اسم معين، ناسين أن استقرارهم هذا يلزم أن تعاد حساباته من جديد؛ بل ناسين أن أية محاولة لتحديد اسم "ذى القرنين" قد توقع الباحث فى خطأ يتأبى مع الحقائق التى نطق بها قصص القرآن الكريم.

فعلى سبيل المثال، نجد "وهب بن منبه" ينص على أن ذا القرنين هذا هو "الصعب بن الحارث الرائش الحميرى"، ثم يقدم لنا عنه أسطورة متكاملة تسير إلى مدلول درامى، وتصور البطل فى أعلى مراتب القوة والعظمة، سواء أكان نائمًا، أم مستيقظًا، فهو فى حالة نومه ترشده الأحلام إلى خطوات غده، وترسم له طريقه. وهو فى حالة اليقظة إنسان خارق سخرت له كل القوى، حتى ليسير إلى جواره "الخضر عليه السلام" يفسر له كل غامض، ويذلل له كل صعب، وحينما يجوع البطل هو وعسكره جميعًا يلتهمون عنقودًا واحدًا من العنب، فلا تنقص حبة منه، ويتناول البطل حجرًا ثم يزن به كل جواهر المعمورة، فيرجح الحجر، ويرقى البطل على صخرة فتنتقض الصخرة، وماتزال تقعقع حتى ينزل من فوقها فتسكت، ويلتقى فى إحدى رحلاته بقوم صغار الوجوه.. صغار الأعين.. مشعرين، صورتهم كصورة القردة، يظهرون ليلاً، ويختفون نهارًا، ويلتقى فى رحلة أخرى بقوم طوال الوجوه.. طوال الأنوف.. عيونهم زرقاء وبشرتهم سوداء، وعلى صورة الخنازير.. إلى آخر ما تضمنته القصة من أساطير تسير معها من البداية للنهاية[1]، وتختلف تمام الاختلاف عن القصة التى أوردها القرآن الكريم صافية مصفاة، وشاهدة بقوة الإعجاز وروعة الإبداع، ومركزة على العظة والعبرة من خلال لمسات تاريخية دقيقة وسريعة، تتقيد بالحق والصدق والواقعية البعيدة كل البعد عن التحليق فى سماء الخيال والأوهام.

وإذا كان وهب بن منبه قد نص على اسم بطل القصة بما سبق ذكره، فإن رأيه هذا يمثل واحدًا من آراء عديدة أخرى[2]، تتفق فى جملتها على أن ذا القرنين

---

[1] راجع : فى الرواية العربية لفاروق خورشيد، ص١٢٠ وما بعدها.

[2] آثرت الاستطراد إلى تلك المسألة لأنى أريد أن أدلى بدلوى فيها من واقع القصص القرآنى ذاته، ولأن بعضها يحتوى على أباطيل يتحتم دحضها كما سنرى.

ملك عربى يمنى، ثم تختلف -بعد ذلك- فى حقيقة اسمه، فبينما يذكر وهب أن ذا القرنين هو "الصعب بن الحارث الرائش الحميرى"، يذكر الإمام القرطبى أن ذا القرنين هو "الصعب بن ذى يزن الحميرى"[1]، ويسميه ابن هشام : "الصعب ابن ذى مراثد"[2] ويعتبره أول التبابعة ملوك اليمن، ويضيف الإمام السهيلى : أن الصعب هذا قد ذكره "قس بن ساعدة الإيادى" فى خطبته الشهيرة التى ألقاها فى سوق عكاظ، حيث قال : «يا معشر إياد أين الصعب ذو القرنين، الذى ملك الخافقين، وأذل الثقلين، وعمر ألفين، ثم كان ذلك كلحظة عين»، كما أنهم أنشدوا للأعشى قوله :

لو كان حى فى الحياة مخلدا فى الدهر خلده أبو يكسوم

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا بالحنو فى جدث هناك مقيم

وينقل الشيخ سيد قطب والدكتور عبد الجليل شلبى عن أبى الريحان البيرونى المنجم أنه يذهب فى كتابه "الآثار الباقية من القرون الخالية" إلى أن ذا القرنين المذكور فى القرآن الكريم هو "أبو بكر ابن أفريقش الحميرى" الذى رحل بجنوده إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، فمر بتونس ومراكش وغيرهما وبنى مدينة "إفريقية"، فسميت القارة كلها باسمه، وبه افتخر تبع اليمانى فى شعر له، حين قال :

وقد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكاً علا فى الأرض غير مفند

فرأى مغيب الشمس عند غروبها أسباب ملك من حكيم مرشد

بلغ المغارب والمشارق يبتغى فى عين ذى خلب وثأط حرمد

ويستدل البيرونى على حميرية "ذى القرنين" بتلك الصفة التى ذكرها القرآن الكريم، فهى تتلاقى مع الألقاب التى كان يلقب بها ملوك حمير، كذى نواس، وذى يزن، وما شابه ذلك[3] .

---

[1] راجع : تفسير القرطبى، ج٥، ص٤٠٨٥، ٤٠٨٦.

[2] راجع : مع القرآن للشيخ الباقورى، ص٢٥٩، والحنو : اسم مكان فى العراق يقال له "حنو القراقر".

[3] راجع : فى ظلال القرآن، مجلد ٤، ص٢٢٨٩، وكذلك : رد مفتريات على الإسلام للدكتور عبد الجليل شلبى، ص١٢٩، ومعنى غير مفند : غير مكذب ولا معارض، والخلب : الطين، والثأط : الحمأة، والحرمد : الطين الأسود.

ويذهب آخرون إلى أن ذا القرنين هو "أسعد بن ميكرب الحميرى" الملقب بتبع، والذى بشر بسيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- قبل مبعثه[1].

لكن الأستاذ أحمد موسى سالم يذهب إلى أن ذا القرنين هو الملك الحميرى "شمر يهرعش" الذى وطئ أرض العجم وفارس وخراسان، وافتتح مدائنها، وخرب مدينة "الصغد" الواقعة خلف نهر "جيحون" وبنى هناك مدينة "سمرقند" التى مازالت تحمل اسمه حتى الآن.

وقد اعتمد الكاتب فى رأيه هذا على أمرين، أحدهما : أن القرآن الكريم قد أشار إلى هذا الملك المؤمن بصفة تدل على بداوته، لأن القرون هى الجدائل فى لغة البدو، وعلى طريقتهم «حيث كان من عاداتهم، ولاتزال فيهم إلى اليوم، أن يرسلوا من شعورهم جديلتين أو أكثر، تجملاً من جانب، وتوقيًا لضربات السيوف من جانب آخر، فى حروب الماضى، وحيث كانت الجدائل تضاف إلى الخوذة فى وقاية الرأس والعنق». أما الأمر الآخر الذى اعتمد عليه الكاتب فهو أن الأبحاث الكثيرة التى تناولت تاريخ اليمن قد ذكرت أن ذا القرنين هو الملك الحميرى "شمر يهرعش"[2].

ويبدو أن الكاتب قد تأثر فى تفسير القرون بالجدائل بذلك البيت الشعرى الذى يقول فيه الأسدى :

كذبتم وبيت اللّه لا تنكحونها   بنى شاب قرناها تصر وتحلب

أراد : يا بنى التى شاب قرناها.

ويأبى الأستاذ نجيب محمد البهبيتى إلا أن يشارك أصحاب الآراء السابقة فى القول بعروبة "ذى القرنين" ويمنيته، ولكنه قد انفرد عنهم جميعًا فى النص على اسم ذى القرنين برأى هو العجب العجاب والغرابة المستغربة حقًا، وبيان ذلك : أن هناك

---

[1] راجع : السابق والصفحة نفسها.

[2] راجع : قصص القرآن لأحمد موسى سالم، ص٢٢٠.

أسطورة شهيرة في الأدب العراقي القديم جاءتنا «منظومة بالطريقة التي عرفها العراقيون القدامى في نظم الشعر، بتقسيم القصيدة إلى مقاطع، لكل منها بيتان مماثلة لما نطلق عليه الشعر المرسل»[1]، وتحكي هذه القصيدة قصة حياة الملك "جلجاميش"، وتصف مغامراته مع صديقه "أنكيدو"، وحين يموت هذا الصديق يجزع الملك، ويأخذ في البحث عن جده "أوتو-نفستم"، ليسأله عن سر خلوده، ولماذا أصبح في مصاف الآلهة، وعندما وجده أخبره جده أن الخلود أمر مستحيل، لأنه من صفات الآلهة وليس من مزايا البشر، وأن البشر كلهم مآلهم إلى الفناء، ثم قص عليه كيف استطاع هو أن يكون خالدًا، وهو ما يعرف بقصة الطوفان التي أوردها القرآن الكريم خبرًا واقعيًا مجردًا من الأسطورية التي لازمتها في القصيدة وفي التوراة، إذ تصورها القصيدة على أن الآلهة غضبت يومًا على البشر لكثرة ما ارتكبوا من آثام، فقررت فناءهم بتسليط الطوفان عليهم، إلا أن الإله آيا إله الحكمة المعروف بحبه للبشر أخبر (أوتو-نفستم) الرجل الصالح بقرار الآلهة هذا، ونصحه بصنع سفينة، وأن يحمل معه فيها نماذج من الأحياء من الحيوان والطير وأفراد عائلته، ففعل ودخل في السفينة، وأغلق بابها عليه، ثم حدث الطوفان، فهبت الزوابع والأعاصير وانهمرت الأمطار وغمرت المياه اليابسة كلها، واستمر الحال كذلك ستة أيام. وفي اليوم السابع سكن كل شيء، واستقرت السفينة، فخرج الجميع، وقدم "أوتو-نفستم" القرابين إلى الآلهة، فسُرَّت كثيرًا، ومنحته الخلود، وصار إلهًا مثلها[2].

وبالإضافة إلى هذه القصة نجد في القصيدة جملة أخرى من القصص غير وثيقة الاتصال، وإنما ضم بعضها إلى بعض في عهود مختلفة يرجع بعضها إلى أيام السومريين، أي إلى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام، وفي القصيدة نجد أن البطل "جلجاميش" ثلثاه من عالم الآلهة وثلثه من عالم البشر، وقد وقعت في حبه الإلهة

---

[1] ملحمة كلكامش للدكتور سامي سعيد الأحمد، ص٥.

[2] راجع : تاريخ وحضارة مصر والشرق القديم، لمحمد علي قطب المهشري، ص١٥٠، ١٥١.

"أشتار"، ولكنه لم يبادلها الحب، فشكته إلى الإله الأعظم "آنو"، وتدور خلال ذلك كله معارك ووقائع وفتوحات وبناء لسد عظيم.. وما إلى ذلك من الخرافات والحوادث الخارقة للطبيعة وإشراك الآلهة مع الإنسان فى التكوين وفى الصراع[1] .

وقد عثر الأثريون على نسخ كثيرة من هذه القصيدة فى خرائب "نينوى" عاصمة آشور، ووجدوها مكتوبة بالخط المسمارى على ألواح طينية بلغ عددها اثنتى عشرة لوحة هى الآن فى المتحف البريطانى بلندن، مكتوبًا عليها : "ملحمة جلجاميش الذائعة الصيت"، كذلك وجدوا تاريخ كتابتها يرجع إلى منتصف القرن السابع قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وقد أنجزت بأمر الملك "آشور بانيبعل" منقولة عن نسخة أقدم، ومعها ما يقطع بتعليقها فى خزانة قصر هذا الملك، وما يدل على أنها كانت مهيأة للإنشاد والقراءة فى الاحتفالات[2] .

ويعد الأستاذ "بول هوبت" أول من أخرج نصوصها المسمارية لأول مرة، حيث أخذت تراجمها بعد ذلك تترى، فترجمت إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والدنمركية والجيكية والفنلندية والجورجية والإيطالية والعبرية، ثم العربية، وكان من الذين ترجموها للعربية : الدكتور نجيب إبراهيم ميخائيل، والأستاذ طه باقر، والسيد عزيز حداد، والدكتور سامى سعيد الأحمد، والأستاذ حازم سعيد أحمد، والأستاذ عبد الكريم الشيخ على، والأستاذ إبراهيم نصار، والأستاذ مهدى جاسم. وقد ترجمها الأربعة الأخيرون إلى العربية شعرًا، ومن ترجمة ثانيهم نختار قوله فى مستهل الترجمة :

كان جلجامش ملكًا ... قد علا عزًا وشانا

لا يخاف الهول يومًا ... لا، ولا يخشى الزمانا

يسجد الناس لمرآ ... ه إذا لاح وبانا

---

[1] راجع : قصة الحضارة، تأليف ديورانت وترجمة محمد بدران، ج٢، ص٢٣٩.

[2] راجع : ملحمة كلكامش، ص٥، والمعلقة العربية الأولى للبهبيتى، ج١، ص٣٢، ٣٣.

ولـــه كـــل شـــجاع	ســـيد ذل وهانــــا
وقديمًــا قــال "آنـــو"	إذ لـــه صـــاغ الكيانــــا
ليكـن جـسمــك مــن لحــ	ــم إلـهـــى، فكانــــا

ومن ترجمة ثالثهم نقتطف قوله عن السور العظيم الذى بناه جلجامش

انظـــر إلى الســـور الـــذى	ضــاهى النحــاس وبــارى
لمعانـــه يعشـــى العيـــو	ن، ويخطــف الأبصـــارا
أنّـــى تـــرى كجـــدار أورو	ك التـــين جـــدارا
فامســك بعتبتـــه العتيـــ	ـقـــة، والثـــم الأســـتارا
وتفحــص الأســس المكيـــ	ـنـــة وانظـــر الأحجـــارا
جلجامــش فـاق المـلـــو	ك بمـــا بنـــى أوطـــارا[1]

قرأ الأستاذ نجيب البهبيتى هذه القصيدة العراقية القديمة، فكتب عنهـا كتابًا ضخمًا من جزئين[2]، وسماه "المعلقة العربية الأولى أو عند جـذور التـاريخ"، وحـاول فى هذا الكتاب أن يثبت أن القصيدة العراقية القديمة عن "جلجاميش" «أخطر وثيقـة تاريخية عرفها الإنسان، وتركها القدماء للمتأخرين، فدلالاتهـا واسعة، وانعكاسـات التاريخ الإنسانى فيها لا يضارعها فيها وثيقة أخرى، وعدم إمكـان تعريضهـا للشـك الأوربى الهادم يضع هذه الدلالات موضع اليقين، وهى ترتقى بحضارة الإنسـان فـوق كل تاريخ معروف»[3] ! كذلك حاول الكاتب أن يثبت أن هذه القصيدة هى أقدم معلقة عربية بالمعنى المعروف الشهير للمعلقات الجاهلية، فقد ثبت بدليل مسجل على لوحاتها، أنها كانت معلقة فى خزانة قصر الملك آشور بانيبعل، على أن تعليقها على

---

[1] راجع : ملحمة كلكامش، ص٥-٨.

[2] بلغت صفحاتهما معًا : ١٠٦٢ صفحة من القطع الكبير.

[3] الجزء الأول، ص٢٢.

جدران الكعبة المشرفة وإن كان يعوزه الدليل عليه، فإنه لا يمكن نفيه، لوجود الدليل التاريخى على وثاقة الاتصال بين العراق والحجاز فى عصر هـذه القصيـدة، ممثلاً فـى انتقال "نابونيدس" آخر ملوك بابل إلى تيماء المدينة الحجازية المعروفة التى كان بانيها الأول أحد أبناء إسماعيل، فهو وطن واحـد، ومضطـرب واحـد تتفـاعل فيـه حضـارة واحدة[1] .

هذا هو ما حاول الكاتب إثباته فى مؤلفه الضخـم، وفـى سـبيل ذلـك راح يستعين بوسائل عديدة منها قصة ذى القرنين، وقصة موسى وفتاه مـع العبـد الصـالح الواردتان فى القرآن الكريم، وما كتبه المفسرون والإخبـاريون عـن هـاتين القصتـين، فجره ذلك إلى الوقوع فيما سبق وصفه بالعجب العجـاب والغرابـة المسـتغربة حقًـا، فقد خالف الكاتب ما أجمع عليه المفسرون من اختلاف هاتين القصتين عن بعضهما، وما نذهب إليه نحن من أن كلاً منهمـا يمثـل أنموذجًـا مسـتقلاً للقصـص القصـير فـى القرآن الكريم، وأن بطل القصة الأولى هو "ذو القرنين" وبطل الثانية هو موسـى بـن عمران الذى أرسله الله مع هارون إلى فرعون وراح الكاتب يزعـم أن "ذا القرنـين"، وموسى الواردين فى سورة الكهف أشـبه بوجهـى العملـة الواحـدة، لأن البطـل فـى القصتين شخص واحد له اسم هـو "موسـى"، ولقـب هـو "ذو القرنـين" !! والاسـم واللقب يطلقان معًا على ملك من ملوك اليمن القدامى هو "جلجاميش" الذى كتـب قصته الشاعر العراقى القديم فى تلك الملحمة الشهيرة !!

و لم يقف الكاتب عند هذا الحـد؛ بـل بـات يزعـم أن موسـى الملقـب بـذى القرنين وجلجاميش ليس هو موسى فرعون، وإنما هو "موسى بن ميشا" !!

وحتى لا يتسرب إليك الشك فى أن نكون قد فهمنا كلام الكـاتب خطـأ، فإننا نسوق إليك -هنا- بعض نصوص من مزاعمه :

يقول فى الصفحة الخامسـة والثلاثين من الجـزء الأول ما نصه : «ومعلقـة

[1] راجع : السابق، ص٣٢، ٣٤.

جلجامش بتمامها هى قصة ذى القرنين التى وردت فى القرآن، فلا غرابة فى القول بأنها كانت من الشعر المقدس» !

ويقول فى الصفحة الثانية والأربعين من الجزء نفسه ما نصه : «ذو القرنين هو الملك الذى دعاه شاعر القصيدة العراقى بجلجاميش، وقد كانت القصيدة من محصلات المثقف العراقى فى القديم».

ويقول فى الصفحة الحادية والأربعين فوق المائة من الجزء ذاته : «ذو القرنين هو موسى، وموسى ليس موسى بنى إسرائيل، وإنما هو موسى بن ميشا» !

وانطلاقًا من ذلك، فإن الكاتب بات يلح على أن قصة ذى القرنين وقصة موسى مع العبد الصالح الواردتين فى سورة الكهف تشكلان -معًا- قصة واحدة ذات ملمحين، أو تتكون من قسمين : القسم الأول منها يدور حول الخضر عليه السلام، والثانى يدور حول ذى القرنين، وكل قسم منهما لا يستقل عن الآخر[1] وأن التلاحق القائم بين القسمين أو المجموعتين من الآيات يفيد العلاقة بين شطرين من خبر قرآنى واحد، «وقد استطال الشطر الأول، وامتلأ بالأحداث التى فصلها القرآن الكريم على ما وقعت عليه بين موسى والخضر. ولتوضيح الخبر زيادة إيضاح وتمام بناء تحدث القرآن الكريم عن موسى بلقبه وهو ذو القرنين. فموسى هو اسم للملك الملقب بذى القرنين يقدمه القرآن الكريم ماضيًا لطيته، بعد أن تمت الحكمة الأولى من سفرته. وأسلوب القرآن فى هذه المبادلة بين موسى وذى القرنين هو نفس أسلوبه فى المبادلة فى الآيات بين مجمع البحرين والصخرة، كلاهما اسم لشىء واحد هو «بوغاز طنجة»[2]، وذلك البوغاز هو المكان الذى تسرب فيه الحوت إلى البحر، بدليل قول محمد بن كعب القرظى : مجمع البحرين عند طنجة، يعنى فى أقصى بلاد المغرب، عند ملتقى البحر المتوسط بالمحيط الأطلسى الذى كان يعرف

---

[1] راجع : ج١، ص١٣٩.

[2] ج١، ص١٤١.

-وقتئذ- ببحر الظلمات[1]، فالرحلة الأولى التى بدأها ذو القرنين أو جيلجاميش أو موسى بن ميشا كانت طلبًا لتحصيل العلم عن الخضر عليه السلام، وكان "مجمع البحرين أو الصخرة أو بوغاز طنجة" هو حد هذه الرحلة[2]، «وحكمة سفرته هذه: أنه مع ما آتاه الله من البأس والغنى والسلطان والجيوش القادرة على تذليل عتاة الأرض، واجتياح الطرق الوعرة، واعتساف الصعوبات، حتى بلغ مغرب الشمس غير قادر على أن يحصل من علم الله إلا ما آتاه الله، وما قيضه له» ![3].

ونظرًا لأن هناك حديثًا صحيحًا يرويه ابن عباس عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مؤداه أن موسى فى سورة الكهف هو نبى بنى إسرائيل[4]، فإن الكاتب -خوفًا على هدم أبطولته من أساسها- قد سارع إلى وصف هذا الحديث تارة بأنه "موضوع" لا مجال لقبوله، وتارة أخرى بأنه ضعيف يضعفه المدلول المعنوى للآيات، وليس فى الوجود كله أفهم لدلالات القرآن الكريم وقصصه من حامل أمانته إلى الناس جميعًا !![5] ونحن لا ندرى بالضبط كيف يضعف المدلول المعنوى للآيات صحة هذا الحديث ولا أبان لنا الكاتب ما لا ندريه !!

لقد زعم الكاتب هذا كله، وبات -من صفحة لأخرى- يأتى بالدليل تلو الدليل على أن قصة ذى القرنين ليست قصة قصيرة قائمة بذاتها فى القرآن الكريم، وإنما هى تشكل مع قصة موسى والخضر التى تسبقها مباشرة قصة واحدة بطلها هو موسى بن ميشا الملقب بذى القرنين، والذى دعاه شاعر القصيدة العراقى فى ملحمته الشهيرة بـ"جيلجاميش" ! وإليك طرفًا من هذه الأدلة قد جمعناه -باختصار- من ثنايا كتابه الضخم :

---

[1] راجع : السابق، ص١٤٦، ١٥٠، ١٥١.

[2] راجع : السابق، ص١٤٦، ١٤٧.

[3] السابق، ص١٤١.

[4] راجع هذا الحديث فى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى للعسقلانى، ج٦، ص٣٣٤ وما بعدها.

[5] راجع : ج١، ص١٣٨ - ١٣٩.

١- استدل على عروبة ذى القرنين ويمنيته بأن الأزرقى قد ذكر فى أخبار مكة أن أول من أجاب إبراهيم حين أذن بالحج بعد بنائه الكعبة المشرفة هم أهل اليمن، كما ذكر ابن كثير فى تاريخه بأن ذا القرنين هو أول التابعة، وهذان الرأيان يدلان على أن ذا القرنين قد حج مع قومه اليمنيين، ولاسيما أنهما يتناسقان تمامًا مع الرأى القائل بأن ذا القرنين قد عاصر الخليل عليه السلام، وآمن به والتقى معه فى أول حج إلى بيت الله الحرام[1].

٢- واستدل على أن قصة موسى والخضر تشكل مع قصة ذى القرنين فى القرآن الكريم قصة واحدة بأمرين هما :

أ- أن الآيات التى تتحدث عن موسى والخضر عليهم السلام، تلحقها فى السياق، وتعقبها مباشرة تلك الآيات التى تحمل إلى الناس خبر ذى القرنين، فتتابع الآيات على هذا النوع المتلاحق يفيد أن هناك قرابة ذهنية قائمة بينهما، ولو لم يكن بينهما هذا التجانس الذى يقوم بين الأقرباء، ما دعا الحديث الأول الحديث الثانى إلى أن يلحق به ويأخذ بتلابيبه[2].

ب- أن المفسرين يصلون بين الآيات التى تتحدث عن موسى والخضر، والآيات التى تتناول خبر ذى القرنين، حيث يشيرون مرة إلى أن الرجل الذى طلبه موسى هو الخضر، ثم يشيرون مرة أخرى إلى أن الخضر هذا كان وزيرًا لذى القرنين، وقائدًا من قواده[3].

٣- واستدل على أن ذا القرنين هو موسى الوارد فى سورة الكهف بأن الآيات التى تتحدث عن ذى القرنين قد جاء فى ثناياها قول الحق سبحانه : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ . .﴾ الآيات، وذلك يفيد «أن "ذا القرنين" كان قد بدأ رحلته هذه منذ أمد قبل أن يبلغ مغرب

---

[1] راجع : ج١، ١٥٧، ١٦٤ - ١٦٧.

[2] راجع : السابق، ص١٣٩.

[3] راجع : السابق، ص١٥٥.

الشمس... والآيات واضحة الدلالة على أنه يتقدم من مجهول إلى مجهول على طريق ماضٍ على سمت واحد... وأوضح وأنصع معبر عن هذا المعنى قوله تعالى فى وصف تنقله من مرحلة إلى أخرى : "ثم أتبع سببًا" أى : مضى لوجهته ولطيته لا يلوى. ثم يقطع فى إفادة هذا المعنى قوله تعالى : "حتى إذا بلغ مغرب الشمس" فـ"حتى" هنا تفيد الانتهاء من سفرة بعيدة المصدر إلى منزل من منازلها، وهذا المنزل، ونهاية تلك المرحلة كان الساحل الذى ينتهى إليه هذا الجزء من الأرض، وهو الذى كان ينظر إليه على أنه نهاية العالم، أى إلى شاطئ أوربا الغربى، وبالتحديد الدقيق إلى الشاطئ الغربى من أسبانيا الحالية.... فقصته قصة مواصلة سفر بدأه موسى المذكور فى القسم السابق من الآيات القرآنية»[1]

٤- واستدل على أن موسى الوارد فى سورة الكهف ليس موسى فرعون، بل موسى بن ميشا : بأن نوفا البكالى ابن امرأة كعب قد ذكر هذا، وكان المصدر الذى استقى منه نوف ذلك الرأى أصلاً قديمًا كان مايزال قائمًا بين أيدى الأجيال العربية التى عاصرت الصدر الأول من التاريخ الإسلامى، وهذا الأصل الباقى القديم هو نفسه الذى رجع إليه الشاعر العراقى، واستقى منه موضوع ملحمته "جلجاميش"[2] .

٥- واستدل على أن موسى بن ميشا هو جلجاميش بأمرين :

أ- أن الاسمين يلتقيان فى الجزء الأخير الذى يتمم كليهما، وهو "ميشا" أبو موسى، و"ميش" فى جلجاميش[3] .

ب- أن نوفا البكالى من اليمن، وأن بطل قصة جلجاميش من اليمن الأزد[4] .

٦- واستدل على أن موسى الوارد فى سورة الكهف هو جلجاميش بثلاثة أمور، هى:

---

(1) السابق، ص١٣٩، ١٤٠.

(2) راجع : السابق، ص١٤١ - ١٤٢.

(3) راجع : السابق، ص١٤٢.

(4) راجع : السابق، ص١٤٣.

أ - أن موسى فى القصة القرآنية يسير مع فتاه، وكذلك جلجاميش يسير فى المعلقة مع صفيه "أنكيدو" قبل أن يفرق بينهما الموت[1] .

ب- أن تصميم جلجاميش فى القصيدة على الوصول إلى "أوتو-نفستم" الرجل الصالح الذى أوتى الخلود، هو تصميم موسى على الوصول إلى "الخضر" العبد الصالح الذى أوتى "الرحمة والعلم اللدنى"، وكان على شاطئ عين تسمى "عين الحياة". والخلاف بين التعبيرين هو الخلاف بين تعبير المؤرخ، وتعبير الشاعر، واللقاء بينهما فى الجوهر لا يختلف فيه اثنان ![2]

جـ- أن من الاتفاقات التى تشد إليها الأبصار أن يقدم القرآن الكريم الخضر بدون ذكر اسمه، وإنما بوصفه "الذى أوتى الرحمة"، وأن يكون اسم مقابله فى الملحمة العراقية هو "الذى أوتى النفس"[3] .

٧- وأخيرًا فإن الكاتب قد استدل على أن ذا القرنين هو "جلجاميش" بثلاثة أمور هى :

أ- أن جلجاميش فى القصيدة يمضى من جهة الشرق إلى الغرب، وكذلك الأمر فى القصة القرآنية، بالنسبة لذى القرنين، فقد مضى حتى بلغ مغرب الشمس[4].

ب- أن المفسرين قالوا عن ذى القرنين إنه كان مؤمنًا بالله، وجاء فى القصة القرآنية على لسانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى . .﴾ الآية. ويشبه ذلك ما جاء فى الملحمة من هجاء بالغ فى الإقذاع، وجهه جلجاميش لأعظم إلهة فى العالم القديم، وهى "إيشتار"، فإن هذا الهجاء

---

[1] راجع : السابق، ص١٤٦.

[2] راجع : السابق، ص١٤٨.

[3] راجع : السابق، ص١٥٦.

[4] راجع : السابق، ص١٤٨.

البالغ لا يقدم عليه إلا كافر بتلك الإلهة التى استولت على ألباب الشعوب القديمة كلها، وإن هذا الكفر الصراح بالإلهة ليترجم عن الإيمان الذى وصف به القرآن الكريم والمفسرون ذا القرنين[1] .

جـ- أن القول بأن ذا القرنين قد سمى بذلك، لأنه كان لـه ضفيرتـان مـن شعر يطلقهما «يمضى فى توافق تام مع جميع الصور الباقية حتى اليوم لجيلجاميش فى نقوش كثيرة موزعة بين متاحف العالم الكبرى، وأهمها موجودة فى متحف اللوفر فى باريس»[2] . وقد عثر على هذه الصورة الهامة فى قصر الملك "سرجون الآشورى"، ونرى فيها من بين ما نراه ضفيرتين غليظتين تستديران بالوجه، وتخرجان من مفرق الشعر فوق الجبهة، وتشبهان تمام الشبه قرنى الكبش الكبير[3] ، وتشهدان فى الوقت ذاته بأن القرآن الكريم حين دعاه "ذا القرنين" قد استند فى تلك التسمية على دعامة مازالت قائمة محققة حتى اليوم، ويشهد بصحتها تلك الصورة التى تركها الفنان القديم والتى تحمل الناظر إليها -فى الوقت ذاته- على عقد علاقة حتمية لا يجد منها فكاكًا بينها وبين ذلك التشبيه القديم الذى يرد فى أحاديث الشعراء الجاهليين عن قوادهم وملوكهم وهم يتصدرون الوقائع والحروب، من أمثال قول الحارث بن حلزة فى معلقته مخاطبًا الملك عمرو بن هند :

إن عمرًا لنا لديه خلال	**غير شك فى كلهن البلاء**
آية شارق الشقيقة إذ جا	**ءوا جميعًا لكل حى لواء**
حول قيس مستلئمين بكبش	**قرظى كأنه عبلاء**
وصتيت من العواتك ما تنها	**ه إلا مبيضة رعلاء[4]**

[1] راجع : السابق، ١٥٧، ١٥٨.

[2] السابق، ص١٦٨.

[3] راجع : السابق، ص١٦٨، ١٦٩.

[4] راجع : السابق، ص١٦٩.

هذا تلخيص يكاد يكون شاملاً لمزاعم الأستاذ نجيب البهبيتي حول قصة ذى القرنين الواردة فى القرآن الكريم، وللأدلة التى ساقها من أجل البرهنة على أن هذه القصة تشكل مع قصة موسى والخضر قصة واحدة بطلها هو موسى بن ميشا الملقب بذى القرنين فى القرآن الكريم، وبـ"جلجاميش" فى القصيدة العراقية القديمة!

وإذا كان الأستاذ البهبيتى قد جعل -خاطئًا- من قصة ذى القرنين وقصة موسى والخضر قصة واحدة، فقد أورد لنا الدكتور محمد رجب البيومى سطورًا عن صنيع أدبى يشبه ذلك، إذ قال ما نصه : «... جاء الشاعر الفارسى المسلم "نظام الكنجوى"، فحلا له أن يضع قصة "اسكندرنامه" مستعينًا بالمتداول الشائع على الألسنة، وقد شاء له خياله أن يجعل من الإسكندر نبيًا مرسلاً، وأن يبعث به إلى مكة ليطوف البيت الحرام حاجًا معتمرًا، ثم يوالى سيره لليمن، فالهند، فبلاد الأرمن، فالعراق، ثم يتحول إلى منطقة الظلام بأرض الصين، فيقابل الخضر، ويحارب يأجوج ومأجوج، وكأنى بالشاعر الفارسى وقد وجد قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح مجاورة لقصة ذى القرنين فى سورة الكهف فجعل القصتين قصة واحدة هكذا كما شاء خياله الشاعر !!»[1].

وحين عدت إلى "القصة فى الأدب الفارسى" لأتأكد مما قاله الدكتور البيومى عنها، وجدت أن ما ذهب إليه صحيح، حيث اتضح لى أن هناك قصصًا بدائيًا يرتفع إلى "وهب بن منبه" فى بعض أسانيده، قد انتشر فى بلاد إسلامية، كان من بينها دولة "فارس" تلك التى اصطلت بنار الإسكندر الأكبر أو المقدونى، فقتل ملوكها، وخرب ديارها، وترك من خلفه أساطير دامية تتحدث عن خوارقه، وعلمه وحكمته، وفلسفته، وقد استمرت هذه الأساطير متداولة على النطاق الشعبى، تداولاً جعل من الإسكندر المقدونى فوق خوارقه وبطولاته الحربية بطلاً لعديد من الحكايات والقصص التى تروى عن حكمته وسعة حيلته. ووجدت أن أحد الباحثين

---

[1] قضايا إسلامية، ج١، ص١٩٢، ١٩٣.

فى الأدب الفارسى يعد شخصية الإسكندر الأكبر أبرز شخصية تاريخية أحيطت بهالات أسطورية، وتبارى الشعراء الفرس فى نظمها، كما تباروا فى نظم قصة "يوسف وزليخا"، وكان "النظام الكنجوى" أول من تعرض لنظم قصة الإسكندر الأكبر، وقلده فى ذلك شعراء الفارسية بالهند وإيران على السواء، كالأمير حسن الدهلوى الهندى ناظم "آيينهٔ سكندرى" أى المرآة السكندرية، وعبد الرحمن الجامى صاحب "خردنامهٔ سكندر" وتبعهم فى هذا الطريق آخرون[1]. وقد بلغ من اكتساء هذه القصص بالثياب الأسطورية أن التبست شخصية "الإسكندر الأكبر" فى أذهان الشعراء الفرس بشخصية ذى القرنين الواردة فى القرآن الكريم، مع أن هذا غير ذلك، كما سنذكر بعد قليل، وكان من الغريب أن أرجع الباحث المشار إليه عناية الشعراء الفرس بشخصية الإسكندر المقدونى إلى ذكر هذه الشخصية فى القرآن الكريم وتأثر شعراء الفرس بالإسلام والثقافة العربية[2]، وليس لهذا الإرجاع من معنى سوى أن الباحث يرى أن الإسكندر المقدونى هو بعينه ذو القرنين المذكور فى القرآن الكريم.

و لم يكن الشعراء الفرس، ولاذاك الباحث هم الزاعمون وحدهم بأن ذا القرنين هو الإسكندر المقدونى؛ بل هناك علماء وباحثون آخرون تأثروا بالجو الأسطورى الذى غلف القصة، على الرغم من أن القرآن الكريم قدم لهم وللدنيا كلها خبرًا تاريخيًا قد نفضت عنه التفاصيل والأساطير، واستبقيت منه الحقيقة الصلبة التى لا يشك أحد فى سلامتها.. فراح هؤلاء العلماء والباحثون يرددون أن ذا القرنين هو الإسكندر بن فيليبس المقدونى بانى الإسكندرية فى مصر والإسكندرونة فى سورية.

وكان من هؤلاء العلماء -للأسف الشديد- المرحوم الشيخ عبد المتعال

---

[1] راجع : القصة فى الأدب الفارسى للدكتور أمين عبد المجيد بدوى، ص٨٣، ٨٤.

[2] راجع : السابق، ص٨٣.

الصعيدى[1] والأستاذ محمود زهران[2] والأستاذ التهامى الوزانى عميد كلية أصول الدين بتطوان[3] فى المغرب الإسلامية، وكذلك الدكتور حسين مؤنس[4].

يقول الأخير -مثلاً- عن الإسكندر الأكبر المقدونى اليونانى : «إن الإسكندر أمر بأن ترسم صورته مزينة بالكبش المقدس رمز آمون، فأصبح يعرف فى الروايات الشرقية باسم الإسكندر ذى القرنين» ويضيف أن الإسكندر الأكبر «رجل جمع الله عليه مجد الدنيا والآخرة، وشرفه بالذكر فى كتابه الحكيم، ورضى عنه المؤرخون، فجعلوا له بين الأبطال مكانًا ممتازًا» !!

ونفهم من هذا الكلام أن القائلين بأن ذا القرنين الوارد فى القرآن الكريم هو الإسكندر اليونانى قد اعتمدوا فى ذلك على عاملين ماديين هما :

١- وجود قرنين على رأس الإسكندر اليونانى، كسبب للتسمية التى جاء بها القرآن الكريم !

٢- تكوين الإسكندر الأكبر لإمبراطورية شاسعة أشرفت على المحيطين الهادى والأطلسى، كتفسير لقوله تعالى فى قصة ذى القرنين : ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ !

والظاهر أنهم قد اعتمدوا- أيضًا- على ما جاء فى بعض كتب التفسير القديمة من أن ذا القرنين هو الإسكندر اليونانى[5]، وعلى ذلك الحديث الضعيف بأن

---

[1] جاء ذلك فى فصل طويل نشره مسلسلاً فى مجلة الرسالة تحت عنوان : "الحضارات القديمة فى القرآن"، ثم جمعه فى كتاب خاص.

[2] راجع : قصص من القرآن لمحمود زهران، ص٢٤٠.

[3] جاء ذلك فى مقال له بعنوان "ثقافة القرآن ثقافة عالمية" نشر فى مجلة "دعوة الحق"، عدد شوال ١٣٨٤هـ.

[4] جاء ذلك فى كتابه المعروف : "صور من البطولة".

[5] راجع -على سبيل المثال- : تفسير الألوسى لهذه القصة فى تفسيره المعروف بروح المعانى.

«نفرًا من اليهود جاءوا يسألون النبى -صلى الله عليه وسلم- عن ذى القرنين، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداءً، فكان فيما أخبرهم به أنه كان شابًا من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به ملك إلى السماء، وذهب به إلى السد، ورأى أقوامًا وجوههم مثل وجوه الكلاب»[1].

وقريب من هذه المزاعم ما نقله القرطبى والباقورى عن ابن هشام من أن ذا القرنين الوارد فى القرآن الكريم «رجل من أهل مصر اسمه : مرزبان بن مرزبة اليونانى من ولد يونان بن يافث بن نوح» ![2]

وإذا كان الشعراء الفارسيون والعلماء السابقون قد تباروا -كما رأينا سابقًا- فى نسبة ذى القرنين إلى الأمة اليونانية، فإن أعجب ما نشط الإيرانيون إلى ترويجه فى مطلع القرن العشرين، هو الزعم بأن ذا القرنين هو الملك "قورش" الفارسى، ثم تضخم هذا الزعم، فقالوا وقال صنائعهم : إن قورش هذا لم يكن مؤمنًا بالنار ولا بزرادشت، وإنما كان نبيًا مؤمنًا بالله ملقبًا بذى القرنين !

وهكذا لم يلبث شيعة الهند أن رددوا هذا الزعم، على لسان أحد متكلميهم وهو "أبو الكلام أزاد"، الذى نفى -بشدة- أن يكون ذو القرنين ملكًا آخر غير الملك قورش الفارسى. وقد كتب أبو الكلام فى ذلك بحثًا مطولاً، حينما وصل لقصة ذى القرنين وهو يفسر القرآن الكريم، ودعم بحثه هذا بمقارنة بين ما ذكره التاريخ عن قورش، وما ذكره القرآن الكريم عن ذى القرنين، وزعم أن هناك تطابقًا تامًا بين المصدرين يؤكد أن ذا القرنين هو الملك قورش الذى ظهر فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، فى وقت كانت فيه بلاد الفرس منقسمة إلى دويلتين تقعان تحت ضغط حكومتى بابل وآشور القويتين، فاستطاع توحيد الدولتين الفارسيتين تحت حكمه، ثم استطاع أن يضم إليهما البلاد شرقًا وغربًا بفتوحاته، وأسس بذلك أول

---

[1] تفسير ابن كثير، المجلد ٣، ص١٠٠.

[2] مع القرآن للباقورى، ص٢٦٠.

إمبراطورية فارسية، ثم أتاح -بعد أن هزم ملك بابل سنة ٥٣٨ ق.م- للأسرى اليهود فيها الرجوع لبلادهم، مزودين بعطفه ومساعدته وتكريمه، وظل حاكمًا فريدًا في شجاعته وعدله في الشرق حتى توفي سنة ٥٢٩ق.م. ولم يكتفِ أزاد بهذه المقارنة، وإنما رسم في تفسيره -على غير عادة المفسرين- خريطة تبين رحلات ذي القرنين، كما ذكرها القرآن الكريم، وتوضح رحلات وحروب الملك "قورش"، كما فصلتها كتب التاريخ القديم، ولاسيما المصادر اليونانية التي أنصفت الرجل، على الرغم مما كان بينه وبين اليونانيين من عداء محكم ومستمر. وقد عنون أبو الكلام أزاد بحثه المطول هذا بقوله : "شخصية ذي القرنين في القرآن"[1].

ويمكن إجمال الأدلة التي أيد بها دعواه بأن ذا القرنين هو قورش فيما يلي :

١- أن الآثار قد صرحت بأن قصة ذي القرنين قد نزلت على الرسول -صلى الله عليه وسلم- بعد سؤال وجهه إليه كفار مكة بإيعاز من اليهود عن رجل طواف بلغ مشرق الأرض ومغربها، فلابد أن يكون ذو القرنين المسئول عنه على صلة ما بهؤلاء اليهود، وبتاريخهم القومي، ولما كان "قورش" هو الذي حرر اليهود من أسر بابل، وأرجعهم إلى وطنهم، فهو أقرب الملوك لأن يكون ذا القرنين.

٢- أن إيعاز اليهود للمشركين بسؤال النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذي القرنين ينبئ عن أن لديهم في كتبهم وتاريخهم علمًا به، مع تأكدهم بأن النبي أو العرب لم يطلعوا على ما جاء في كتبهم. وقد جاء في سفر دانيال من أسفار التوراة المتداولة في أيديهم : أن دانيال النبي كانت له رؤى رأى في إحداها كبشًا قويًا واقفًا على شاطئ النهر له قرنان عاليان، وكان أحدهما منحرفًا إلى ظهره، ورأى الكبش ينطح بقرنيه شرقًا وغربًا وجنوبًا، لا قبل لحيوان بالوقوف أمامه. ثم رأى تيسًا أقبل من الغرب بقرن واحد بارز بين عينيه، فاقترب من الكبش، فكسر قرنيه وصرعه، ثم إن جبرائيل قد فسر لدانيال رؤياه : بأن

[1] للاستزادة من تفاصيل هذا البحث راجع : مجلة ثقافة الهند، عددي مارس ويونيو، سنة ١٩٥٠م.

الكبش ذا القرنين يمثل اتحاد المملكتين : "ميديا" و"فارس"، فيملكهما ملك واحد لا تقدر دولة على مواجهته. أما التيس ذو القرن الواحد فإنه يدل على ملك اليونان. والذى حدث بعد هذه الرؤيا بمدة من الزمن أن ظهر الملك "قورش"، فوحد "ميديا" و"فارس" اللتين مثلتا فى الرؤيا بقرنين، ومثلت شخصية ملكهما بكبش ذى قرنين. ثم كان زوال أسرة "هنما منشى" التى كان منها "قورش" بهزيمة آخر ملوكها "دارا بوسند" على يد "الإسكندر الأكبر" الذى مثل فى الرؤيا بتيس ذى قرن واحد آتٍ من الغرب.

وفضلاً عن ذلك فقد جاء فى سفر "إشعياء" نبوءة أخرى عن ظهور ملك قوى فى الشرق ينقذ اليهود من الأسر الذى وقعوا فيه على يدى "بختنصر"، ويعيدهم من بابل إلى أرضهم، ويجدد عمارة أورشليم "القدس"، والذى يفعل هذا قد ذكر السفر تارة وصفه على صورة كبش له قرنان "لوقر نائيم"، وتارة أخرى على صورة عقاب يأتى من الشرق له جناحان، وذكر اسمه صراحة تارة ثالثة بأنه "خورس". وجاء فى سفر "عزرا" : أن رؤساء اليهود قد عرضوا نبوءات سالفيهم على الملك "قورش" عندما ظهر، ففرح بها، وتجاوب معهم، وعطف عليهم، وأعادهم مكرمين إلى بلادهم، وجدد لهم عمارة أورشليم. وبناء على هذا يكون ذو القرنين الوارد فى القرآن الكريم هو قورش الفارسى ليس غير !

٣- أن المؤرخين اليونان قد أجمعوا -على الرغم من عدائهم الشديد للفرس- على أن الملك "قورش" كان ملكًا عادلاً، كريمًا، سمحًا، نبيلاً مع أعدائه، صعد إلى المقام الأعلى من الإنسانية معهم، وهذه الصفات تتلاقى مع الصفات والخصائص التى ذكرها القرآن الكريم عن ذى القرنين ! وليس ثمة شك فيما قاله المؤرخون اليونان، فقديمًا قال الشاعر العربى :

ومليحة شهدت لها ضراتها ... والفضل ما شهدت به الأعداء

٤- أن علماء الآثار قد اكتشفوا بين الآثار الإيرانية القديمة تمثالاً حجريًا في طول القامة الإنسانية لقورش بعينه، وجدوه منصوبًا في مكان يبعد عن عاصمة إيران القديمة (إصطخر) نحو خمسين ميلاً على شاطئ نهر "الرغاب"، وقد فحص العلماء التمثال، ونشروا له رسمًا يظهر فيه قورش، وعلى جانبيه جناحان كجناحي العقاب، وعلى رأسه قرنان كقرني الكبش، ويده اليمنى ممتدة يشير بها إلى الأمام، ولباسه هو لباس ملوك بابل وإيران. ومعنى هذا أن الرسم الذي خلقه اليهود للملك المنقذ لهم "قورش" كان قد شاع وعرف على أنه الملك ذو القرنين، أي ذو التاج المثبت على ما يشبه القرنين، كما يتضح من صورة التمثال، سواء أكان هذا التمثال قد صنع بأمر قورش نفسه في حياته، أم بأمر خليفة من خلفائه، كما هو الشأن في ملوك ذلك الزمان في كل مكان.

٥- أن القرآن الكريم قد ذكر ثلاث مهمات حربية لذي القرنين، أولاها كانت إلى جهة (مغرب الشمس)، والثانية كانت إلى (مطلع الشمس)، والثالثة كانت إلى المكان الذي بنى فيه السد أمام يأجوج ومأجوج. وقد ثبت أن لقورش ثلاث هجمات : واحدة في الغرب ضد "كروس" ملك اليونان، والثانية في الشرق ضد قبائل همجية كانت تسكن فيما يسمى الآن بمكران وبلوخستان، والثالثة في الشمال أو ما يسمى الآن بمنطقة القوقاز، وقد بنى فيها سدًا حديديًا أقفل به الطريق على القبائل غير المتمدينة الواقعة في شمال الموقع الذي أقيم فيه السد.

هذه هي الأدلة التي ساقها أبو الكلام أزاد لتدعيم دعواه بأن ذا القرنين الوارد في القرآن الكريم هو الملك الفارسي "قورش" أو "خورس" كما تسميه التوراة.

ومن العجيب أن طائفة من العلماء والباحثين المصريين قد آمنوا وسلموا بصحة هذه الدعوى، وانخدعوا ببريق الأدلة التي أتى بها صاحبها، فراح الدكتور عبد المنعم النمر -مثلاً- يصفها بأنها بحث نفيس قد حل سائر الإشكالات التي ظال

عليها الأمد، وحيرت كل المفكريـن حـول شـخصية ذى القرنـين[1]، وعدّهـا الشـيخ الباقورى كشفًا لحقيقة خفيت معالمها على كثير من العلماء[2]، وحكم الدكتور سعد الدين الجيزاوى على صاحبها بأنه قد سار فى بيانها علـى منهـج علمـى دقيـق، يمتـاز بعمق المادة، ودقة العرض، وصحة النتائج التى وصـل إليهـا، فضـلاً عمـا ألقتـه هـذه النتائج من أضواء قوية على حيرة الناس فى تعرف هذه الشخصية القرآنية[3] ، وأشار الأستاذ توفيق سبع إلى أن ما قاله أبو الكلام كلام قيم مثمر، وجديد فى دراسة هـذا الموضوع الذى تحدث الناس فيه كثيرًا، و لم يصلوا إلى نتيجة، فلأن نقـرأ قصـة قرآنيـة معروفة الملامح، بينة القسمات، خـير مـن أن نقرأهـا مبهمـة مجهولـة لا نـدرى عنهـا شيئًا![4] .

ولا نريد الآن أن نـرد علـى هـذه الأبطولـة ومـا سـبقها مـن أبـاطيل حـول شخصية ذى القرنين الواردة فى القرآن الكريم، فذلك أمر سيجىء بعـد، وإنمـا نريـد الآن أن نشير إلى كاتب آخر مصرى قد أتى فى هذا الموضوع بما لم يأتِ به أحد مـن العلماء والكتاب السابقين، حين قال –زاعمًا– ما نصه : «فى الواقـع : إن شـخصية ذى القرنين –كما حللها القـرآن الكريـم– لتكـاد تنطبـق انطباقًـا تامًـا مـع شـخصية حزقيال الكاهن بن بوزى الذى جاء ذكره فى الإصحاح الأول من سفر حزقيال مـن كتب العهد القديم، والذى أرسله الله إلى شعب إسرائيل –تمامًا مثـل المثلثين اللذيـن تنطبق أضلاعهما وزواياهما كل على الآخر، مما يجعلنا نرجـح فـى ثقـة تامـة : أن ذا

---

[1] فى مقال له بعنوان "ذو القرنين : شخصية حيرت المفكرين أربعة عشر قرنًا، وكشف عنها أبو الكلام أزاد"، مجلة العربى، عدد مارس ١٩٧٤م.

[2] فى مقال له بعنوان : "ذو القرنين"، مجلة الوعى الإسلامى، عدد رمضان، ١٣٩١هـ، وراجع كتابه "مع القرآن"، ص٢٧٠.

[3] فى مقال له بعنوان : "شخصية ذى القرنين بين قورش والإسكندر المقدونى"، مجلة الأزهر، عدد شعبان ١٣٨٢هـ.

[4] راجع كتابه : "نفوس ودروس"، ج٢، ص١٢٣، ١٢٥، ١٢٦.

القرنين هو حزقيال الكاهن بن بوزى. ومن المعروف أن سفر حزقيال هذا ينتظم ثمانية وأربعين إصحاحًا تقع فى خمس وثمانين صفحة من القطع المتوسط» ![1]

وقد استدل الكاتب -وهو الأستاذ بهاء الدين القبانى- على ذلك بما يلى :

١- من ناحية التسمية بذى القرنين التى أوردها القرآن الكريم : جاء ما يوافقها فى سفر "حزقيال" فضلاً عن سفر "أخبار الأيام"، فقد جاء فى السفر الأول قول الرب لنبيه حزقيال : «ها أنذا قد جعلت وجهك صلبًا مثل وجوههم، وجبهتك صلبة مثل جباههم.. قد جعلت جبهتك كالماس أصلب من الصوان، فلا تخفهم، ولا ترتعب من وجوههم» أ.هـ وهذا يفيد أن عظام جبهته كانت فى صلابتها أشبه بالقرون، فغلبت عليه التسمية حتى اشتهر بها. ويؤكد ذلك ما جاء فى السفر الثانى من أن الله قد أمر نبيه "صدقيا بن كنعنة" المرسل إلى شعب إسرائيل بأن يعمل له قرونًا من حديد، حتى يستطيع أن يقاوم ذلك الشعب ذا الجباه الصلبة، والذى كان يتبع طريقة ضرب الرأس بالرأس، أى التناطح بالجباه، إذا ما هاجمه عدو ما، ونظرًا لأن حزقيال سوف يصبح عدوًا لهذا الشعب المتمرد، لأنه رسول من الله إليهم، فكان لابد من أن يجعل الله جبهة حزقيال أقوى وأصلب من جباههم، كإجراء مضاد من جانبه إذا ما حاول أحدهم أن يبادله التناطح بالجبهة أو بالرأس، فجعل الله جبهة حزقيال صلبة جدًا، كأن بها قرنين يدافع بهما عن نفسه فى الوقت المناسب[2].

٢- من ناحية التمكين الذى ذكره القرآن الكريم لذى القرنين فى الأرض : جاء فى سفر حزقيال ما يوافقه، إذ ذكر السفر أن حزقيال المرسل من الله إلى شعب إسرائيل قد مكن الله له فى الأرض، حيث أعطاه بعض المعجزات التى يستعين بها فى التغلب على الشعب الإسرائيلى المتمرد، وكان من هذه المعجزات ما

---

[1] الكلام والقول فى القرآن الكريم لبهاء الدين القبانى، ص٨٩.

[2] راجع : ص٩٠.

يشير إليها قول الرب لحزقيال : «فخذ لنفسك لبنة، وضعها أمامك، وارسم عليها مدينة أورشليم.. واجعل عليها حصارًا، وابنِ عليها برجًا، وأقم عليه مترسة، واجعل عليها جيوشًا، وأقم عليها مجانيق حولها، وخذ أنت لنفسك صاجًا من حديد، وانصبه سورًا من حديد بينك وبين المدينة، وثبت وجهك عليها، فتكون فى حصار وتحاصرها.. تلك آية لبيت إسرائيل» أ.هـ. وكان من هذه المعجزات -أيضًا- ما يشير إليه قول الرب لحزقيال : «اجعل وجهك نحو جبال إسرائيل، وتنبأ عليها وقل يا جبال إسرائيل : اسمعى كلمة السيد الرب.. وهكذا قال السيد الرب للجبال والآكام، وللأودية : ها أنذا جالب عليكم سيفًا، وأبيد مرتفعاتكم، فتخرب مذابحكم وتتكسر شمساتكم، وأطرح قتلاكم قدام أصنامكم» أ.هـ.[1].

٣- من ناحية الرحلات الثلاث التى ذكرها القرآن الكريم لذى القرنين : جاء فى سفر حزقيال ما يوافقها، فقد ذكر السفر أن حزقيال بدأ مسيره من أرض الكلدانيين -على حدود العراق- واتخذ طريقه نحو الغرب، حتى وصل إلى "تل أبيب" على ساحل البحر، وهناك رأى الشمس كأنها تغرب فى حفرة من الطين، ووجد عندها المسبيين وهم قوم صلاب الوجوه والجباه، وقد خير الله حزقيال فيهم بين أن يعاقبهم أو أن ينذرهم بالبعد عن الطريق المعوجة وهى طريق الكفر بالله، واتباع طريق الإيمان بالله الواحد. وذكر السفر -أيضًا- أن حزقيال سار تجاه الشرق حتى وصل إلى "أورشليم" وقاده الله نحو باب الهيكل فى أورشليم، حيث رأى قومًا تتجه ظهورهم نحو الهيكل، ووجوههم تتجه نحو الشرق وهم ساجدون للشمس. كذلك ذكر السفر : أن هناك قومًا فى أقصى الشمال يكونون قبيلة تسمى "جوج"، ويرأسها رجلان هما : "جوج" و"مأجوج"، وكان الموطن الأصلى لهذه القبيلة هو ما حول عمون وموآب

---

[1] راجع : ص٩١، ٩٢.

بالقرب من البحر الميت، وقد غضب الله عليهم لفسادهم وكفرهم، فأمر ببناء سد حجب وراءه قبرًا لهم[1].

هذه هى أبرز الأباطيل والدعاوى المفتراة حول شخصية ذى القرنين الواردة فى القرآن الكريم، وهى أباطيل لم يعتمد فيها كل واحد من مروجيها على حجة ثابتة، ولا على سند صحيح، وإنما وصل إليها من خلال فكره الخاص، وليس أدل على ذلك من تضارب بعضها مع البعض الآخر، تارة فى النص على اسم ذى القرنين، والأمة التى ينتسب إليها، وتارة أخرى فى المكان الذى عاش فيه، والزمان الذى أظله، ثم تارة أخرى فى الأدلة الواهية التى ساقها كل فريق لتأييد دعواه.

ولقد كان الممكن أن لا أعير لهذه الأباطيل اهتمامًا، بيد أنى حين حاورت نفسى فى العناية بالرد عليها، أو بعدم الرد، وجدت أن الرد أمر لا مفر منه، فإن البحث يعنى من ناحية بتفنيد الأباطيل التى نسجت حول قصص القرآن الكريم، ومن ناحية أخرى، فإن تلك الأباطيل قد نشرت فى كتب ودوريات تقرأ فى الشرق وفى الغرب معًا، ولاشك أنها إذ لم تتناول بالنقد والرد سيحسبها الجاهلون الغافلون من حقائق الأشياء والأمور، ثم تكون من بعد ذلك حجة وسندًا لكيد الكائدين، وتحريف المبطلين، وتأويل المتأولين الذين يتربصون بالإسلام الدوائر، ليحرفوه عن مواضعه من الوحى والتنزيل. وإذا كان الفيلسوف اليونانى "أرسطو" قد قال قولته الشهيرة : "أحب الحق، وأحب أفلاطون ما اتفقا. فإذا افترقا أحب الحق، وأترك أفلاطون"، فإنى -والله يشهد- أحب وأجل وأحترم سائر العلماء الذين روجوا هذه الأباطيل، لكنى أراهم خصومًا للحق الذى أحبه، والذى كان يلزم أن يتحروه، ومن ثم فإنى أختلف معهم فيما زعموه.

ذلك أننا قد قلنا فى مستهل عرض هذه الأباطيل : إن محاولة الاستقرار بشأن "ذى القرنين" على اسم معين، يلزم أن تعاد حساباته من جديد؛ بل إن أية

---

[1] راجع : ص٩٣ - ١٠٣.

محاولة لتحديد هذه الشخصية القرآنية قد توقع الباحث فى خطـأ يتـأبى مـع الحقـائق التى نطق بها قصص القرآن الكريم.

وفضلاً عما قلناه سابقًا فإن القول بـأن ذا القرنـين هـو فـلان، أو فـلان، أو فلان، من الأمور التـى لا نملـك وسـائل تمحيصهـا «ذلـك أنـه لا يمكـن البحـث فـى التاريخ المدون عن ذى القرنين الذى يقص القرآن طرفًا من سيرته.. فالتـاريخ مولـود حديث العهد جدًا بالقياس إلى عمر البشـرية، وقـد جـرت قبـل هـذا التـاريخ المـدون أحداث كثيرة لا نعرف عنها شيئًا، فليس هو الذى يستفتى فيهـا. ولـو قـد سـلمت التوراة من التحريف والزيـادات، لكـانت مرجعًـا يعتمـد عليـه فـى شـىء مـن تلـك الأحـداث، ولكـن التـوراة أحيطـت بالأسـاطير التـى لا شـك فـى كونهـا أســاطير، وشحنت كذلك بالروايات التى لاشك فى أنها روايات مزيدة على الأصل الموحى به من الله، فلم تعد التوراة مصدرًا مستيقنًا لما ورد فيها من القصص التاريخى، وإذن فلم يبقَ إلا القرآن الذى حفظ من التحريف والتبديل، هو المصدر الوحيد لما ورد فيه مـن القصص التاريخى»[1].

وهذا أبلغ رد على أولئك الذين اعتمدوا على التوراة، وعلى التاريخ اليونانى فيما زعموه، من أمثال الأستاذ القبانى وأبى الكلام أزاد، وزير المعـارف الأسـبق فـى حكومة الهند.

صحيح أن ما جاء به هذان الباحثان وغيرهما ممـن ذكرنـاهم -آنفًا- يـدل دلالة قوية على جانب مـن جوانـب الإعجـاز العديـدة فـى القصـص القرآنـى، وهـو انفراده عن شتى ألوان القصص بما يثيره فى المؤرخ من حب البحـث حتـى يكتشـف الحقائق، وبما يولده فى النفوس من رغبة ملحـة فـى الكشـف عمـا جـاء فـى القـرآن الكريم مبهمًا من الأسماء والكنى والألقاب، حتى ولو لم يكن مـن وراء معرفـة ذلـك فائدة تذكر. لكن هؤلاء الباحثين جميعًا -كمـا رأينـا فـى الصفحـات السـابقة- قـد

---

[1] فى ظلال القرآن، مجلد ٤، ص٢٢٩٠.

شرقوا وغربوا، وكلفوا أنفسهم من الجهد ما كلفوا، وكانوا كحاطبي ليل يستقطبون الأدلة من هنا وهناك، ثم لم يكسبوا من هذا كله شيئًا سوى الإتيان بمزاعم تتناقض تمامًا مع تلك الحقائق الثابتة التي تكشف عنها الدراسة الواعية الدقيقة لإعجاز القصص القرآني بعامة، وقصة ذي القرنين على وجه الخصوص.

لقد ذهب بعضهم -كما رأينا- إلى القول بيونانية ذي القرنين مرتديًا اسم الإسكندر المقدوني في جدول، واسم مرزبان بن مرزبة في جدول آخر، والجدولان كلاهما يلعن أخاه، فقد أثبتت لنا الدراسة الأدبية لأشخاص القصة القرآنية، استحالة أن يكون ذو القرنين يونانيًا تحت أي اسم كان، كما أثبتت استحالة أن يكون فارسيًا تحت أي لفظ يطلق عليه. ذلك أن القرآن الكريم لم يذكر -في قصصه وغيره- اسمًا لكسرى من الفرس، ولا اسمًا لقيصر من الروم، بل لم يذكر شيئًا من القصص أو التاريخ عن حياة الدولة الفارسية أو اليونانية أو البيزنطية التي شغلت كل كتب التاريخ الأوربي قديمًا وحديثًا، ولا غرو في ذلك فقد كان أفراد هذه الدولة «وهم يمضغون بالعجمة لجمًا في أفواههم لا يبينون عن حق، وكانوا بصراعهم على الرفاهية قد أذلوا كثرتهم، وعبدوا ملوكهم، كما أنهم وقد فقدوا تصور الحق، ونزلوا عن مستوى التوجه إلى الله الحق عاشوا يتلمسون الحقيقة التي فقدوها في التقلب بين باطل وباطل، وظاهر وباطن، ولفظ ومعنى لا يؤديه اللفظ، ومعنى ولا لفظ يدركون به هذا المعنى»[1].

لقد كانت الحالة المتدهورة التي وصلت إليها شعوب هذه الدول في شتى مناحي الفكر والعقيدة والحياة عبرة ظاهرة لكل من يمر بهم من العرب وغيرهم في الأسفار والرحلات بين الشام واليمن والعراق ومصر، وغير ذلك.. ينظر إليهم فلا يرى إلا «عقولاً مصلوبة، وشعوبًا مغلوبة، ومصائر متدافعة، على منحدر الوثنية والعجمة، وإلى هاوية القهر والضياع»[2]. ومن ثم فإن القرآن لم يرَ في القص عنهم

---

[1] قصص القرآن لأحمد موسى سالم، ص٢١٤.

[2] السابق، ص٢١٦.

وعما يزعمون ذكرًا لغافل، أو تذكيرًا لمتدبر، فأعرض عنه، وترك عيون الناظرين إليهم تتملى بذاتها.

صحيح أن القرآن الكريم قد احتوى على سورة جعل "الروم" عنوانها، ولكنه لم يتطرق إلى الروم فى غير هذه السورة على امتداد المصحف الشريف كله، كما أنه حين تحدث عن الروم فى السورة المسماة باسمهم ذكر كلمة الروم مرة واحدة، وبصورة عابرة سريعة، نفهم من مضمونها القصير جدًا أن هذا الذكر لم يكن لأمر يتعلق بحضارتهم، أو بمجتمعهم، أو فلسفتهم، أو تاريخهم، بل كان لأمر يتعلق بصميم الدعوة المحمدية، وبشرى انتصارها فى القريب العاجل «.. لقد جاء ذكر الروم فى هذه السورة تلخيصًا لوجهة نظر المؤمنين فى مكة إلى تلك الحروب الضارية والطويلة التى جرت بين الروم والفرس فوق أرض العرب، والتى سقط بها بيت المقدس والمسجد الأقصى فى أيدى الفرس المجوس سنة ٦١٤، حيث كان المؤمنون يشفقون من بقاء المسجد الأقصى فى قبضة الفرس، ويكرهون لذلك هزيمة الروم فى مواجهة كسرى»[1]، فبشر الله المؤمنين بأن هزيمة الروم -وهم أهل كتاب- هزيمة مؤقتة، سيعقبها استرداد الروم للقدس من أيدى الفرس عبدة النار. وكان هذا هو ما حدث تمامًا بعد نزول سورة الروم ببضع سنين، حيث أحرز هرقل الروم فى عام ٦٢٧ أول انتصار حاسم على الفرس، وتم استرداد المقدس فى العام الذى تلاه، ثم لم يلبث العرب المسلمون أن استلموا -بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ- مفاتيح بيت المقدس بيد الخليفة العادل عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- من يد البطريرك "صفرونيوس" طواعية واختيارًا[2]، ليكون المسجد الأقصى والقدس وديعة الله فى أعناق العرب المؤمنين إلى يوم القيامة إن شاء الله.

على أننا حين نتأمل الآيات القصيرة التى تناولت ذكر الروم نجد أنها قد

---

(1) السابق، ص٢١٧.

(2) راجع : السابقن ص٢١٧ - ٢١٨.

ضنت على الفرس بذكر اسمهم فى القرآن الكريم، حيث جاءت الآية هكذا ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ طاوية الفرس طيًا ببناء الفعل للمجهول تارة، وحذف المفعول به تارة أخرى فى قوله بعد ذلك ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾، حتى لكأن القرآن الكريم يريد أن يقول للدنيا كلها : لم يبقَ للروم فى هذه الحياة إلاَّ تلك الإشارة اليتيمة العابرة، و لم يبقَ للفرس إلا الظل المنحسر، والوهم الزائل، جزاء ما اقترفته الدولتان من آثام، وما تشبثتا به من أوهام ! ولقد حرص القرآن الكريم على التزام هذا المنهج، حتى إنه حينما عبر فى موضع آخر عن الفرس بكلمة "المجوس" لم يذكر هذه الكلمة إلا مرة واحدة، وفى سورة ليس غير[1]، وكان الداعى لذكرها أمرًا لا يتصل بثقافتها أو فلسفتها، أو ضحاتها الصاخبة حول الجزيرة وعند أطرافها؛ بل كان الداعى لذكرها الإشارة إلى الديانات التى دخلت الجزيرة قبيل اجتماع أبنائها بالقرآن الكريم على حقائق الإسلام.

وإذا كان القائلون بيونانية ذى القرنين والقائلون بفارسيته لا يقنعون بهذا الرد، فإننا نضيف إليه أمرًا آخر يتضح من دراسة الأوصاف التى ذكرها القرآن الكريم لذى القرنين، ثم مقارنتها بالأوصاف التى ذكرها المؤرخون للإسكندر المقدونى اليونانى، فقد كان ذو القرنين عبدًا صالحًا مؤمنًا با لله الواحد القهار، وكان ملكًا ذا عدل شفيقًا بالشعوب المغلوبة، مسخرًا جهده وقوته وماله وأعوانه للضعفاء والمحتاجين، وكان عفيفًا زاهدًا عن تناول ما فى أيدى الناس مع قدرته على الأخذ، حتى ولو كان ذلك مقابل ما طلب منه أن يقوم به من إصلاح. وإن إجابته لمن عرض عليه المال بقوله : ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ لهى أقرب إلى صفات الأنبياء والمرسلين، فهى تذكرنا بموقف سليمان النبى حين رفض هدية ملكة سبأ قائلاً : ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾.

---

[1] سورة الحج : الآية ١٧.

أما الإسكندر المقدونى فقد ذكر عنه أحد المؤرخين أنه ظل إلى آخر أيام حياته عبدًا للخرافات والأوهام، شديد الثقة بالعرافين والمنجمين الذين تزدحم بهم حاشيته، ولقد قضى الليلة السابقة لواقعة "أربيلا" يقوم بمراسيم سحرية مع الساحر "أرستندر"، ويقدم القربان لإله الخوف ! وكان ذا شخصية متناقضة، فهو بالإضافة إلى تقديم القرابين للآلهة كان يعتقد -فى نفسه- أنه هو إله البشر، وقد أرسل بالفعل فى عام ٣٢٤ق.م إلى جميع البلاد اليونانية رسالة يدعو ملوكها إلى الاعتراف به كابن لزيوس-آمون، وكان يتبارى -قبل موته بالحمى- مع ضباطه فى شرب الخمر، وقد أثبت هذا المؤرخ أن الإسكندر المقدونى بعد أن ألّه نفسه أصبح سريع الغضب متغطرسًا، وأن سرعة غضبه وغطرسته أخذتا تزدادان على مر الأيام ![1] وذكر مؤرخ آخر : أن كتّاب عصر الإسكندر والكتّاب الذين عاشوا فى زمن قريب من عصره قد أكدوا ما فطر عليه من غرور لا حد له، وتشكك فيمن حوله من الناس، وذهن أحدثت به أمه انحرافًا وزيغًا[2]، وأضاف مؤرخ ثالث : أن هذا الطاغية الدكتاتورى كان فى شبابه متهورًا يغتصب النساء، ويسرف فى سفك الدماء ونهب الأموال؛ بل كان يضحى بمئات القرى والمدن ليرضى شهواته وشهوات جنوده فى السبى والهتك والإبادة والاستئصال ![3]

هذه بعض صفات الإسكندر المقدونى، وتلك هى صفات ذى القرنين، فأين ذاك من هذا ؟! لا يستويان ولا يشتبهان إلاّ على مَن لا يعرف حقائق الأمور !

على أن هناك أمورًا أخرى تثبت أن ذا القرنين ليس هو الإسكندر المقدونى، منها :

أن المقدونى لا تعرف له فتوحات بالمغرب، كما لم يعرف عنه أنه بنى سدًا، ومنها : أن ذا القرنين كان فى زمن الخليل عليه السلام، وقد طاف معه بالبيت العتيق

---

[1] راجع : قصة الحضارة - حياة اليونان، ول ديورانت، ج١، ص٥١٩، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٨.

[2] راجع : تاريخ معالم الإنسانية لولز، ج٢، ص٣٢٥، ٣٧٠ (الترجمة العربية).

[3] راجع : قضايا إسلامية، ص١٨٩، ١٩٠.

لَمّا بناه الخليل، وكان وزيره الخضر، أما المقدونى فقد كان قبل المسيح بنحو من ثلثمائة سنة، وكان وزيره "أرسطاطاليس" الفيلسوف المشهور[1].

ولا يعتد بما ذكره بعض المفسرين القدماء كالألوسى من أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدونى، لأن تاريخ هذا الطاغية من ناحية «لم يكن من الوضوح لدى بعض المفسرين القدماء، كما هو اليوم بعد أن كثرت عنه المؤلفات من أبناء جنسه، وممن عاشروه فى عهده البائد، وكتبوا عنه ما صار اليوم موضع دراسة فاحصة ومراجعة مستنيرة لدى من تحققوا من الروايات، واطمأنوا إلى الوثائق ومدونات الآثار الحجرية فى الشرق والغرب، حتى استقامت له صورة صحيحة تدل على سلوكه النفسى وطموحه الحربى وجبروته الدكتاتورى»[2]. ومن ناحية أخرى فإن بعض المفسرين المحققين كابن كثير قد أبطل الفرية القائلة بأن ذا القرنين هو الإسكندر المقدونى، كما رد على ذلك الحديث القائل برومية ذى القرنين وبنائه الإسكندرية بأنه حديث فيه طول نكارة ورفعه لا يصح، ثم قال : «وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذى كان من الروم الإسكندر الثانى الذى تؤرخ به الروم»[3].

كذلك لا يعتد بأية عوامل مادية فى الذهاب إلى أن ذا القرنين هو الإسكندر الأكبر، لأن العوامل المادية بمفردها قلما تكشف فى هذا الصدد عن الحقيقة ما لم توازرها عوامل معنوية ثابتة أخرى، ومن ثم لا يمكن أن تتخذ أساسًا للبحث على النحو الذى كان من الشيخ الصعيدى ومن ذكرناهم معه.

ونخلص من ذلك إلى أن حمل ذى القرنين الواردة قصته فى القرآن على الإسكندر المقدونى يدحضه أكثر من دليل من دلائل العلم وشواهد التاريخ، والدراسة الأدبية التحليلية لشخوص القصة القرآنية.

---

[1] راجع : تفسير ابن كثير، مجلد ٣، ص١٠٠.

[2] قضايا إسلامية، ج١، ص١٨٩.

[3] تفسيره، مجلد ٣، ص١٠٠.

وكذلك الأمر بالنسبة لحمله على الملك "قورش" الفارسى، فليس هناك من دليل قطعى -ولا حتى ظنى راجح- لا فى الكتاب، ولا فى السنة، ولا فى أقوال رجال العلم بالحديث وبالتفسير والتاريخ الصحيح قديمه وحديثه، ما يجعلنا نجزم أو نرجح ما زعمه أبو الكلام أزاد من أن المراد بذى القرنين فى القرآن الكريم هو ذلك العاهل الفارسى القديم؛ بل إن الدراسة الواعية الدقيقة لشخوص القصة القرآنية قد أثبتت عكس ما ادعاه، حتى لكأنه من أخبار بنى إسرائيل؛ بل إن «الحقيقة التى لا يمكن طمسها وراء هذه الخرافة العصرية : أن الملك قورش الفارسى -الذى يراد رغم أنفه تغيير هويته التاريخية فى نفس العصر الذى يراد فيه زرع إسرائيل فى أرض العرب- إنما هو الملك المتجبر الذى خرب بابل العراقية العربية، وأهم من ذلك فى لغة الأحداث المعاصرة أنه هو الذى أعاد اليهود الذين كان الملك العربى ناجوخد ناصر قد أسرهم ونفاهم إلى بابل سنة ٥٨٦ ق.م، والذى استقبله اليهود عندما نجحت المفاوضة معهم لإعادتهم إلى فلسطين، معظمين له كمنقذ لهم تحت سلطان الفرس.. .. ويكفى أن اليهود الذين أنكروا المسيح، وتمردوا على موسى، وخانوا الله، وعبدوا العجل، قد منحوا الملك الفارسى قورش فى ظل حلف شمال الأطلسى وأهدافه، وفى إطار العلاقات الودية التى كانت يومًا بين إيران وإسرائيل -رتبة نبى، وزعموا أنه أحد الأنبياء الأبرار !!»[1].

وليس معنى أننا قد نفينا -فيما سبق- الهوية اليونانية والفارسية عن ذى القرنين الوارد فى القرآن الكريم، أننا نجزم كل الجزم بأنه حميرى يمنى كما ذهب إلى ذلك بعض من ذكرناهم سابقًا، ذلك أن هذا الجزم قد يرد عليه وعلى أدلة من ذهب إلى ذلك بما يلى :

١- أن قصة ذى القرنين قد نزلت إثر سؤال وجهه مشركو مكة -بتحريض من يهود المدينة- إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن رجل طواف وصل إلى

---

[1] قصص القرآن لموسى سالم، ص٢٢٠، ٢٢١.

مشرق الأرض ومغربها، وكان الهدف من هذا السؤال هو تعجيز النبى -صلى الله عليه وسلم- وإحراجه. ولاشك أن ذا القرنين لو كان عربيًا من اليمن لكان هناك احتمال قوى لدى اليهود -على الأقل- أن يكون عند أهل الحجاز علم به، وبالتالى عند النبى -صلى الله عليه وسلم- فيصبح المقصد من السؤال غير وارد ولا محتمل، ولكنهم -فيما يبدو من كلامهم- كانوا متأكدين بأن النبى -صلى الله عليه وسلم- لم يصله خبر عنه، ولا عن الأمة التى ينتسب إليها، وكانوا ينتظرون -لذلك- عجز النبى عن الرد على السؤال، فلو لم يكن الأمر كذلك لما كان هناك وجه للسؤال عن شىء معروف عنده.

٢- أن القرآن الكريم قد ذكر لذى القرنين فتوحًا فى المغرب، والمشرق، وأن ذا القرنين قد أقام سدًا حديديًا نحاسيًا يمنع هجمات يأجوج ومأجوج، ولا توجد شهادة تاريخية فى الكتاب أو السنة أو أقوال المفسرين والمؤرخين على وجود ملك يمنى حميرى أمعن فى شرق الأرض ومغربها مغيرًا فاتحًا وبنى سدًا حديديًا نحاسيًا كما ذكره القرآن الكريم.

٣- أن التشبث بسد مأرب -فى هذا المجال- لا يجدى نفعًا، إذ لم يذكر أحد أن هذا السد بنى لصد هجمات مغيرين، ولا استخدمت فى بنائه ألواح الحديد وقطع النحاس، كما هو الشأن فى السد الذى أقامه ذو القرنين.

٤- كذلك فإن التشبث بتلاقى الصفة التى ذكرها القرآن الكريم لذى القرنين مع ألقاب الملوك الحميريين لا يجدى نفعًا، لأن لفظة "ذو" لا يلزم منها أن يكون ذو القرنين ملكًا حميريًا كأولئك الحميريين الذين كان يسمى كل من ملك منهم "محفدًا" من الإقطاعات الزراعية : "ذو" أى صاحب المحفد، حتى إذا اجتمع فى يده عدد من المحافد يُكوِّنُ "مخلافًا" منح لقبًا آخر وهو "قيْل" مما يدل على أن "ذو" لم تكن لقبًا ثابتًا كثبوتها فى "ذى القرنين"، وفضلاً عن ذلك فإن "ذا الكفل" مثلاً لم يكن حميريًا يمنيًا، وإنما كان من أنبياء بنى إسرائيل الذين عاشوا فى الأرض المقدسة "فلسطين".

٥- والاستدلال على أن ذا القرنين يمنى حميرى بأن القرون هى الجدائل فى لغة البدو، وعلى طريقتهم لا يجدى نفعًا، لأننا لا نستطيع أن نقطع بأن ذا القرنين كان له أو على تاجه قرنان بالمعنى المفهوم للقرون التى للأبقار والكباش مثلاً، أو خصلات وجدائل من الشعر. والذى يحول دون القطع بذلك إنما هو تعدد الروايات فى سبب تلقيب هذه الشخصية بذى القرنين، ومن هذه الروايات رواية تذكر أن القرن لم يستعمل فى معناه الظاهر؛ بل أريد به الزمن. ولما كان هذا الملك قد امتد حكمه، واتسع نطاق فتوحه إلى عهدين كبيرين لقب بذى القرنين[1]. وقيل : سمى بذلك لبلوغ ملكه قرنى الشمس من المشرق والمغرب، وقيل : لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس وهو حى، وقيل : لأنه كان كريم الطرفين، وقيل : لأنه أعطى علم الظاهر وعلم الباطن، وقيل لأنه دخل النور والظلمة، وقيل غير ذلك كله[2].

٦- وقد ثبت أنه عاصر الخليل عليه السلام، ذلك الذى نصت كتب المؤرخين على أنه قد عاش فى الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ق.م)[3]، وهذا ينفى أن يكون ذو القرنين واحدًا من تلك الأسماء الحميرية اليمنية التى أوردها الباحثون، والتى نلحظ أنها لم تكن فى تلك الفترة، ومن أمثلة ذلك أن الملك الحميرى "شمريهرعش" الذى جعله البعض ذا القرنين كان فى الفترة (٢٧٠ - ٣١٠م) وعاصر امرأ القيس بن عمرو ملك الحيرة[4].

٧- وإذا كان قد جاء فى خطبة "قس" وشعر "الأعشى" ما يفيد أن ذا القرنين كان اسمه "الصعب"، فليس فى كلامهما ما يدل على أنه كان حميريًا يمنيًا.

---

[1] مع القرآن للباقورى، ص٢٦٦.

[2] راجع : الإتقان للسيوطى، ج٤، ص٩١.

[3] راجع : دراسات فى تاريخ العرب القديم للدكتور محمد بيومى مهران، ص١٤٠، ١٥٠.

[4] راجع : السابق والصفحات نفسها.

لكل ما تقدم قلت : إننا لا نستطيع أن نجزم بأن ذا القرنين يمنى عربى، ولا أنه هو فلان أو فلان، ومن ثم فنحن لا نملك إلا أن نقول ما قلناه فى مستهل هذا الفصل : إن الاستقرار بشأن ذى القرنين على اسم معين يلزم أن تعاد حساباته من جديد، لأن القول حتى بعربية ذى القرنين إذا صح اليوم أو كان محتملاً، فإن الغد قد يفاجؤنا بخلافه.. والله وحده هو الأعلم باسم ذى القرنين وجنسيته !

ولقد أعجبنى تبع اليمانى فى الأبيات التى أوردناها له سابقًا، مفتخرًا فيها بذى القرنين، حيث رأيناه يكتفى فى التعبير عنه بهذه الصفة، دون أن يذكر له اسمًا بعينه، فكان الشاعر بصنيعه هذا متلاقيًا مع الشاعر العربى الآخر الذى يقول :

لنا ملك ذى القرنين هل نال ملكه	**من البشر المخلوق خلق مصور**
ثوى، ثم يتلو الشمس عند غروبها	**لينظرها فى عينها حين تدحر**
ويسمو إليها حين تطلع غدوة	**ليلمحها فى برجها حين تظهر**
دليلاً بأسماء السماء نهاره	**وليلاً رقيبًا دائمًا ليس يفتر**
وأرصد سدًا من حديد إذا بدا	**ومن عين قطر مترعًا ليس يظهر**
رمى فيه يأجوجًا ومأجوج عنوة	**إلى يوم تدعى للحساب وتنشر[1]**

وهكذا يتلخص لنا : أن أحدًا من الباحثين والعلماء الذين سبق ذكرهم، بل وغيرهم لم يصل حتى الآن إلى نتيجة مقنعة فى بحثه عن اسم "ذى القرنين"، و الأمة التى ينتسب إليها، وإن كان بعضهم -كابن كثير- قد وصل إلى تحديد زمنه بمعاصرته للخليل عليه السلام.

ومع ذلك، فإن الجهود التى بذلت فى هذا الصدد كانت أخف وطأة من ذلك البحث العقيم الذى أتى به الأستاذ نجيب البهبيتى، غاصًا بتلك الأباطيل التى سبق عرضها، والتى يمكن الرد عليها بأمور كثيرة نجتزئ منها ما يلى :

---

[1] راجع : الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى للدكتور محمد مصطفى هدارة، ص٦٥.

١- أن هناك بونًا شاسعًا بين واقعية القرآن الكريم، وأسطورية الشعر، ومن ثم فإنه لا يصح الادعاء بأن هناك شيئًا فى ملحمة "جلجامش" الأسطورية يوافق شيئًا فى قصة ذى القرنين التى أوردها القرآن الكريم رافلة فى أبهى حلل الواقعية، كما لا يصح وصف هذه القصيدة الأسطورية بأنها أخطر وثيقة تاريخية عرفها الإنسان.

٢- أن ذا القرنين ليس هو جلجاميش الذى تناولته القصيدة الأسطورية بدليل من الملحمة ذاتها، حيث لم يرد فيها ما يشير من قريب أو من بعيد إلى معاصرة جلجاميش للخليل عليه السلام الذى كان ذو القرنين معاصرًا له كما قلنا آنفًا، وفضلاً عن ذلك فإن ذا القرنين كان مؤمنًا موحدًا با لله، بينما نرى جلجاميش فى الملحمة يهجو الإلهة "إيشتار" هجاء مقذعًا دالاً على كفره بها، ثم نراه مرة أخرى يعود فيناقض نفسه ويقول عن ذلك الوثن أو الإله الأسطورى : إنها "إيشتار الموقرة" !

٣- كذلك فإن ذا القرنين شخصية مستقلة تمامًا عن شخصية موسى الذى حكى القرآن الكريم قصته مع الخضر فى سورة الكهف، وبالتالى فإن قصة ذى القرنين تختلف عن هذه القصة، ولا تشكل معها قصة واحدة مكونة من قسمين.

صحيح أننا نرى بعض أمور مشتركة بين القصتين مثل :

أ - عدم النص فى القصتين على الزمان الذى وقعت فيه الأحداث.

ب- ختم القصتين بما يفيد أن تصرفات البطل راجعة إلى ا لله ورحمته، حيث نرى الخضر فى قصة موسى معه يكشف لموسى عن سر تصرفاته التى أنكرها عليه بقوله : ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، ونرى ذا القرنين يقول بعد بنائه السد : ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾.

جـ - عدم ذكر القصتين فى سورة أخرى غير سورة الكهف.

د- كلتا القصتين نموذج فريد لأدب الرحلات، قد سبق إليه القرآن الكريم، قبل أن يتغنى به الأدباء والنقاد المحدثون.

هـ- كلتا القصتين نموذج رائع بديع من نماذج القصص القصير فى القرآن الكريم.

و- كلتا القصتين قد جاء فيها ثلاثة أحداث متوالية، والحدث الثالث عبارة عن بناء وتشييد، حيث نرى فى قصة موسى مع العبد الصالح : قتل الغلام، ثم خرق السفينة، ثم بناء الجدار، ونرى فى قصة ذى القرنين : بلوغه مغرب الشمس، ثم بلوغه مطلعها، ثم بناءه السد فى وجه يأجوج ومأجوج.

ز- ذكر "حتى" المؤذنة بانتهاء الغاية خمس مرات فى كلتا القصتين، منها ثلاث مرات جاءت فيها متلوة بـ"إذا".

ح- مجيء الفعل المشتق من "الاستطاعة" مرة بالتاء، ومرة بدونها فى كلتا القصتين، حيث جاء فى قصة موسى مع العبد الصالح قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ «أى هذا تفسير ما ضقت به ذرعًا، و لم تصبر حتى أخبرك به ابتداءً، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال : "تسطع"، وقبل ذلك كان الإشكال قويًا ثقيلاً، فقال : ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف، كما قال فى قصة ذى القرنين : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلى السد، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظًا ومعنى»[1].

ولكن على الرغم من اشتراك القصتين فى هذه الأمور، فإن كل قصة منهما مستقلة عن الأخرى، وليست إحداهما قسمًا يكمل الآخر، ويتحدث عن شخصية تمتد فيهما معًا.

---

[1] تفسير ابن كثير، مجلد٣، ص١٠٠ "بتصرف يسير".

لقد تناولت قصة ذى القرنين رحلاته الثلاث التى أوضحها القـرآن الكريـم وتناولت قصة موسى مع العبد الصالح لونًا من العلم ذا طبيعة غامضة أشد الغمـوض، ألا وهو العلم اللدنى بالغيب والقـدر الأعلى الـذى أسـدلت عليـه الأستار الكثيفـة، والذى «لا يمكن النظر فيه بعقولنا البشرية، أو منطقنـا المعتـاد فـى النظـر إلى العلـوم، فليس هذا العلم هو العلم التجريبى الذى نعرفه على الأرض، وليس هو بعلم الأنبيـاء، الذى يوحى الله به إليهم، إنما نحن أمام نوع من العلم جديد»[1] ، وهى قصة لم يحدد القرآن الكريم المكان الذى وقعت فيه أحداثها إلا بأنه "مجمع البحريـن"، وكذلـك لم يحدد التاريخ الذى وقعت فيه من حياة سيدنا موسى عليه السلام.

ولا يمكن إطلاقًا أن يكون المراد بموسـى هـذا أحـدًا غـير ابـن عمـران الـذى أرسله الله إلى فرعون، فليس هو -كما ادعـى البهبيتـى- موسـى بـن ميشـا، وهنـاك دليل من السنة النبوية الصحيحة يؤكد ما قلناه، بل هناك دليـل مـن التـاريخ، ودليـل من القصص القرآنى ذاته، يؤكدان ذلك :

فقد أورد البخارى عند الكلام عن هذه القصة ما نصه : «حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرنى سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس: إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صـاحب بنى إسرائيل. وقال ابن عباس : كذب عدو الله. حدثنا أبى بن كعب -رضـى الله عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : إن موسى قام خطيبًـا فـى بنى إسرائيل، فسئل : أى الناس أعلم ؟ قال : أنا. فعتب الله عليه، إذ لم يـرد العلـم إليه، فأوحى الله إليه إن لى عبدًا بمجمع البحرين هو أعلـم منـك. قـال موسـى : يـا رب وكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتًا فتجعله بمكتـل، فحيثمـا فقـدت الحـوت فهو ثم»[2] .

---

[1] أنبياء الله لأحمد بهجت، ص٢٧٩.

[2] تفسير ابن كثير، المجلد ٣، ص١٠٠.

و«قال أهل العلم بالتاريخ : لما مات يعقوب ويوسف عليهما السلام، وآل الأمر إلى الأسباط كثروا ونموا وظهر فيهم ملوك فغيروا سيرتهم، وأفسدوا فى الأرض وفشا فيهم السحر والكهانة، فبعث الله تعالى إليهم موسى بن ميشا بن يوسف عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وأداء أمره وإقامة سننه، وذلك قبل مولد موسى بن عمران بمائتى سنة»[1] ، وأضاف أهل العلم بالتاريخ أن موسى ابن ميشا يسمى "موسى الأول" وليس هو صاحب الخضر عليه السلام، وإنما الصاحب هو "موسى الثانى"[2] .

وحين ننظر إلى قصة موسى مع العبد الصالح ذاتها، نجد فيها ما يؤكد أنه موسى بن عمران الذى تحدث القرآن الكريم عنه فى مواضع عديدة منه، فنحن نجد سيدنا موسى فى هذه القصة يعد الخضر بالصبر والطاعة وعدم السؤال عن شيء حتى يحدث له الخضر منه ذكرًا، ولكنه حين يرى الخضر يخرق السفينة ينسى ذلك كله أمام هذا التصرف العجيب الذى لا مبرر له فى نظر منطقه العقلى، ويندفع مستغربًا غير صابر على فعلة الرجل، ثم يندفع مستنكرًا حين يراه يقتل الغلام، ومعاتبًا حين يراه يبنى الجدار دون مقابل فى قرية أهلها بخلاء.. ومعنى هذا أن موسى فى هذه القصة ذو طبيعة انفعالية اندفاعية، وتلك الطبيعة هى ذاتها طبيعة موسى بن عمران فى بقية ما قصه الله عنه فى القرآن الكريم، وكما تظهر من تصرفاته فى أغلب أدوار حياته، منذ أن وكز الرجل المصرى الذى رآه يقتتل مع الإسرائيلى فقتله فى اندفاعة من اندفاعاته، ثم أناب إلى ربه مستغفرًا معتذرًا، حتى إذا كان اليوم الثانى ورأى الإسرائيلى يقتتل مع مصرى آخر، هم بالآخر مرة أخرى. ومثل سرعة انفعاله حينما علم أن قومه عبدوا العجل فألقى ألواح التوراة وأخذ برأس أخيه يجره إليه. وهذه الطبيعة لم يحدثنا التاريخ بمثلها عن موسى ابن ميشا. كذلك

---

[1] قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس للثعلبى، ص١٤٤.

[2] راجع : السابق نفسه.

فإن هذه الطبيعة التى نراها لموسى بن عمران تختلف تمامًا عن طبيعة ذى القرنين، فذو القرنين -كما يقول الأستاذ الدكتور عبد الفتاح الدماصى فى كتابه القيم الضخم عن الحب الإلهى فى شعر محيى الدين بن عربى- : «رجل مكّن الله له فى الأرض، ومنحه الأسباب التى توصله إلى ما يطلب... ولكنه لم يكتفِ بهذا الفضل الإلهى؛ بل أردف ذلك بأسباب من فعله، وحركة صنعها بنفسه، حتى قال الحق عز وجل : ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أى : أتبع الأسباب الممنوحة له من عند الله بأسباب بشرية أوجدت من فعله... ومن ثم رأينا القرآن يعرض علينا أحداثه المتتالية التى يتوجها بكفاحه ونظره الثاقب، وأخذه بالأسباب المرة بعد المرة»[1].

وفضلاً عن سائر ما تقدم فإن هناك دليلاً آخر فى قمة الروعة على أن موسى الواردة قصته مع العبد الصالح فى سورة الكهف هو موسى بن عمران وليس موسى بن ميشا ولا ذا القرنين. وقد أشار إلى هذا الدليل الأستاذ الدكتور الدماصى فى تعليق له على قول محيى الدين بن عربى فى موشح له :

اخرق سفين الحس يا نائم

واقتل غلامًا إنك الحاكم

ولا تكن للحائط هادم

لقد أوضح الدكتور الدماصى أن الأحداث الثلاثة التى جاءت على يد الخضر فى صحبة موسى بن عمران معه كانت من بين ألف مسألة أعدها الخضر -بأمر الله- لموسى، مما جرى عليه من أول ما ولد إلى زمان اجتماعه به، وكانت الغاية من ذلك : تنبيه موسى عليه السلام أن جميع ما جرى عليه ويجرى إنما هو بأمر الله وإرادته وعلمه الذى لا يمكن وقوع خلافه[2].

---

[1] الحب الإلهى فى شعر محيى الدين بن عربى، ص٢٣٨، ٢٣٩.

[2] راجع السابق، ص٢٢٤، ٢٢٥.

وأضاف الدكتور الدماصى : أن حدث خرق السفينة الذى ظاهره الهلاك وباطنه النجاة من يد الملك الغاصب الذى كان يأخذ كل سفينة غصبًا -إنما كان فى مقابلة التابوت الذى أطبق على سيدنا موسى فى اليم، والذى وضعت فيه أم موسى ولدها خوفًا من ذبح فرعون الغاصب، فظاهر هذا التابوت الهلاك، وباطنه النجاة من فرعون[1] . كذلك فإن أول «ما ابتلى الله به موسى قتله القبطى بما ألهمه الله ووفقه فى سره وإن لم يعلم بذلك، ولهذا أراه الخضر قتل الغلام فأنكر عليه قتله و لم يتذكر قتله القبطى، فقال له الخضر : وما فعلته عن أمرى. وقد أراه الخضر إقامة الجدار من غير أجر فعاتبه على ذلك، فذكره بسقايته من غير أجر لبنتى الشيخ الكبير الصالح ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فجعل عين عمله السقى عين الخير الذى أنزله الله إليه، ووصف نفسه بالفقر إلى الله فى الخير الذى عنده، فهو شكر لله على الخير الدينى الذى يفوق الخير الدنيوى، حيث إنه صنع معروفًا بالسقى لضعيفتين من غير أن يحصل على أجر دنيوى منهما»[2] . فهذه الأحداث الموسوية الخضرية تؤكد أن موسى المذكور فى سائر المواضع القرآنية التى تناولته إنما هو موسى بن عمران ليس غير.. موسى الذى كان فتاه "يوشع بن نون" وليس "أنكيدو" كما زعم الأستاذ البهيتى !

ولعل خير ختام نختتم به الرد على تلك المزاعم التى نسجت حول شخصية ذى القرنين وكذلك قصة موسى مع العبد الصالح -هو أن تنبه الكتاب جميعًا إلى أن يزنوا ما يريدون أن يقولوه فى هذا الشأن وغيره بميزان العقل والشرع، وأن يتحققوا كل التحقق أن للناس فائدة فيما يذكرونه لهم، فمن قبل قال الجاحظ فى "حسن الكلام" باللسان أو بالقلم : «ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت من

---

[1] راجع السابق نفسه.

[2] السابق، ص٢٢٤.

قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله من التوفيق، ومنحها من التأييد ما يمتنع عن تعظيمها به صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهالة»[1]، ومن قبل الجاحظ قال الحق سبحانه : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[2]، كما قال -أيضًا- : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[3] .

- ٢ -

وإذا كان الأستاذ البهبيتى قد زعم حول شخصية موسى وشخصية ذى القرنين ما سبق دحضه، فإن من الغريب جدًا أن باحثًا آخر -وهو الأستاذ التهامى الوزانى- قد زعم[4] أن الخضر الذى رحل موسى للأخذ عنه، رجل إغريقى من اليونان، و لم يكتفِ الوزانى بذلك؛ بل زعم -أيضًا- أن الخضر هذا كان ابن خالة للإسكندر المقدونى !

والحقيقة أن ابن خلدون قد ذكر الخضر فى عمود نسب أهل بابل من العراقيين[5] وروى الطبرى فى تاريخه، وابن كثير فى البداية والنهاية، وابن حجر فى فتح البارى، أكثر من قول فى اسم الخضر ونسبه ما عدا أنه يونانى فليرجع إليها من شاء. أما الادعاء بأنه كان ابن خالة للإسكندر المقدونى فيبطله ما ذكره الأستاذ عبد الوهاب النجار من أن الإسكندر المقدونى كان بعد موسى بأكثر من ألف سنة، فكيف يكون ابن خالته معلمًا لموسى رسول الله ؟![6]

- ٣ -

ويبدو أن الأستاذ الوزانى قد شغفه الإغريق حبًا، حتى إنه مضى يلهث وراء

---

[1] البيان والتبيين، ج١، ص٨٣.

[2] سورة البقرة : ٨٣.

[3] سورة الأحزاب : ٧٠.

[4] فى مقاله الذى سبق التلميح إليه.

[5] راجع : تاريخ ابن خلدون، ج١، ص١٠٨.

[6] راجع كتابه : قصص الأنبياء، ص٣٥٤.

فكرة تغريق القصص القرآنى فى ثقافة الإغريق وفلسفتهم، فزعـم أن الأنبيـاء أخـذوا العلم عن فلاسفة الإغريق، ومثل لذلك بما سبق دحضـه، ثـم زعـم أن الوصايـا التـى أوردها القرآن الكريم على لسان لقمان موجهة لابنه إنما هـى وصايـا إغريقيـة أقرهـا الإسلام بنفس القيمة التى كانت لها فى الأمة الإغريقية، وكذلك كان لقمان إغريقيًا من اليونان !!

والحقيقة أن القرآن الكريم قد ذكر لقمان بأحسن الذكر، وأنه آتاه الحكمـة وألهمه الشكر على النعمة، ثم أورد بعد ذلك وصاياه لابنـه الـذى هـو أشـفق النـاس عليه وأحبهم إليه، و لم يذكر القرآن الكريم أكثر من ذلك عن لقمان، فلم يذكـر إلى أية أمة من الأمم ينتسب هذا الحكيـم، ولا فـى أى مكـان وجـد، ولا فـى أى عصـر عاش، ولا متى ولد أو مات، ولا غرو فى ذلك فإن القصص القرآنى ليس "أرشـيفًا" يحدد الزمان والمكان وتواريخ الأمم والوفاة، وجنسيات الشخوص والأعلام، وإنما هو صفحات مشرقة تفيض الهداية من سطورها، ولا يعنيها إلا العظات والعبر من خـلال اللمسات التاريخية الدقيقة السريعة، فمن أيـن جـاء الأستاذ الوزانـى بتلـك الأبـاطيل المفتراة ؟!

لقد بحثت فى كتب المفسرين والمؤرخين والمحدثين، فلـم أجـد دليـلاً قطعيًـا، ولا حتى ظنيًا راجحًا -على أن لقمان الحكيم كان يونانيًا، وكذلـك الحـال بالنسبة لتلك الوصايا الرفيعة التى وعظ بها ولده، وحسبك أن تقرأ من هذه الكتب "قصـص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس للثعلبى" وهو كتاب يفيض بالإسرائيليات، فـلا تجـد فيه إشـارة واحـدة إلى ذلـك؛ بـل يذكـر روايـة تقـول : إنـه حبشـى، وأخـرى بأنـه إسرائيلى، وثالثة بأنه نوبى مـن سـودان مصـر[1]، بـل إن الكتـب التـى تحدثـت عـن "لقمان الجاهلى" و"لقمان صاحب السورة القرآنية المسماة باسمه" لم تشر إلى يونانيـة هذا الرجل، ولا إلى إغريقية وصاياه، فهى حين تتحدث عن لقمان الجاهلى تذكر أنه

---

[1] راجع : ص٣٥٥.

لقمان عاد الذى نسب إليه الجاهليون كثيرًا من الأمثال، واتخذوه شخصية هـى مثـال الحكمة، وزعموا أنه عاش عمر سبعة نسور، كلما هلك نسر خلف من بعـده نسـر، وكان آخرها "لبدا" الذى ذكره الشعراء كثيرًا فـى أشـعارهم. وحين تحدثـت هـذه الكتب عن لقمان الـوارد فـى القـرآن الكريـم ربطـت بينـه وبـين بلعـام حكيـم بنـى إسرائيل[1].

وكذلك الحال بالنسبة للروايات الأجنبية عن لقمـان الحكيـم، فإنهـا لم تـزد أى شيء على ما ذكرته الروايات الإسلامية، و لم تشر -ولو مـن طـرف خفـى- إلى يونانية لقمان، وإن كانت هناك مـن صلـة قـد أثبتتهـا الروايـات الأجنبيـة إلى لقمـان باليونان فهى وجـود وجـوه شبه بـين الوصايـا والأمثـال والحكـم المنسـوبة للقمـان، وقصص القصاص اليونانى الشهير "إيسوب"، وقد جاء ذلك بسبب حـرص إيسـوب على تقليد لقمان فى وصاياه غير اليونانية، فإذا علمنا أن لقمان كان يعيش فى القرن الحادى عشر قبل المسيح كما ذكرت أصح الروايات العربية، فمعنى ذلك أن إيسوب الذى عاش فى القرن السادس قبل المسيح كما قال المترجمون له قد تـأثر فـى أسـلوب قصصه وحكاياته بأسلوب لقمان الحكيم السابق فى قصصه ووصاياه، علـى نحـو مـا تأثر دانتى الإيطالى فى الكوميديا الإلهية برسالة الغفران لأبى العلاء المعرى[2].

وفضلاً عن كل ذلك، فإن من تحدث عـن حكمـاء الإغريـق لم يذكـروا أن فيهم من كان اسمه لقمان، فمن أين استقى الأستاذ الوزانى هذه الفريـة ؟! وعلـى أى مستند تاريخى إذن قد اعتمد فى دعوى يونانية لقمـان ويونانيـة وصايـاه ؟! لا شـىء -بالطبع- إلا حبه الجارف لليونـان، ورغبتـه الملحـة فـى تغريـق القصـص القرآنـى!! وحسبه فيما زعمه عن لقمان ووصاياه فى القرآن الكريم أنه ذهـب يطلـب قرطـين، فعاد بلا أذنين !!

أليس كذلك ؟!

---

[1] راجع : الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور شوقى ضيف، ص٢٣.

[2] راجع : فى نطاق التفكير الإسلامى لمحمد الحمداوى، ص٩٢، ٩٣.

خاتمة

وبعد :

فقد تجمعت لدينا جملة من الأباطيل المنسوجة حول القصص القرآنى، والمفتقرة إلى الردود الحاسمة، والمناقشة الواسعة، والتعقيب عليها بالمنهج العلمى السديد، ومن ثم اقتضت الضرورة تأليف هذا الكتاب، وقد أقمته على ستة فصول، جعلت عنوان **الفصل الأول** : "بطولة اقتباس القصص القرآنى من الشعر الجاهلى وقصص الفرس واليهود والنصارى : عرض ومناقشة"، وعرضت فيه ما زعمه المستشرق سير جارلز ليال، والمستشرق كليمانت هوارت، ومن نحا نحوهما من أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد اقتبس القصص القرآنى واستمده من شعر أمية بن أبى الصلت الثقفى. وعرضت أيضًا : ما انتهى إليه المستشرق الثانى من مقارنته التى لا أساس لها من الصحة بين شعر أمية وآيات من القرآن الكريم، كما عرضت مزاعم مستشرقين آخرين بأن القصص القرآنى مقتبس من كتب اليهود والنصارى.

وأشرت إلى حرص المستشرقين المتعصبين على ترويج دعوى بشرية القرآن الكريم بشتى الوسائل والطرق، ومثلت لذلك بما زعمه كل من : كارل بروكلمان، واجناتس جولد تسيهر، والدكتور و. سنت كلاير تسدال، وسيد رسكى، وشابيرو، وجيوم، وآرنس، ومن نحا نحوهم.

وقد عرضت ما زعمه تسدال فى مصنف له من أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد استحسن قصص الزردشتية، فكانت هذه القصص مصدرًا من مصادر القصص القرآنى عنده، وعرضت ما زعمه -كذلك- من أن القصص القرآنى المتمثل فى قصة عاد، وقصة ثمود، وقصة أصحاب الفيل، ونظير ذلك، إنما يمثل أخبارًا وخرافات كانت العجائز من النسوة فى العصر الجاهلى يحكينها للصبية ليلاً ونهارًا.

وعرضت أيضًا أبياتًا رواها على أنها من شعر امرئ القيس، ثم حاول أن

يتخذ منها قرينة على اقتباس القصص القرآنى من الشعر الجاهلى، عامدًا إلى إقامة العراقيل المبعدة عن الحقيقة الجلية.

وبعد أن عرضت ما سبق التلميح إليه : أتبعته بردود ومناقشات عديدة تدعمها الأدلة والشواهد، غير مستشهد فحسب بالآيات القرآنية الدالة على سماوية القصص القرآنى وأنه وحى من الله، وإنما حرصت -أيضًا- على دحض تلك الافتراءات والمزاعم بالمنهج الموضوعى المنطقى، والأدلة العقلية الراسخة، والتحليل الأدبى النقدى للشعر الجاهلى الذى زعموا مصدريته للقصص القرآنى، فتكشف لنا أن كثيرًا من هؤلاء المستشرقين جاهلون بالفهم الواعى للغة العربية والذوق الأدبى، يقرنون سوء الفهم بسوء النية، ويخدمون سياسة المستعمرين وسياسة المبشرين المحترفين، ويتعالون فى بحوثهم على الشرقيين، وينظرون نظرة سطحية محدودة، ويحرصون على تشويه الحقائق الإسلامية الثابتة بعكس القضايا وترويج للأباطيل. وتكشف لنا من تحليل شعر أمية الذى زعموا مصدريته للقرآن أنه إما أن يكون منتحلاً، وإما أن يكون أمية نفسه هو الذى أفاد وأخذ من القرآن الكريم، لكن المستشرقين الذين يزعمون أن الشعر الجاهلى منتحل كله، لم يقفوا هذا الموقف من شعر أمية، حتى لا تنهد من الأساس فريتهم بأن للقصص القرآنى مصادر عديدة من بينها شعر أمية.

وتكشف -كذلك- أن دعوى بشرية القرآن الكريم دعوى قديمة شكلاً ومضمونًا، وأن المستشرقين الواعين الذين عرفوا الإسلام معرفة صحيحة لم يؤمنوا بها وإنما قد اعترفوا بأن القرآن الكريم وقصصه وحى منزل من السماء، وليس بشريًا ولا كما زعم الحاقدون مقتبسًا من الشعر الجاهلى وقصص الفرس واليهود والنصارى.

ثم كان **الفصل الثانى** : "أبطولة اشتمال القصص القرآنى على الأخطاء التاريخية : مناقشات وردود"، وكان لزامًا علينا أن نكتب هذا الفصل، لنستعرض فيه نماذج مما روجه المستشرقون الأفاكون من أباطيل حول "علاقة القصص القرآنى

بالتاريخ"، حيث زعموا أن هذا القصص يشتمل على أخطاء من أخطاء التاريخ. ولم تكتفِ الدراسة بالتلميح إلى هذه الفرية، وإنما فصلت القول بشيء من التفصيل عما زعمه -في هذا الصدد- كل من : إبراهام جيجر، وجفرى، وفنسنك، وكارادى فو، والبرنس ليون كانياتى، والدكتور سنت كلاير تسدال، والفرد جيوم، وفردريك بلس، وفلهلم رودلف، وهربرت جو تشالك.

ولم تقف الدراسة -بالطبع- عند حد العرض والتفصيل لما زعمه هؤلاء، وإنما استخدمت شتى وسائل التعقيب والتفنيد والردود العلمية السليمة والمناقشات القوية الرصينة التي تثبت زيف ادعاء اشتمال القصص القرآنى على الأخطاء التاريخية، والتي تثبت في الوقت ذاته، وبما لا يدع مجالاً لشك أنه وثيقة تاريخية هي أوثق ما بين يدى التاريخ من وثائق، على الرغم من أنه لم يهدف إلى العرض التاريخي المجرد، ولا اشتمل معجمه اللفظي على مادة "أرخ" ولا شيئًا من مشتقاتها، وإنما هدف إلى العظة والعبرة والدرس المستفاد من قص أحداث التاريخ التي أوردها.

وكان من الممتع في هذا الفصل : تلك الوقفة اللغوية الخاصة التي وقفناها أمام لفظة "يوحنا المعمدان"، وهو الاسم الذى تطلقه كتب النصارى على نبى الله يحيى عليه السلام، حيث وضعنا بين يدى القارئ الكريم مدى ما في هذه التسمية من خطأ جسيم، ومدى ما تلقيه التسمية القرآنية له بيحيى من صدق وإيحاءات وظلال.

ثم كان **الفصل الثالث** الذى اخترت "دعوى اشتمال القرآن الكريم على القصص الأدبى الأسطورى" موضوعًا له. وقد استعرضت فيه رفض التزام الدكتور محمد أحمد خلف الله بالمفهوم الحقيقي للقصة في القرآن الكريم، وما نجم عن هذا الرفض من ادعائه اشتمال القرآن الكريم على القصص الأدبى الأسطورى، ومن دعوته إلى فتح باب القول بالأسطورة في القرآن الكريم على مصراعيه. وأشرت -من بين ما أشرت وأوضحت- إلى رؤاه الغريبة في المواضع القرآنية التسعة التي

وردت بها عبارة "أساطير الأولين"، وإلى أنه لم يضع بين أيدينا أية قصة يشرحها الشرح الأدبي المؤيد لفريته، وإنما كان يسير فحسب فى ركاب المستشرقين الذين زعموا ذلك.

وعرضت -كذلك- ما زعمه فى هذا الصدد أساتذة جامعيون آخرون من أمثال الدكتور الطاهر أحمد مكى، والدكتور صادق جلال العظم. ثم أتبعت ذلك كله بما يدحضه ويمحوه، ويثبت خلو القرآن الكريم تمامًا من أية قصة أسطورية، وقد استتبع هذا أن نتحدث ببعض التفصيل عن القصص الجاهلى المبنى على الأساطير، لنثبت زيف ادعاء الدكتور خلف الله بأن البيئة العربية كانت فى حاجة إلى القصص الأسطورى فلذلك اشتمل القرآن الكريم عليه ! كما استتبع هذا أن نحلل بشىء من التحليل بعض القصص القرآنية التى زعم المستشرقون ومن سار فى ركابهم أسطوريتها وكانت الغاية من هذا التحليل : أن نضع بين يدى القارئ الكريم ما ينفى عنها شبهة الأسطورة، ويبرز ما تتشح به من معالم الواقعية التامة، ودلائل الصدق الأوفى. وقد انتهينا من ذلك كله إلى التأكيد على خلو القرآن الكريم من ذلك اللون القصصى الأسطورى الذى زعمه هؤلاء الناس، وإلى أن القرآن الكريم لا يعيبه مخالفة القصص الفنى البشرى فى هذه الناحية، وذلك لأسباب عديدة أوضحناها هناك.

ثم جاء **الفصل الرابع** من هذا الكتاب، وقد خصصته بأكمله للرد على الدكتور محمد أحمد خلف الله فى أبطولة زعمها، وحاول بشتى الوسائل والسبل إثبات اشتمال القرآن الكريم عليها، وكان عنوان الفصل : "أبطولة اشتمال القرآن الكريم على القصص الخيالى التمثيلى والقياس الشعرى عرض ومناقشة"، وفيه استعرضت تقريبًا سائر ما زعمه الدكتور خلف الله، وما قام به من محاولات فى سبيل تأييد دعواه بأن القرآن الكريم يحتوى على قصص خيالى تمثيلى وقياس شعرى.. ثم أتبعت استعراضى بمناقشة مفصلة لهذه الأبطولة، والرد عليها بالمنهج

العلمى السديد، موضحًا الفارق بين الخيال القصصى التمثيلى الذى يخلو القرآن الكريم منه تمام الخلو، وبين الخيال التعبيرى الذى يشتمل عليه كتاب الله، وموضحًا -كذلك- أنواع الأقيسة المستعملة فى الاستدلال، والتى لم يرد من بينها القياس الشعرى فى القرآن الكريم.

ثم كان **الفصل الخامس** : "شبهات إبليس السبع فى مجال الأدب القصصى، ومحاولة النقاد الملحدين تطبيقها على قصص القرآن الكريم"، وفيه استعرضت -كما يشير عنوانه- شبهات إبليس السبع.. تلك التى أوردها الشهرستانى فى كتابه المشتهر : "الملل والنحل"، وقد أوضحت مدى صلة هذه الشبهات بمسألة "الجبر والاختيار" أو قضية "القضاء والقدر"، ثم الآثار الناجمة عن هذه الشبهات فى مجال الأدب القصصى، وضربت أمثلة لذلك، وأمثلة للقصص الفنى الذى تسيطر عليه العقيدة الجبرية، وكان من أبرزها : قصة الشهيد لتوفيق الحكيم.. تلك التى أوضحت عام نشرها، وبعض آراء النقاد فيها، ومضمونها، وغايتها، وانحراف المؤلف فيها عن الجادة، ومعارضتها للحقائق التى تصورها قصة آدم وإبليس فى القرآن الكريم. ثم انتقلت بعد ذلك إلى استعراض ما زعمه الدكتور صادق جلال العظم تحت عنوان "مأساة إبليس : نظرة جديدة إلى موضوع قديم"، وقد ناقشت الناقد العظم تقريبًا فى كل كلمة خاطئة زعمها، وكل أبطولة حاول ترويجها فى دفاعه الخاطئ عما أسماه مأساة إبليس، وفى فهمه الخاطئ العقيم لنصوص القصص القرآنى، ولاسيما قصة آدم وإبليس، فكشفت عن عبث هذا الناقد، وإلحاده، وتلاعبه بمعانى النصوص القرآنية، وتشويهه الحقائق، وتفننه فى احتطاب ما يؤيد به أباطيله وتخرصاته حول قصة إبليس الواردة فى القرآن الكريم، كما كشفت عن أخطائه الجسيمة فى استدلالاته العقيمة، وعن مغالطاته وتعاميه عما فى القرآن الكريم وقصصه من حقائق أوضح من الشمس فى رابعة النهار. كذلك كشفت عن إساءته الأدب مع جلال القصص القرآنى، وعن تشبيهه ما انتهى إليه إبليس بما

انتهت إليهه "أنتيجونا" و"أوديب" لنقف على حقيقتيهما، فيتضح لنا مدى ما تهافت به هذا الناقد فى التشبيه الذى أجراه.

ثم كان **الفصل السادس**، وهو الأخير من هذا الكتاب، وقد جعلت عنوانه: "تفنيد أباطيل حول بعض شخصيات القصص القرآنى"، وفيه تناولت -بالعرض والمناقشة والتفنيد- ما نسجه بعض الكتاب والدارسين من أباطيل مجافية للحقائق الثابتة حول شخصية ذى القرنين، وشخصية موسى بن عمران، وشخصية الخضر، ثم شخصية لقمان الحكيم.

وقد أطلت الوقوف -هنا- أمام الأباطيل المنسوجة حول الشخصيتين الأوليين، فتحدثت حديثًا مفصلاً عن شخصية ذى القرنين بين واقعية القرآن الكريم وأسطورية الشعر القديم وأوهام الدارسين المعاصرين، فأوضحت الدراسة من خلال هذا الحديث نوع قصة ذى القرنين بين أنواع القصص القرآنى، وعدد آياتها، وتناسقها الإعجازى مع قصة أصحاب الكهف فى السورة التى احتوتهما معًا، ودلالتها على سبق القرآن الكريم إلى ما يسميه الأدباء والنقاد المحدثون بالقصة القصيرة، وعلى ما يحتويه كتاب الله العظيم من "إعجاز غيبى" يتناول الشخصيات والأحداث المعرقة فى القدم.

كذلك أوضحت الدراسة الغاية من ذكر البطل فى هذه القصة بصفة "ذى القرنين"، واستعرضت الدراسة عدة نماذج من محاولات الكتاب والدارسين المحدثين فى الاستقرار بشأنه على اسم معين. وكان من أعجب هذه المحاولات ادعاء دارس معاصر كشفنا عن اسمه هناك بأن ذا القرنين هو "جلجاميش" بطل الأسطورة المشتهرة فى الأدب العراقى القديم باسم "ملحمة جلجاميش"، وهى المعلقة العربية الأولى فى نظر هذا الدارس ! بل وأخطر وثيقة تاريخية عرفها الناس، وتركها القدماء للمتأخرين ! وقد أشرنا -هناك- إلى الوسائل العديدة التى حاول هذا الدارس الاستعانة بها فى إثبات مزاعمه، وإلى ادعائه بأن قصة ذى القرنين وقصة موسى مع

الخصر الواردتين فى سورة الكهف قصة واحدة مكونة من قسمين لا يستقل أحدهما عن الآخر، والبطل فيهما واحد هو : موسى الملقب بذى القرنين فى القرآن الكريم، وبجلجاميش فى القصيدة العراقية القديمة، وليس موسى -هنا- هو كليم الله ابن عمران، وإنما هو -فى أوهام هذا الدارس- موسى بن ميشا.

وبعد أن لخصنا مزاعم هذا الدارس، وسردنا الأدلة الضعيفة المحتطبة من هنا وهناك ليؤيد بها مفترياته، أخذنا فى الرد عليه، ووضع الحقائق الثابتة بين يدى القارئ الكريم، وقد استتبع هذا أن نتحدث ببعض التفصيل عن ملحمة جلجاميش، والخط الذى كتبت به، واللغات التى ترجمت إليها، وبعض أسماء من ترجموها. كذلك اقتضى الرد واستدعت المناقشة أن أذكر بعض المناحى المشتركة بين قصة ذى القرنين وقصة موسى بن عمران مع الخضر عليهما السلام، ويغلب على ظنى أن أحدًا لم يسبقنى إلى اكتشاف هذه المناحى، وقد انتهيت من ذلك كله إلى تخطئة هذا الدارس فيما زعم، وإلى التأكيد على أن قصة ذى القرنين لا تشكل -إطلاقًا- مع قصة موسى بن عمران والخضر قصة واحدة، وأثبت -من واقع القصص القرآنى ذاته والأحاديث النبوية الصحيحة- أن موسى هذا هو موسى الثانى المنتسب إلى عمران، وهو الذى كلمه الله تعالى بالوادى المقدس فى سيناء، وليس موسى الأول المنتسب إلى ميشا، ونفيت -بالأدلة القوية المقنعة- أن يكون ذو القرنين هو بعينه جلجاميش، فموسى بن عمران شخص، وموسى بن ميشا شخص آخر، وذو القرنين شخص ثالث، وثلاثتهم يختلفون عن بطل الأسطورة العراقية القديمة.

وعلى نحو ما كان منا تجاه هذه الفرية، مضينا نستعرض مزاعم شعراء فارسيين كشفنا عن أسمائهم هناك، ومزاعم علماء وباحثين آخرين كشفنا عن أسمائهم أيضًا بأن ذا القرنين الوارد فى القرآن هو الإسكندر بن فيليبس اليونانى بانى الإسكندرية والإسكندرونة. وحرصنا فى استعراض هذه الفرية على ذكر ما اعتمدوا عليه من أدلة واهية، كما حرصنا -بالطبع- على إسقاط هذه الفرية وهدمها من

أساسها، وعلى دحض كل فرية تزعم يونانية ذى القرنين على أى شكل كان، وعاونتنا على هذا دراستنا الأدبية التحليلية لأشخاص القصة القرآنية، ونظراتنا الواعية الدقيقة المستقصية للمنهج الذى سلكه القصص القرآنى فى الحديث عن الرومان والفرس، والذى ثبتت منه استحالة أن يكون ذو القرنين يونانيًا تحت أى اسم كان، كما ثبتت منه استحالة أن يكون فارسيًا تحت أى لفظ يطلق عليه.

ومن هنا : تمكن البحث -أيضًا- أن يدحض كل المزاعم والأدلة التى تفوه بها أبو الكلام أزاد ومن جرى مجراه من العلماء والكتاب الذين كشفنا عن أسمائهم فى الدراسة بأن ذا القرنين هو الملك الفارسى "قورش" أو "خورش" كما تسميه التوراة التى بأيدى اليهود اليوم.

كذلك استعرض البحث المزاعم والأدلة الضعيفة التى حاول بها أحد الكتاب المصريين أن يثبت أن ذا القرنين هو حزقيال الكاهن بن بوزى الذى جاء ذكره فى العهد القديم، فأبطلنا هذه الفرية على النحو الذى أبطلنا به كل ما سبق.. وكانت الخلاصة من ذلك كله-أن كل واحد ممن حاولوا الاستقرار بشأن "ذى القرنين" على اسم معين، أو على نسبته لأمة معينة لم يتكئ على حجة ثابتة، ولا على سند صحيح، فجاءت محاولاتهم متضاربة، يتناقض كل منها مع الآخر، ومن ثم فإنه يلزم أن يعيدوا حساباتهم وتصوراتهم من جديد، وليس أدل على ذلك من أن صاحب هذه الرسالة نفسه قد عجز بأن يجرى معهم فى هذا المضمار، بأن يقول فى خاتمة المطاف : من هو -بالتحديد- ذو القرنين بطل القصة الواردة فى سورة الكهف ؟ فهذه الشخصية مازالت حتى اليوم من أسرار الإعجاز القصصى الغيبى فى كتاب الله، ومن يدرى لعل العقل يهتدى فيما بعد إلى الحقيقة الجلية الحاسمة فى هذه القضية التى حيرت العلماء والكتاب والمفكرين أربعة عشر قرنًا من الزمان !! ومما لاشك فيه : أن هذا وحده إعجاز، وأى إعجاز !!

ومما لاشك فيه -أيضًا- أن عجزى هذا، وعجزى -بالحتم- عن كشف

الكثير والكثير من حقائق الإعجاز فى القصص القرآنى، ذو دلالة كافية على أننا مهما حاولنا أن نجتهد فى بيان هذه الحقائق، وتجلية ما فى هذا القصص من جدة وروعة، وحكم وأسرار، وجماليات وغيبيات، فإنه لا يمكن -إطلاقًا- الوصول إلى كل شىء، ولا إلى حصرٍ فى تحديد ما ذكرناه وغيره.. الأمر الذى نجده -أيضًا- فى بقية الموضوعات والجوانب التى احتواها المصحف الشريف بين دفتيه.. «فعلى الرغم من كثرة ما كتب عن الإعجاز القرآنى فى القديم والحديث على السواء، فإنه مايزال قطرة من بحر، مما ينبغى أن يكتب للكشف عن هذه الجوانب التى لا تبلى على كثرة الرد، إذ كلما أمعن الباحثون النظر فيه، وأخلصوا النية له، وامتلكوا وسائل البحث الجاد من علم بالتراث، وفقه فى اللغة وبصر بالأساليب، وذوق أدبى مرهف صقلته القراءة الواعية المتنوعة -تكشف لهم عن عطاء سخى لا ينفد، ومعانٍ جديدة تؤكد إعجازه»[1].

وعلى كل حال، فإننى لم أكتفِ فى الفصل الذى أستعرض الآن أهم نقاطه ونتائجه بما أشرت إليه آنفًا، وإنما انتقلت بعد هذا فأشرت إلى ادعاء باحث كشفت عن اسمه ومكانته العلمية المرموقة بأن سيدنا الخضر عليه السلام كان إغريقيًا، وابن خالة للإسكندر الأكبر، ولم أكتفِ بهذه الإشارة، وإنما أتبعتها بالحقيقة الجلية التى تدحض هذه الأبطولة الكاذبة، والتى تنفى عن شخصيته التى لا يعلم حقيقتها إلا علام الغيوب هذه القرابة المزعومة، وتلك الجنسية المخترعة.

وكان آخر ما جاء فى هذا الفصل : إشارتى إلى ادعاء الدارس السابق -أيضًا- بأن الأنبياء قد أخذوا العلم عن الفلاسفة اليونانيين، وبأن الوصايا الواردة فى القرآن الكريم على لسان لقمان الحكيم إنما هى وصايا يونانية، والناطق بها يونانى كذلك، وقد أقرها الدين الإسلامى الحنيف بالقيمة ذاتها التى كانت لها عند اليونان.

---

[1] من بدائع النظم القرآنى، ص٦.

ثم أتبعت ذلك بذكر الحقيقة الدامغة لهذه الأباطيل الملفقة، فذكرت المنهج القصصى الذى سلكه القرآن المجيد فى تناول شخصية لقمان، وعرض وصاياه لابنه، وأوضحت أن كتب المفسرين والمؤرخين قديمًا وحديثًا لم يشر أى منها إلى ما أشار إليه هذا الدارس، وحاول أن يثبته، وقد استدعى المقام أن أتحدث فى عجالة عن كل من "لقمان الجاهلى" و"لقمان صاحب السورة القرآنية المسماة باسمه"، وأن أتحدث فى عجالة أيضًا عن القصاص اليونانى "إيسوب".. ذلك الذى أغرم فى حياته بتقليد سيدنا لقمان فى حكمه ووصاياه.. وكانت الخلاصة من ذلك كله : أن الباحث لا يعثر -أبدًا- على دليل قطعى واحد، ولا حتى ظنى راجح، يثبت أحدهما أو كلاهما ما زعمه هذا الدارس ذو المكانة العلمية المرموقة !

وهكذا استطاعت هذه الدراسة -بتوفيق من الله عز وجل- أن تستعرض ألوانًا عدة من الأباطيل لم تكن الأنظار تتجه إلى الكثير منها، فأبانت عن وجوه الزيف فيها، وكشفت عن مدى خطورتها، وأقامت مقامها الحقائق الجلية المستقاة من واقع القصص القرآنى ذاته، وبذلك استكمل البحث مناحى فى الدراسة الأدبية البيانية التحليلية للقصة القرآنية، كانت -بالحتم- تنقص هذه الدراسة، وكانت -بالحتم أيضًا- جد مفتقرة إلى من يؤكد عدم اقتباس القصص القرآنى من الشعر الجاهلى وقصص الفرس واليهود والنصارى، ويؤكد خلوه من الأخطاء التاريخية، والقصص الأسطورية، والخيال التمثيلى القصصى، والقياس الشعرى، وغير ذلك مما استعرضناه آنفًا، من أوهام المستشرقين ومن لف لفهم، ونحا نحوهم من المستغربين العرب.

هذا أهم ما جاء فى الكتاب من نقاط، وتلك أبرز ما تمخضت عنه الدراسة من نتائج، وأتمنى أن أكون قد وفقت فى جمع شتات البحث.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

١-القرآن الكريم.

٢-إبليس : عباس محمود العقاد، طبعة دار الهلال، ١٩٥٨م.

٣-الإتقان فى علوم القرآن : جلال الدين السيوطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

٤-أخبار مكة المشرفة : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأرزقى، المطبعة الماجدية، مكة المكرمة، ١٣٥٢هـ.

٥-الأدب المقارن بين النظرية والتطبيق : د. إبراهيم عبد الرحمن محمد، منشورات مكتبة الشباب، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.

٦-الإسلام دعوة عالمية : عباس محمود العقاد، العدد ٢٣٧ من كتاب الهلال الصادر فى نوفمبر ١٩٧٠ عن دار الهلال، القاهرة.

٧-أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن : محمد الأمين الشنقيطى، ط المؤسسة السعودية بمصر لصاحبها على صبح المدنى.

٨-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعى، دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الثامنة.

٩-أعلام الموقعين عن رب العالمين : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية، مراجعة وتقديم وتعليق : طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل بيروت.

١٠-أنبياء الله : أحمد بهجت، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.

١١-١١-إنجيل متى : دار الكتاب المقدس بمصر، ١٩٦٩م.

١٢-الإنسان والشيطان : د. فاروق أحمد دسوقى، منشورات دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع بالإسكندرية، ط مطابع جريدة السفير بالإسكندرية، ١٩٨٣م.

١٣-بحوث فى قصص القرآن : السيد عبد الحافظ عبد ربه، مطابع الجبل، لبنان، منشورات دار الكتاب اللبنانى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.

١٤-بلوغ الأرب فى أحوال العرب : السيد محمود شكرى الألوسى، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٢٤م.

١٥-البيان القصصى فى القرآن الكريم : د. إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

١٦-البيان والتبيين : الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة، الطبعة الرابعة.

١٧-تأملات فى سورة مريم : د. حسن محمد باجودة، منشورات دار الاعتصام، ط دار النصر للطباعة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٨م.

١٨-تاريخ الأدب العربى : كارل بروكلمان، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

١٩-تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية : كارلو نالينو، تقديم الدكتور طه حسين، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.

٢٠-تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان، ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية.

٢١-تاريخ العرب قبل الإسلام : د. جواد على، مطبعة التفويض، بغداد، ١٩٥١م.

٢٢-تاريخ معالم الإنسانية : ولز، الترجمة العربية.

٢٣-تاريخ وحضارة مصر والشرق القديم، محمد على قطب الهمشرى، الجهاز المركزى للكتب الجامعية، ١٩٨١م.

٢٤-تجديد التفكير الدينى فى الإسلام : محمد إقبال، ترجمة عباس محمود، ١٩٥٥م.

٢٥-تفسير البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبى حيان الأندلسى الغرناطى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

٢٦-تفسير جزء تبارك : الشيخ عبد القادر المغربى، مطابع جريدة الشعب، القاهرة، ١٩٥٧م.

٢٧-تفسير جزء عم : الشيخ محمد عبده، مطابع جريدة الشعب، القاهرة.

٢٨-تفسير الخازن المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل : علاء الدين على بن محمد إبراهيم البغدادى الصوفى المعروف بالخازن، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٢٩-تفسير سورة مريم : أبو الأعلى المودودى، تعريب أحمد إدريس، ط المختار الإسلامى.

٣٠-تفسير الفخر الرازى المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب : الإمام محمد الرازى فخر الدين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٣١-تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار : السيد محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

٣٢-تفسير القرآن العظيم الشهير بتفسير ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى.

٣٣-تفسير القرطبى المسمى الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، مطابع دار الشعب.

٣٤-تفسير النسفى : عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى، دار إحياء الكتب العربية.

٣٥-تنزيه القرآن عن المطاعن : القاضى عبد الجبار، دار النهضة الحديثة، بيروت.

٣٦-حاشية بن المنير على هامش الكشاف المسماة "الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال" : الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندرى المالكى، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٣٧-حاشية الجرجانى على هامش الكشاف[1] : السيد الشريف على بن محمد بن على السيد زين الدين أبو الحسن الحسينى الجرجانى، دار المعرفة، بيروت.

٣٨-الحب الإلهى فى شعر محيى الدين بن عربى : د. عبد الفتاح الدماصى، مطبعة دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٣م.

٣٩-الحيوان : الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط المجمع العلمى العربى الإسلامى، بيروت، الطبعة الثالثة، وطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٩٤٥م.

٤٠-دائرة المعارف الإسلامية : النسخة العربية، إعداد وتحرير إبراهيم زكى خورشيد وأحمد الشنتناوى والدكتور عبد الحميد يونس، طبعة دار الشعب.

٤١-دراسات فى تاريخ العرب القديم : د. محمد بيومى مهران، مكتبة التونى للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٨٣م.

٤٢-دعوة الرسل إلى الله تعالى : محمد أحمد العدوى، القاهرة ١٩٣٥م.

٤٣-ديوان أبى الوفا محمود رمزى نظيم : مطبعة رعمسيس بالفجالة، ١٩٢٤م.

٤٤-ديوان أمية بن أبى الصلت الثقفى : جمع بشير يموت، منشورات المكتبة الأهلية، ط المطبعة الوطنية، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م.

٤٥-ديوان حسان بن ثابت : تحقيق سيد حنفى حسنين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.

٤٦-ديوان محمود أبى الوفا الجامع لكل شعره والمسمى "محمود أبو الوفا : دواوين شعره ودراسات بأقلام معاصريه" : طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.

٤٧-ذيل مقالة فى الإسلام، جرجيس صال، ترجمة هاشم العربى، مطبعة النيل المسيحية بالقاهرة، ١٨٩١م.

---

[1] وصل فيها إلى أواسط سورة البقرة.

٤٨-رد مفتريات على الإسلام : د. عبد الجليل شلبى، منشورات دار القلم، الكويت، ط. دار النفائس بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٤٩-ركائز الإيمان بين الدين والعقل : الشيخ محمد الغزالى، بيروت ١٩٦٧م.

٥٠-روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى المشتهر باسم تفسير الألوسى : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى، إدارة الطباعة المنيرية ودار إحياء التراث العربى بيروت.

٥١-رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين : ليحيى بن شرف النووى، دار الحديث.

٥٢-السيرة النبوية : أبو محمد عبد الملك بن هشام، تحقيق الدكتور محمد فهمى السرجانى، منشورات مكتبة التراث الإسلامى بحلب، ط دار التوفيقية للطباعة بالأزهر ١٩٧٨م.

٥٣-سيكولوجية القصة فى القرآن : د. التهامى نفرة، ط الشركة التونسية لفنون الرسم بتونس، ١٩٧٤م.

٥٤-شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : بهاء الدين عبد الله بن عقيل، دار مصر للطباعة، الطبعة العشرون ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

٥٥-الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى : د. محمد مصطفى هدارة، دار المعارف، الطبعة الأولى.

٥٦-الشعر والشعراء : ابن قتيبة الدينورى، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

٥٧-الشهيد : قصة لتوفيق الحكيم، نشرت عام ١٩٥٣م.

٥٨-صراع مع الملاحدة حتى العظم : عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٥٩-طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحى، دار المعارف، ١٩٥٢م.

٦٠-العصر الجاهلى : د. شوقى ضيف، دار المعارف، الطبعة التاسعة.
٦١-عصمة الأنبياء : الإمام فخر الدين الرازى، دار الثقافة العربية للطباعة بالقاهرة، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م، العدد ٤٧ من سلسلة الثقافة الإسلامية.
٦٢-العقيدة والشريعة فى الإسلام : المستشرق أجنتس جولد تسيهر، ترجمة محمد يوسف موسى وزميليه، طبعة دار الكتاب المصرى، فبراير ١٩٤٦م.
٦٣-فتح البارى بشرح صحيح البخارى : ابن حجر العسقلانى، منشورات دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط المطبعة البهية المصرية، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.
٦٤-فجر الإسلام : أحمد أمين، دار الشباب للطباعة، الطبعة الثانية عشرة، ١٩٧٨م.
٦٥-الفن القصصى فى القرآن الكريم : د. محمد أحمد خلف الله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٥٧م.
٦٦-الفن ومذاهبه فى النثر العربى : د. شوقى ضيف، دار المعارف، الطبعة التاسعة.
٦٧-فى الأدب الجاهلى[1] : د. طه حسين، دار المعارف، الطبعة الرابعة عشرة.
٦٨-فى الرواية العربية : فاروق خورشيد، دار الشروق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
٦٩-فى ظلال القرآن : سيد قطب، دار الشروق، الطبعة العاشرة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
٧٠-فى نطاق التفكير الإسلامى : محمد الحمداوى، ط دار الثقافة بالدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
٧١-قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى : عبد الله بن عبد الجبار ومحمد عبد المنعم خفاجى، دار مصر للطباعة، الطبعة الأولى ١٩٥٨م.

---

[1] نُشر هذا الكتاب أول ما نُشر تحت عنوان "فى الشعر الجاهلى".

٧٢-قصة الحضارة : ول ديورانت، ترجمة محمد بدران والدكتور زكى نجيب محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر.
٧٣-القصة فى الأدب الفارسى : د. أمين عبد المجيد بدوى، دار المعارف، ١٩٦٤م.
٧٤-القصة القصيرة : دراسات ومختارات : د. الطاهر أحمد مكى، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.
٧٥-قصص الأنبياء : عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، الطبعة الثانية.
٧٦-قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس : أبو إسحاق أحمد بن محمد النيسابورى المعروف بالثعلبى، ط شركة الشمرلى بالقاهرة، ١٩٨٢م.
٧٧-قصص القرآن فى مواجهة أدب الرواية والمسرح : أحمد موسى سالم، دار الجيل بيروت ١٩٧٧م.
٧٨-قضايا إسلامية مناقشات وردود : د. محمد رجب البيومى، دار الوفاء للطباعة والنشر بالمنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٧٩-الكاتب العربى والأسطورة : محمد عصمت حمدى، منشورات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ط دار الشعب، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
٨٠-الكتاب المقدس[1] : ترجمة الآباء اليسوعيين، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت ١٨٨٢م.
٨١-الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل المشتهر بتفسير الزمخشرى : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
٨٢-الكلام والقول فى القرآن الكريم : بهاء الدين القبانى، منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مطابع الأهرام التجارية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م.

[1] هكذا يزعم النصارى !

٨٣-مؤلفات فى الميزان : أنور الجندى، ملحق بجلة منار الإسلام الصادرة بدولة الإمارات العربية المتحدة، العدد الخامس، السنة الحادية عشرة.
٨٤-مذاهب التفسير الإسلامى : المستشرق جولد تسيهر، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.
٨٥-المزهر فى علوم اللغة وأنواعها : جلال الدين السيوطى، شرح محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى.
٨٦-المسيح إنسان أم إله : د. محمد مجدى مرجان، منشورات دار النهضة العربية بالقاهرة، مطبعة دار الهنا.
٨٧-مصادر الإسلام : د. و. سنت كلاير تسدال، الترجمة العربية.
٨٨-مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية : عباس العقاد، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، الطبعة الأولى.
٨٩-معجزة القرآن : الشيخ محمد متولى الشعراوى، كتاب اليوم الصادر عن مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٨١م.
٩٠-المعجزة الكبرى : القرآن : الشيخ محمد أبو زهرة، منشورات دار الفكر العربى، ط دار غريب للطباعة، ١٩٧٧م.
٩١-مع القرآن: الشيخ أحمد حسن الباقورى، المطبعة النموذجية بالقاهرة، ١٩٧٠م.
٩٢-مع القرآن الكريم : د. أحمد محمد الحوفى، منشورات دار نهضة مصر، ط دار العالم العربى، ١٩٧١م.د
٩٣-المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ : نجيب محمد البهبيتى، منشورات دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
٩٤-ملحمة كلكامش : ترجمة الدكتور سامى سعيد الأحمد، منشورات دار الجيل ببيروت ودار التربية ببغداد، ط مؤسسة خليفة للطباعة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٩٥-الملل والنحل : الشهرستانى، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبى.
٩٦-منطق الطير : فريد الدين العطار النيسابورى، دراسة وترجمة الدكتور بديع محمد جمعة، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
٩٧-المنهج الإيمانى للدراسات الكونية فى القرآن الكريم : د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، ط الدار السعودية بجدة، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
٩٨-نحو القرآن : د. محمد البهى، منشورات مكتبة وهبة ط مطبعة التقدم، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
٩٩-نقد الفكر الدينى : د. صادق جلال العظم، بيروت، أكتوبر ١٩٦٩.
١٠٠-اليهود فى القرآن : عفيف عبد الفتاح طبارة، مطبعة دار الكتب، بيروت.
١٠١-يوحنا المعمدان : النبى يحيى عليه الصلاة والسلام : عبد الرزاق نوفل، ط دار الشعب، الطبعة الثالثة.

بحوث ومقالات فى الدوريات

١٠٠-ثقافة القرآن ثقافة عالمية : مقالة للتهامى الوزانى - مجلة دعوة الحق، شوال ١٣٨٤هـ.
١٠١-خواطرى حول القرآن الكريم : تفسير للشيخ محمد متولى الشعراوى، صحيفة اللواء الإسلامى، أعداد ٢٥ / ١ / ١٤٠٣هـ، ٢٦ / ٦ / ١٤٠٤هـ، ١٠/ ٢/ ١٩٨٣م، ٢٧ / ٩ / ١٩٨٤م، والحلقتان الثانية والرابعة من الخواطر حول سورة البقرة.
١٠٢-ذو القرنين : مقال للشيخ أحمد حسن الباقورى، مجلة الوعى الإسلامى، رمضان ١٣٩١هـ
١٠٣-ذو القرنين: شخصية حيرت المفكرين أربعة عشر قرنًا وكشف عنها أبو الكلام أزاد : مقال للدكتور عبد المنعم النمر، مجلة العربى، مارس ١٩٧٤م.

١٠٤-شخصية ذى القرنين : بحث لأبى الكلام أزاد، مجلة ثقافة الهند، مارس ويونيو ١٩٥٠م.

١٠٥-شخصية ذى القرنين بين قورش والإسكندر المقدونى : مقال للدكتور سعد الدين الجيزاوى، مجلة الأزهر، شعبان ١٣٨٢هـ.

١٠٦-الشيطان فى الأدب العربى الحديث : مقال لمحمد عبد الغنى حسن، مجلة الهلال، مايو ١٩٧٤م.

١٠٧-مأساة إبليس: نظرة جديدة إلى موضوع قديم!! : محاضرة للدكتور صادق جلال العظم، مجلة حوار، لبنان، العدد الثانى، السنة الرابعة، يناير / فبراير ١٩٦٦م.

١٠٨-محمد -صلى الله عليه وسلم- فى أبحاث المستشرقين الألمان : مقال للشيخ طه الولى، مجلة الوعى الإسلامى، ربيع الأول ١٣٩٢هـ.

١٠٩-مختارات من شعر ابن عربى فى التصوف : مقال لعبد العزيز سيد الأهل، منبر الإسلام، جمادى الآخرة ١٣٨٥هـ.

١١٠-المستشرقون ودعوى بشرية القرآن : بحث للدكتور محمد إبراهيم الفيومى، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، العدد الثالث، ١٩٨٥م.

١١١-النيام السبعة وأهل الكهف : مقال للدكتور عبد الله العمرانى، مجلة العالم العربى، الكويت، العدد ٢١٦.

١١٢-وجه الشبه بين القرآن وشعر أمية بن أبى الصلت!! : بحث للمستشرق الفرنسى كليمانت هوارت، المجلة الآسيوية، الجزء العاشر، القسم الرابع، ١٩٠٤م.

الفهرس

للمؤلف

١-كشف النقاب عن القصائد المتميزة بالألقاب (الحلقة الأولى) مطابع القدس، الإسكندرية ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

٢-القصيدة المنفرجة وأثرها فى التراث العربى (توثيقًا وتحليلاً ودراسة)، مطابع القدس، الإسكندرية ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

٣-صورة سعاد فى قصائد بانت سعاد (دراسة نصية لإحدى عشرة قصيدة)، الدار المصرية للنشر والتوزيع، الإسكندرية ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٤-العقد الثمين فى أدب الجاهليين، الدار المصرية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٩٩-٢٠٠٠م.

٥-أدب القصة فى القرآن الكريم (دراسة أدبية تحليلية كاشفة عن الإعجاز)، الدار المصرية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

٦-الأدب الإسلامى (معالم تأصيل وثمار تطبيق)، الدار المصرية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

٧-حربيات البارودى (تحليل موضوعى وتقويم فنى) (قيد الطبع).

٨-تأملات فى إعجاز القصص القرآنى (قيد الطبع).

٩-قصة يوسف عليه السلام وأثرها فى الأدب (قيد الطبع).

١٠-الديوان الكبير لابن حجر العسقلانى (تحقيقًا ودراسة) (قيد الطبع).

١١-ديوان الشهاب المنصورى (أكبر شعراء القرن التاسع الهجرى) (تحقيقًا ودراسة) (قيد الطبع).

١٢-عين النبع فى مختصر طرد السبع للعلامة السيوطى (تحقيقًا ودراسة) (قيد الطبع).

١٣-حديث المساء (مقالات وبحوث فى الأدب والنقد) (قيد الطبع).

رقم الإيداع
٣١٦٤ / ٢٠٠٠